رواية

الغيلان السود

محمد سيد

دارك

www.darak-egy.com
01027251915 - 01098952125
51 ب شارع النزهة من شارع رمسيس - القاهرة
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر
دارك للنشر والتوزيع

الغيلان السود

اسم المؤلف: محمد سيد

تصميم الغلاف: روان ندا

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2025/35069

الترقيم الدولي:1-60-9672-977-978

الطبعة الأولى: 2026

(مقدمة)

لم تكن زنزانةً، بل قبرًا مفتوحًا. الظلام لم يكن مجرّد غيابٍ للضوء، بل كيانٌ يتنفس، يتمدد، ويزحف نحوه كأفعى جائعة، تراقب بصبرٍ لا يليق إلا بمفترسٍ واثقٍ من فريسته. العفن يثقل الهواء، والرطوبة تتغلغل في عظامه، أمّا الجدران فكانت تتحلل معه، تتهشم ببطءٍ كروحه العالقة في هذا السجن البارد. لكنه لم يكن وحده؛ شيءٌ آخر يتنفس معه، يراقبه من بين الفراغات.

جلس (أدهم) في المنتصف، متصلّبًا كتمثالٍ نُحت من الرعب. عيناه المتسعتان تتفحصان الجدران، كأنهما تنتظران شيئًا يزحف من قلب الظلام. حاول إقناع نفسه بأن كل هذا محض أوهام، مجرّد ظلالٍ يبعثها الضوء الشاحب المتراقص فوق رأسه، لكنه يعلم؛ هذه الظلال لا تخصه.

ثم أتت الأصوات. صريرٌ خافتٌ في البداية، لكنه يزداد حدّة. أظافر طويلة تنقب على سطحٍ حجري، تزحف ببطء.. تزحف عبر الجدران، عبر الأرضية. هذه الجدران لا تحتويه، بل تحبسه مع شيءٍ آخر، شيءٍ يريد الخروج.

ارتجفت يده، لكنها قبضت على القلم كما لو كان طوق نجاةٍ في بحرٍ من الظلام. حاول أن يكتب، أن يُلقي رعبه بين سطور المفكرة القديمة، لكن القلم توقف، تجمّد بين أصابعه. يده لا تتحرك، كأن شيئًا آخر يمسك بها من الجهة الأخرى.

نظر إلى الورقة أمامه، كانت فارغة قبل لحظات، لكنه يراها الآن.. كلمات محفورة كأن يدًا خشنة نبشتها منذ زمنٍ بعيد:

«لم يكن يجب أن تأتي».

انتفض على وقع الطرق. صوتٌ خافت، متتابع، ليس بشريًا، لا استعجال فيه، لا غضب، مجرّد إيقاعٍ مدروس، كما لو أن الطارق يعلم أن الوقت في صفه، وليس في صالحه. تحركت عيناه نحو الباب، لكن شيئًا ما شده للأسفل. قشعريرةٌ تجمدت في عموده الفقري. أمرٌ غريزيٌ أخبره بألا يرفع رأسه، بألا ينظر، لكنه فعل. ظله.. لا يشبهه. كيانٌ مشوّه، أطول مما ينبغي، رأسه منحرفٌ بزاويةٍ مستحيلة، وأطرافه لا تتبع قوانين البشر. تصلّب جسده، وانحبست أنفاسه في صدره، لا يجرؤ على الحركة. الشيء لا يتحرك، لكن عينيه.. جامدتان، سوداوان، بلا عمق، بلا نهاية، ثقبٌ أسود يسحب روحه إليه. ثم طَرق ببطء، دون أن يحرك رأسه.

نظر إلى الجدران؛ الظلال هناك لا تعكس شيئًا، تزحف وتلتف، تتمدد كأجسادٍ ملتويةٍ بلا ملامح، بلا وجوه، لكن أنفاسها كانت تملأ الغرفة. ارتفع الطرق مرةً أخرى، أقرب، أقوى. أصبح مقتنعًا أن شيئًا ما خلف الباب لا ينتظر. لا يدري أيهما أسوأ.. ما ينتظره خلف الباب، أم ما يتحرك في الظلام حوله؟

تمسكت أصابعه المرتعشة بالقلم، كما يتمسك الغريق بخشبةٍ عائمة وسط بحرٍ هائج. انحنى فوق المفكرة، وبدأ بالكتابة:

«أنا (أدهم) شكري.. الصحفي الذي لا يجب أن يكون هنا».

خرجت الكلمات مرتعشة، لكنه أجبر نفسه على الاستمرار. ظل يكتب، لكن الكلمات لم تأتِ منه وحده.

«هذه القرية ليست طبيعية، شيءٌ ما كان يراقبني منذ أن

وطأت قدماي أرضها، شيءٌ لا ينتمي لهذا العالم».

توقف الطرق خلف الباب فجأة. لا حركة، لا صوت، لكنه لم يرفع رأسه.. لم يجرؤ.

«الظلال هنا ليست انعكاسات.. إنها كيانات تتحرك حين لا أنظر، تراقبني، وتقترب أكثر كلما غفلت عنها».

ارتعشت الورقة بين يديه. الهواء تثاقل، الجدران انكمشت عليه، سحبته، وأطبقت عليه. ثم همس، همسٌ قريبٌ جدًا، باردٌ كنسمةٍ من مقبرةٍ مهجورة:

«استمر في الكتابة.. نحن نقرأ معك».

إلى من يقرأ هذه الكلمات.. لم يفت الأوان بعد. احرق هذه المخطوطة، مزقها، انثر رمادها في ماءٍ جارٍ، ولا تلتفت أبدًا، لأن الغيلان ليست مجرّد قصص تُحكى حول النيران، وليست أساطير صنعها الخيال.. إنها حقيقية. وهي تراقب، دائمًا تراقب.

«لم يكونوا بشرًا، ولم يكونوا جنًا. لم يُخلقوا من طين، ولم يُصنعوا من نار. كانوا شيئًا آخر.. شيئًا لم يُرد له أن يوجد».

يُقال إن الغيلان لم تكن من العالم الذي نعرفه، بل وُجدت عن طريق الخطأ، فجوة بين العوالم، ثغرة لم يُنتبه لها أحد. كانوا سرابًا صار لحمًا، ظلًا صار كيانًا، وحين وُجدوا، لم يرحب بهم أحد. الإنس رفضوهم لأنهم ليسوا بشرًا، والجن طاردوهم لأنهم ليسوا منهم. فماذا يفعل مخلوقٌ لا ينتمي إلى أي عالم؟ يختبئ.. ويتعلم كيف يسرق وجوه الآخرين.

لا أحد يعرف الشكل الحقيقي للغيلان، لأن لا أحد رآهم على

حقيقتهم وعاش بعدها، لكن الجميع يعرف ما يستطيعون فعله.

الغيلان لا تهاجم، لا تقتل، لا تترك جثثًا خلفها. إنها تتسلل، تراقب، تنتظر، ثم تختار ضحيتها. في البداية، ستراهم من بعيد، أشخاصًا مجهولين في زوايا الطرق، وجوهًا مألوفة لكنك لا تتذكر من هم. رجل في السوق يشبه والدك، لكنك تعلم أنه مات منذ سنوات. امرأة عابرة تحمل نفس ملامح معلمتك القديمة، لكن عينيها فارغتان، عيناها سوداء تمامًا. ثم في يومٍ ما، ستقابل شخصًا يشبهك تمامًا، ليس شبيهًا فقط، بل مطابقًا. نفس الملامح، نفس الابتسامة، نفس النظرة التي تراها في المرآة كل صباح. لكنه ليس أنت. إنه يراقب ويتعلم، وفي إحدى الليالي، وأنت نائم.. سيتحرك.

الغيلان لا تسرق الأرواح، لا تلتهم الجثث. إنها شيء أسوأ. إنها تسرق الوجود. في اللحظة التي تستبدلك فيها غول، لن يلاحظ أحد. سيمشي مكانك، يتحدث بصوتك، ينظر في عيون أصدقائك دون أن يشكوا لحظة. لكنه ليس أنت. إنه مجرّد نسخة.. وأنت؟ أنت ستصبح الفراغ. ستُمحى من الذاكرة ببطء. صورتك في ألبومات العائلة ستبهت، اسمك سيصبح غريبًا على ألسنة من أحببتهم، حتى يأتي اليوم الذي لا يتذكرك فيه أحد. لأن الغيلان لا تسرق حياتك فقط، بل تمحو أثر أنك كنت هنا أصلًا.

لا أحد يعلم متى كان أوّل ظهور للغيلان، لأنهم لم يتركوا وراءهم تاريخًا، بل فراغًا. كل قصة عنهم تُمحى، كل ذاكرة تتلاشى، وكأنهم لم يكونوا هنا قط. لكن في أعماق الصحراء،

في الكهوف التي لم يدخلها بشر، وعلى الجدران التي لم يمسسها نور، هناك نقوش قديمة. وجوه مشوهة، ملامح غير مكتملة، عيون فارغة تراقب من الظلال. رسومات صنعها أناسٌ اختفوا منذ آلاف السنين، وهم يصرخون عبر الحجر:

- إنهم هنا.

في المخطوطات المنسية، هناك ذكرٌ خافتٌ لهم. في أوراق ممزقة، كتبتها أيادٍ مرتعشة، كلمات لم تُكمل، تحذيرات انقطعت في منتصفها. كان هناك رجلٌ كتب ذات مرة: «إنهم ليسوا جنًا، وليسوا بشرًا، إنهم صدى شيءٍ لم يكن من المفترض أن يوجد.. » ثم انتهت الصفحة، والحبر ما زال مبللًا. حتى الأساطير القديمة تحاول نسيانهم، لكن هناك قصة واحدة لم تُمحَ تمامًا..

أسطورة الوليمة الأخيرة

في مدينة ضائعة، يُقال إنها كانت مزدهرة، مأهولة بالناس الذين لم يخشوا الظلام، أُقيمت وليمة عظيمة في قصر الملك. طعام، شراب، احتفال، وضحكات تتردد بين الجدران. لكن، في منتصف الليل، توقفت الضحكات. بدأ الناس ينظرون لبعضهم البعض، ليجدوا بينهم غرباء، ليسوا جنودًا، ولا ضيوفًا، ولا حتى خدمًا. كانوا يشبهونهم تمامًا. رجلٌ جلس في مكانه، ثم نظر إلى الجالس أمامه، فوجد نفسه ينظر في وجهه. أمٌ التفتت إلى ابنها، لتجد اثنين منه. ثم جاء الصوت. لم يكن همسًا، لم يكن صراخًا، بل كان شيئًا بينهما، كأنه صوت الحجارة وهي تُسحق تحت الأقدام، كأنه صوت الزمن وهو يُكسر ببطء:

- لقد كنا جائعين.

وفي الصباح، حين أشرقت الشمس على المدينة، كانت خالية. لا جثث، لا أثاث، لا شيء. فقط أطلال، وجدران محفور عليها نفس الجملة، مكررة عشرات المرات، كأنما كُتبت بأيدٍ مذعورة:

- إن رأيت نفسك.. اهرب.

تحذير أخير: أنت لم تعد وحدك. إذا قرأت هذه المخطوطة، فاعلم أن الغيلان الآن تعرف أنك تعرف. في البداية، ستسمع اسمك يُنطق بصوتك، رغم أنك لم تتحدث. سترى نفسك بين الحشود، رغم أنك لم تخرج من منزلك. ستشعر بوجود شخص خلفك، رغم أنك وحدك في الغرفة. وحين يأتي الليل، ستعرف الحقيقة، لأنك ستنظر في المرآة.. ولن تجد انعكاسك.

الفصل الأول

السيارة السوداء توقفت أمام مبنى الجريدة، صوت محركها يتلاشى شيئًا فشيئًا قبل أن يصمت تمامًا. فُتح الباب ببطء، كاشفًا عن حذاء جلدي مصقول يلامس الرصيف بثبات، ثم ظهر الرجل، طويل القامة، عريض الكتفين، يرتدي معطفًا ثقيلًا ينسدل حتى ركبتيه، يمتلك حضورًا يجذب الأنظار حتى دون أن يحاول. لم يكن وسيمًا بالمعنى التقليدي، لكن هناك شيئًا في ملامحه يجبرك على التحديق؛ ربما تلك العيون السوداء العميقة التي تلمع تحت الضوء الخافت، أو الحاجبان المعقودان دومًا وكأنه في معركة دائمة مع العالم، أو ذلك الخط الرفيع من الندبة التي تقطع وجنته اليمنى، تذكارًا من قصة لم يروِها لأحد.

(أدهم شكري) لم يكن مجرّد صحفي استقصائي، بل كان صائدًا للحقائق، رجلًا لا يعرف الخوف ولا تعنيه العواقب. قصصه لم تكن تُكتب، بل تُنتزع من قلب العتمة، من الأماكن التي يخشاها الآخرون، ومن الحكايات التي يُفضّل أن تظل طيّ الكتمان. يتنقل بين أروقة الحقيقة كما تتنقل الظلال بين الأزقة المظلمة، عيناه دائمًا تبحثان عن الخيط الرفيع الذي يفصل بين الواقع والوهم.

تجاوز البوابة بخطوات واثقة، لم يلتفت للتحيات الملقاة عليه إلا بإيماءة بالكاد تُلاحظ. صعد الدرجات نحو المصعد، مرآته العاكسة أظهرت انعكاسه للحظة؛ الوجه الذي صار مألوفًا في الصحف والشاشات، الشعر الأسود المشعث رغم محاولات تهذيبه، المعطف الجلدي الذي صار علامته المميزة،

والسجائر التي لا تفارق أصابعه وكأنها امتداد ليده. فتح باب مكتبه ليكشف عن الفوضى المعتادة؛ جدران مغطاة بصور ووثائق، مكتب تكدست عليه الأوراق، ولوحة ممتلئة بخيوط حمراء تربط بين الأسماء والأماكن، تشبه شبكة عنكبوت تنسج قدرًا لا مهرب منه. ألقى معطفه على الكرسي، والتقط ورقة من بين الفوضى، أشعل سيجارته ببطء، ثم تمتم لنفسه بابتسامة خافتة:

- حسنًا.. لنرَ ما يخبئه لي هذا اليوم.

جلس خلف مكتبه الفاخر، ثم مال إلى الخلف وهو يمرر يده فوق لحيته المشذبة بتأنٍ. عيناه الداكنتان العميقتان تخفيان أسرار العالم، تابعتا شاشة الحاسوب المحمول أمامه وهو يفتحه بحركة روتينية. أصابع يديه الطويلة، التي اعتادت التقليب في الملفات السرية وكشف المستور، نقرت على لوحة المفاتيح بسرعة، قبل أن يظهر أمامه الموقع الذي بات يشغل جزءًا كبيرًا من حياته (العين الثالثة).

لم يكن يومًا ممن يرضون بالقيود. الصحافة التقليدية، رغم نفوذها، بدت له مجرّد سجن آخر تُدار فيه الأخبار وفق مصالح خفية. لذلك حينها قرر أن يأخذ مسارًا مختلفًا؛ أنشأ مدونته الخاصة، مساحة بلا رقابة، بلا إملاءات، حيث يمكنه أن يسرد الحقائق كما هي، عارية، بلا تزييف. أطلق عليها اسم (العين الثالثة)، أصبحت نافذة أخرى يرى من خلالها ما لا يراه الآخرون. في البداية، لم تلقَ المدونة سوى اهتمام محدود، مجرّد بضع مئات من القراء الفضوليين الذين يبحثون عن قصص غير مألوفة، لكن الأمر لم يستمر طويلًا؛ فكلما كشف

عن حادثة غامضة، وكلما كشف خبايا ملف مسكوت عنه، ازداد عدد متابعيه. سرعان ما تحولت (العين الثالثة) إلى ظاهرة، مكان يجتمع فيه كل من يؤمن أن هناك أسرارًا مخفية وراء الواقع الظاهر، كل من يبحث عن الحقيقة، حتى لو كانت مُظلمة.

بدأ الأمر بتحقيقات صحفية معتادة.. قضايا فساد، حوادث غير مفسرة، أشخاص اختفوا في ظروف غريبة. لكن شيئًا فشيئًا، بدأ القراء يرسلون له قصصهم الخاصة، مشاهداتهم، تحليلاتهم. بعضهم تحدث عن ظواهر لا تفسير لها، عن أماكن مسكونة، عن كيانات لم يكن يُفترض أن تكون موجودة. ومع كل مقال جديد، كانت المدونة تغوص أعمق في هذا العالم المجهول، إلى أن صار اسم (أدهم شكري) مرتبطًا بشيء أبعد من مجرّد الصحافة، صار أشبه بصائد أسرار، رجل يلاحق الظلال بحثًا عن إجابات لا يجرؤ الآخرون على طرح أسئلتها.

لكن الشهرة لها ثمن. فكما جذبت المدونة المتابعين المتعطشين للمعرفة، جذبت أيضًا من لا يريدون لهذه الأسرار أن تُكشف. تلقى تهديدات، تحذيرات، محاولات لإسكاته. البعض حاول رشوه، والبعض الآخر حاول تخويفه، لكنه لم يكن ممن يتراجعون. ظل يسير على الحافة، بين الحقيقة والخطر، مدفوعًا بشيء لم يفهمه تمامًا؛ ربما كان الفضول، وربما كان شيئًا آخر، أعمق وأخطر.

ظل يتابع بإمعان تدفق الإشعارات التي لا تنقطع، عيناه الحادتان تتنقلان بين التعليقات ورسائل البريد الإلكتروني، بينما أصابعه تنقر سطح المكتب برتابة، يستجمع أفكاره. لم

يمضِ سوى لحظات حتى انفتح باب مكتبه، ودخل (فريد)، مساعده الشخصي، بخطوات سريعة، يحمل في يده ملفات متراكمة، وفي اليد الأخرى كوبًا ساخنًا من القهوة. كان شابًا في أواخر العشرينيات، نحيف القامة، ذو نظرات قلقة دائمة خلف نظارته الطبية. تبعته (ليلى)، مساعدته الصحفية، وهي شابة في منتصف العشرينيات، ذات شعر بني قصير وعينين عسليتين تشعان ذكاءً. كانت ترتدي قميصًا أبيض وسترة سوداء، تمسك بيدها جهازًا لوحيًا، وتستعد لتقديم تقرير مهم. نظر إليهما (أدهم) وبابتسامة خفيفة وهو يقرأ التعليقات، قال:

- يبدو أن لغز «الشقة رقم 7» أثار ضجة كبيرة.. كعادتي.

ردت (ليلى) بضحكة ساخرة:

- وهل كنت تتوقع غير ذلك؟ الناس تعشق طريقة سردك للأحداث، تشعر وكأنها تحقق معك في كل قضية.

رفع (أدهم شكري) حاجبه بخفة، بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة، قبل أن يقول بصوته العميق:

- بل يشعرون وكأنهم جزء من الحدث نفسه، وهذا هو المطلوب.

وضع المساعد (فريد) القهوة أمامه ثم جلس على الأريكة المقابلة وقال:

- بالمناسبة، تلقيت رسالة من «كمال الجبالي».

توقف (أدهم) عن الكتابة، وضاقت عيناه باهتمام. كمال الجبالي، الصحفي الاستقصائي المعروف، والمنافس اللدود له،

وقال:

- وماذا يريد هذه المرة؟

مدّ (فريد) يده وهو يعطيه هاتفه المحمول، وقال:

- أرسل لك رابط مقال جديد.. يبدو أنه يحاول فضح تحقيقك الأخير حول «الشقة رقم ٧».

فتح الرابط، وقرأ العنوان بصوت مسموع:

«أدهم شكري.. هل هو محقق أم مجرّد راوي قصص مبالغ فيها؟»

نظر إلى المساعد بابتسامة باردة:

- يبدو أنني نجحت في إثارة غيرته مجددًا.

ارتشف رشفة من قهوته، ثم أغلق الرابط بلا اكتراث، لكن داخله كان يغلي. هو يعلم أن كمال لن يهدأ حتى يسقطه، لكنه أيضًا لم يكن من النوع الذي يسمح لنفسه بالسقوط. وضع الهاتف على سطح المكتب برفق، ثم أسند ظهره إلى الكرسي، وعيناه لا تزالان معلقتين بالشاشة المطفأة أمامه. انعكاس صورته عليها بدا كأنه شبح لشخص آخر، رجل حمل على عاتقه أثقالًا لم يخترها، لكنه لم يستطع التخلي عنها.

نهض (فريد) بعد أن لمح نظرة (أدهم) الغارقة في التفكير، وسحب سترته وهو يقول بنبرة عملية:

- حسنًا، سأتركك الآن. لدي بعض الترتيبات للقاء الغد مع المصدر بخصوص قضية «الشقة رقم ٧».

لم يعلق أدهم، فقط أومأ برأسه ببطء دون أن يحوّل نظره

عن الفراغ الممتد أمامه، يحاول رؤية شيء لا يراه الآخرون. وقفت (ليلى) عند الباب، مترددة للحظة قبل أن تقول بابتسامة ساخرة:

- اليوم عطلة لي بمناسبة عيد ميلادك، أليس كذلك؟

لم يردّ عليها، لكن ابتسامة خفيفة مرت على زاوية فمه قبل أن تختفي. غادرت (ليلى)، وأغلق (فريد) الباب خلفهما، تاركًا (أدهم) وحده مع أفكاره، مع السيجارة التي تحترق بين أصابعه، ومع الهدوء الثقيل الذي لم يكن راحة، بل كان ساحة معركة صامتة بينه وبين كل ما يطارده. نهض ببطء، مشى نحو النافذة، نظر إلى أضواء المدينة التي تمتد في الأفق، كأنها نبض خافت في جسد عملاق لا ينام، حيث كان العالم مستمرًا في الدوران، غير مكترث بمعاركه الشخصية. لكنه لم يكن جزءًا من هذا العالم العادي، لم يكن يومًا كذلك.

وفجأة، قطع صوت الهاتف رنين الصمت. شاشة الجهاز تضيء باسمٍ مألوف.. (نادية).

ظل الهاتف يهتزّ للحظات في يده، يتحداه أن يجيب، ثم التقطه أخيرًا، ضغط على زر الإجابة، ولم يقل شيئًا. جاء صوتها هادئًا، لكنه محمّلٌ ببرودةٍ اخترقت صدره:

- لم تردّ على مكالماتي السابقة.

أغمض عينيه للحظةٍ قصيرة، ثم أجاب بصوتٍ خافت:

- كنتُ مشغولًا.

ضحكت، لكنها لم تكن ضحكة، كانت صفعةً ناعمة على وجهه:

- طبعًا.. دائمًا مشغول. العمل، التحقيقات، القصص الغامضة.. أمّا ابنك؟ فهو ليس ضمن جدول أعمالك، أليس كذلك؟

أطفأ السيجارة المشتعلة بين أصابعه بقوة، ونظر إلى السقف للحظة، يبحث عن إجابة:

- نادية، لا تبدأي هذا الآن.

- أنا لا أبدأ شيئًا، أنا فقط أضعك أمام الحقيقة. (علاء) يسأل عنك، ولا أجد إجابة أقدمها له سوى أنك غارقٌ في عالمك الخاص، بعيدًا عنه.. وبعيدًا عني.

كان بإمكانه أن يسمع أنفاسها، كان بإمكانه أن يتخيلها وهي تمسك الهاتف بإحكام، ربما واقفة في ردهة المستشفى، ربما جالسة على الأريكة في غرفة المعيشة التي لم يعد يزورها كثيرًا.

- أعلم أني قصّرت، لكنكِ تعلمين أن هذا العمل ليس ترفيهًا، إنه.. شغفي، طريقتي لفهم هذا العالم اللعين.

جاء ردّها حادًا كحدّ السكين:

- وأنا؟ و(علاء)؟ أين نقف في هذا العالم؟ هل نحن مجرّد تفاصيل جانبية في قصةٍ تكتبها وحدك؟

تصلّب فكّه، مرّر يده في شعره وهو يضغط بأسنانه على السيجارة. للحظة، فكّر أن يخبرها أنها تبالغ، أنها تعلم كم يحاول، لكنه أدرك أن ذلك سيكون كذبة. لم يكن يحاول.

- نادية.

- أنا ذاهبة إلى منزل أهلي، سأبقى هناك. ربما يمنحك ذلك

وقتًا كافيًا للتفكير في طلاقنا.. إن كنتَ لا تزال قادرًا على التفكير بنا أصلًا.

صمتٌ، لم يكن هناك شيءٌ ليُقال، ثم كما جاءت، غادرت.

في هذه اللحظة شعر أن الغرفة تضيق عليه؛ الجدران، الطاولة المزدحمة بالأوراق، المصباح الأصفر المتأرجح فوق رأسه. كل شيء ثابت، لكنه وحده يهتز من الداخل، يتآكل بصمت. مدّ يده إلى الهاتف، تردد لوهلة، كما لو أن وزنه يتضاعف بين أصابعه. (نادية) تغادر إلى منزل أهلها مرة أخرى؟ هل بقي لهذا الرحيل معنى؟ أم تحوّل إلى عادة، كقهوةٍ تبرد قبل أن تُشرب، أو سيجارةٍ تُنسى في العلبة؟ لكن الأمور لم تبدأ بهذا الشكل. ذاكرة بعيدة أطلت من الماضي، مشهدٌ عالق بين طيات الزمن. المطر يهطل بغزارة، الشوارع تلمع تحت الأضواء الخافتة، و(نادية) تقف أمام بوابة الجامعة، معطفها الرمادي يلتصق بجسدها بفعل الرياح، والمظلة السوداء التي ترفعها بالكاد تحميها.

خرج هو مسرعًا من القاعة، يركض بلا مظلة، يتفادى برك الماء كمن يهرب من شيءٍ غير مرئي. حين لمحته، لم تقل شيئًا، فقط ابتسمت، ثم مدت مظلتها نحوه. المطر يتساقط حولهما كحاجزٍ يفصل العالم إلى قسمين؛ ضجيجٌ يبتعد، وصمتٌ يقترب. في عينيها انعكس شيءٌ لم يفهمه يومها، طمأنينةٌ غريبة وسط الفوضى. لحظتها أدرك أن في الحياة شيئًا يستحق التوقف عنده. لكن الحب لا يبقى كما هو؛ يتآكل، يتشوّه، يتحول إلى ظلٍّ باهت لما كان عليه.

تذكّر ليلة الزفاف، كان يراقبها من بعيد وسط الزحام.

الفستان الأبيض يحيط بها كضوءٍ خافت وسط بحرٍ من الوجوه، ضحكاتها تتردد بين الحاضرين، لكنها لم تصله. لم يسمع شيئًا، فقط رأى ملامحها تتحرك، كصورةٍ صامتة في فيلمٍ قديم.

حينها تسلّل إليه الخوف، ليس من الزواج، بل من أن يصبح شخصًا يمكن فقدانه. ومع ذلك لم يحاول الإمساك بها. السنوات مضت، والشغف الذي جمعهما تحوّل إلى ذات السكين الذي فصل بينهما. أدركت مبكرًا أن قلبه لم يكن لها وحدها. ماضيه يلتهمه، القضايا العالقة تسرق وقته، والألغاز تطارده حتى في فراشه. لم تنافسه على امرأة، بل على هواجسه التي لم تفارقه يومًا.

ثم جاء ((علاء)). كان من المفترض أن يكون الجسر الذي يصل بين عالميهما، لكنه لم يكن سوى مسافة أخرى تُضاف إلى الفراغ. أحبّ ابنه، لكنه لم يعرف كيف يكون أبًا، كيف يتواجد بجسده وروحه معًا، كيف ينصت دون أن يحلل كل كلمة وكأنها دليلٌ في تحقيقٍ معقّد.

«ربما يمنحك ذلك وقتًا كافيًا للتفكير في طلاقنا.. إن كنتَ لا تزال قادرًا على التفكير أصلًا».

كلماتها الأخيرة تتردد داخله، كصدى بعيد يتشظى في الفراغ. هل لا يزال قادرًا على التفكير بها؟ بـ(نادية) التي كانت يومًا عالمه بأسره؟ أم أنه فقدها كما فقد كل شيء آخر؟

نهض أخيرًا، خطاه تتجه مرة أخرى نحو النافذة. المدينة تمتد أمامه، أضواؤها تتراقص كأنها تستهزئ بعزلته. فتح النافذة قليلًا، سمح للهواء البارد بالتسلل إليه، كأنه يبحث

عن نسمة توقظه من سباته الطويل. لكن الحقيقة تترصده من كل زاوية. في الخارج كانت المدينة تمتد بأضوائها، لكن في الداخل، كان هناك شيء آخر يحدث، شيء لا يحتاج إلى تفسير. في أعماقه ظلٌ يشبهه تمامًا، يحدّق إليه بلا ملامح.

لم يسمع الباب وهو يُفتح، ولم يكن بحاجة إلى ذلك. كان يعرف هذا الحضور جيدًا، يعرف إيقاع خطواتها، الرائحة الخفيفة التي تسبقها، الطريقة التي تفرض بها وجودها دون جلبة، كأنها ظلٌ ينساب في المكان، يفرض سحره دون أن يطلب الإذن. رفع عينيه ببطء، وهناك كانت (ليلى). وقفت عند المدخل، في يدها صندوق صغير، وفي الأخرى كيس ورقي تنبعث منه رائحة قهوة يعرفها جيدًا. لكنها لم تكن مجرّد امرأة تحمل هدية، كانت شيئًا آخر.. شيئًا أكثر تعقيدًا. نقيضًا لكل شيءٍ يعرفه. ليست مثل زوجته، التي يشدّه إليها ماضٍ ثقيل ومشاعر تتآكل ببطء. كانت مختلفة، فكرة غير مكتملة، إغراءً لا يحتاج إلى كلمات. مجرّد وجودها يخلّ بتوازنه، كأنها تدرك نقاط ضعفه دون أن يحاول إخفاءها.

لم تكن جميلة إلى حدّ الجنون، لكنها كانت تحمل ذلك النوع من الجاذبية الذي لا يمنحك فرصة للهروب. شعرها الطويل ينسدل بحرية، عيناها تلمعان بذكاءٍ يعرف كيف يُخفي نواياه، وابتسامتها.. تلك الابتسامة التي لا تقول شيئًا، لكنها توحي بالكثير.

- عيد ميلاد سعيد.

قالتها بنبرة هادئة، ووضعت الهدية على الطاولة دون أن تطلب منه فتحها. ظل يراقبها، أصابعه انقبضت قليلًا على

الطاولة، ليس رفضًا، ولكن كأن جسده يحاول تذكيره بشيءٍ ما.

- لم أكن أظنك ستقضي ليلتك بمفردك.

كلماتها تسلّلت إليه بسهولة، كأنها تعرف ما يدور في رأسه قبل أن يقوله.

- ولا أنا.

نظر إلى الكيس الورقي، ثم إليها. لم تكن عابرة، لم تكن بريئة. كانت تعرف تمامًا تأثيرها عليه، وكان ذلك أخطر ما فيها. مدّت يدها، فتحت العلبة، ولمسته دون أن تلمسه.

- ألستَ فضوليًا؟

ابتسم بسخرية، لكنه لم يمدّ يده.

- أخشى أنني فقدت فضولي منذ زمن.

أمالت رأسها قليلًا، تأملته للحظة، ثم قالت بصوتٍ خافت:

- أشك في ذلك.

ثم وضعت يدها على الهدية، تهدد بأخذها معها، لكنه لم يتحرك. لم يمنعها، لكنه أيضًا لم يستطع إبعاد عينيه عنها. ظل يراقبها، ذلك الترقّب الصامت. لم يتحرك، لم يردعها، لكنه أيضًا لم يمنحها الإذن. كان يعلم أن بعض النساء يملكن قدرة فطرية على احتلال المساحات، و(ليلى) كانت واحدة منهن. لم تكن بحاجة إلى تصريحٍ كي تفرض وجودها، كان يكفي أن تقف هناك، على بُعد خطوة، لتصبح جزءًا من المشهد، جزءًا من أفكاره التي لا يريد الاعتراف بها.

أمالت رأسها قليلًا، وهي تتوقع ردّ فعلٍ لم يصل بعد. طرف أصابعها لا يزال مستقرًا فوق العلبة، حركة تبدو عفوية لكنها ليست كذلك. ابتسم بسخرية خافتة، تلك الابتسامة التي تأتي حين يعي الإنسان أنه يُدفع نحو شيء يعرف أنه يجب أن يبتعد عنه.. لكنه لا يفعل. ثم بصوتٍ خافت لكنه محمّل بيقينٍ قاطع، قال:

- سنتعشى معًا الليلة.

لم يظهر عليها اندهاش أو ارتباك، فقط تركت الصمت يمتد للحظة، تزن كلماته، تختبر إن كان يقصدها فعلًا، أم أنه يلقي بها في الهواء كجملة عابرة. وبابتسامة بالكاد تُرى، حرّكت يدها بعيدًا عن العلبة، لا ببطءٍ متعمّد ولا بسرعة متحفّظة، بل بإيقاعٍ محسوب، وكأنها تقول إن اللعبة بدأت، وإنها تعرف قواعدها جيدًا. مرّرت كفّها على فستانها، كأنها تتأكد أن كل شيء في مكانه، ثم رفعت نظرها إليه وسألته بنبرة لم تُخفِ شيئًا:

- وأين سنتعشى؟

نهض ورفع معطفه من طرف الكرسي، ألقاه على كتفه بحركة بدت عفوية لكنها لم تكن كذلك، ثم قال وهو يتجه نحو الباب دون أن يلتفت:

- سأقرر في الطريق.

لم تعترض، لم تطلب تفاصيل أكثر. سارت أمامه بخطواتٍ واثقة، ولم يحاول أن يمنع نفسه من ملاحظة ذلك. خرجت أولًا، كما لو أنها تعرف الطريق مسبقًا. خطواتها ثابتة، تنسج إيقاعًا ناعمًا على الأرضية، بينما أغلق هو الباب خلفه. تحرّك

بجوارها دون استعجال. شعرا أنهما اعتادا السير معًا، رغم أن هذه اللحظة لم تتكرر من قبل.

في الخارج لفحتهما نسمات الليل الباردة، ممزوجة برائحة المدينة التي لا تنام. ضوضاء خافتة من بعيد، أصوات محركات، ضحكات متقطعة لأشخاص مجهولين، كلها امتزجت مع الخطوات التي تتقاطع بينهما دون حديث. ألقت عليه نظرة جانبية، لم تكن طويلة، مجرّد لحظة تكفي لتتأكد أنه هناك، أنه لم يتراجع في اللحظة الأخيرة. ثم بنبرة خفيفة لا تخلو من تلميح خفي، قالت:

- هل قررتَ إلى أين سنذهب؟

لم ينظر إليها مباشرة، لكن زاوية فمه ارتفعت بابتسامة بالكاد تُرى، تلك الابتسامة التي تأتي حين يدرك الرجل أنه على وشك الدخول في لعبة لا يعرف إن كان يريد الفوز بها أم لا.

- هل لديكِ اعتراض على المفاجآت؟

لم تجبه فورًا، بل اكتفت بإيماءة صغيرة قبل أن تتقدم خطوتين إلى الأمام، وتضعه في موضع الملاحق، لا القائد. ركب سيارته، راقبها وهي تجلس بجانبه، تغلق الباب بحركة سلسة. أدار المحرك، ألقى نظرة خاطفة نحوها، ثم دفع السيارة للأمام.

تحركت السيارة ببطء وهي تتردد في اختراق سكون الليل. على الزجاج، انعكست أضواء المدينة المتناثرة، تُلقي بظلالها على وجهه، فتجعله يبدو كشخصين في آنٍ واحد، أحدهما هنا، والآخر ضائعٌ في مكانٍ لا يُرى. أما هي فكانت تجلس

بجواره، ساق فوق أخرى، ظهرها مستندٌ إلى المقعد كما لو أنها استوطنت المكان منذ زمن. لم تكن مضطربة، لم تحاول ملء الصمت بحوارٍ فارغ، بل تركته يتمدد بينهما، مثل تيارٍ خفي يحمل معه أشياء لا تُقال.

على جانب الطريق، تتابعت الأرصفة والمباني كصفحاتٍ تُقلّب في كتابٍ لم يُكتب بعد. إشارات المرور تلونت بالأحمر والأخضر، لكن السيارة مضت تتحرك خارج الزمن، خارج الضوضاء التي تملأ المدينة. لم يكن يقود فقط، بل كان يهرب من صوته الداخلي، من الأسئلة التي تتراكم في رأسه، من الشعور الثقيل الذي تركته مكالمة (نادية). التفت قليلًا نحو (ليلى)، فرآها تحدق في الأفق، شفتيها متراخيتين في شبه ابتسامة لا يعرف إن كانت مقصودة أم مجرّد أثرٍ لأفكارها الخاصة.

- لم تخبرني بعد.. إلى أين نحن ذاهبون؟

لم يلتفت إليها، لكنه لمح انعكاس عينيها على زجاج النافذة، نظرة تحمل مزيجًا من التحدي والانتظار.

- هناك مطعم أعرفه.. بعيدٌ عن الصخب.

لم تجب، فقط حرّكت أصابعها ببطء على طرف معطفها، كأنها تزن كلماته بميزانٍ دقيق، ثم التفتت إليه وقالت بنبرة هادئة، لكنها مغمورة بسخريةٍ خفيفة:

- لا تبدو كرجلٍ يحب الأماكن الهادئة.

زاوية فمه ارتفعت قليلًا، لكن الابتسامة لم تكتمل.

- ولا تبدين كمن يخاف المجازفة.

أمالت رأسها قليلًا، وكأنها تمنحه نقطةً لصالحه. خارج السيارة، كان كل شيء يمضي كالمعتاد؛ السيارات تمر، الناس يعبرون، الزمن يتحرك. لكن في الداخل، في هذا المربع الصغير من العزلة، كانت هناك لعبة أخرى تُلعب، لا قواعد واضحة لها، ولا نهاية متوقعة.

توقفت السيارة أمام المطعم، وميض المصابيح الأمامية انعكس على الواجهة الزجاجية، كاشفًا عن تفاصيله العتيقة. لم يكن مطعمًا فخمًا، لكنه امتلك تلك الهيبة التي تراكمت مع الزمن. جدرانه شهدت على آلاف الحكايات التي تُروى بصوتٍ خافتٍ فوق موائده. المبنى نفسه كان قطعةً من تاريخ المدينة؛ حجارة قديمة متآكلة الأطراف، أبواب خشبية ثقيلة تحمل بصمات مئات الأيدي التي دفعتها عبر السنين. اسم المطعم كُتب بخطٍّ عربيٍّ أنيقٍ على لافتةٍ نحاسية، تعكس وهج المصابيح الشاحبة.

في الداخل، امتزج ضوء الشموع الخافت مع رائحة التوابل والخبز المحمّص. الطاولات كانت متناثرة بعناية، تفصل بينها مساحاتٌ تكفي لمنح روّاد المكان خصوصيةً صامتة. على الجدران عُلّقت صورٌ قديمة، وجوهٌ لأشخاصٍ رحلوا منذ زمن، لكنهم ظلّوا هنا، تتابع نظراتهم كل زائرٍ جديد، وكأنهم حُكموا بالبقاء أبديًا في هذا المكان.

النادل العجوز، الذي بدا كجزءٍ لا يتجزأ من المطعم، اقترب منهما بإيماءةٍ خفيفة. لم ينطق بكلمة، فقط أشار إلى طاولةٍ في زاويةٍ بعيدة، تطل على نافذة. جلس واستند إلى المقعد، عيناه تجولان في المكان، بينما هي وضعت كفّيها على

الطاولة، نظراتها تتابع تفاصيل المطعم، كأنها تحاول فك شيفرته.

- أحببت هذا المكان.

قالتها بصوتٍ هادئ، لا يحمل مجاملة، بل حقيقة واضحة. رفع (أدهم) حاجبًا خفيفًا، قبل أن يمرر أصابعه على سطح الطاولة الخشبية وينظر إليها نظرةً طويلة، ثم أضاف بصوتٍ بالكاد يُسمع:

- كنت أعلم أنك ستحبينه.

ابتسمت ووضعت قائمة الطعام جانبًا، كما لو أنها لم تكن بحاجةٍ إليها منذ البداية. بعينين تحملان ثقة من يعرف ماذا يريد، أشارت إلى النادل بحركةٍ خفيفة من يدها، وحين اقترب، لم تتردد لحظة:

- سآخذ شرائح لحم مشوية، متوسطة النضج.. أمممم لا، اجعلها نصف ناضجة، مع صلصة الفلفل الأسود، وخضار مشوي على الجانب، وأضف طبق حساء اليقطين.

توقفت للحظة، ثم أضافت، وهي تميل رأسها قليلًا نحو (أدهم):

- وبالنسبة له.. سيأخذ شيئًا لا يحتاج إلى تفكير طويل، صحيح؟ طبق المعكرونة بالكريمة والمشروم، مع قليل من جبن البارميزان.

رفع حاجبه، نصف ابتسامة ساخرة مرت على شفتيه.

- أصبحتِ تتخذين القرارات عني الآن؟

أسندت ذقنها على يدها، وأجابت بنبرةٍ خافتة، كأنها تهمس

بسرٍّ لا يُقال:

- ليست كل القرارات، فقط تلك التي تعرف أنك ستتخذها على أي حال.

تراجع النادل خطوة إلى الخلف، مسجلًا الطلب، بينما ظل يراقبها بصمت، كأنها أمامه لغزٌ يعرف أنه لن يجد إجابته بسهولة.

تسللت عيناها إلى الندبة التي تمتد على جانب وجهه، خطٌّ باهت، لكنه لا يخطئه النظر، كأنه شق طريقه على جلده ليحفر أثرًا أعمق في داخله. للحظة، بدت مترددة، تزن كلماتها قبل أن تنطقها، ثم سألت بصوتٍ هادئ، ناعم كالسهم قبل أن يصيب الهدف:

- لم أسألك من قبل.. كيف حصلت على هذه الندبة؟

جمُدت ملامحه، رغم أن جسده لم يتحرك، كأن السؤال أصابه في موضع لم يكن مستعدًا لحمايته. حدق في وجهها للحظة، لا يرى عينيها بقدر ما يرى انعكاسًا مشوّهًا لشيءٍ كان يهرب منه. داخل صدره، كان هناك شيء يتحرك، شيء يشبه يدًا قديمة امتدت فجأة من الماضي، قبضت على ضلوعه بقوة، انتزعت منه أنفاسه، ورمته في ظلامٍ يعرفه جيدًا.

أبعد عينيه عنها، أخذ نفسًا بطيئًا، يجرّ الهواء إلى رئتيه بالقوة، ثم زفره دون أن ينظر إليها.

- مجرّد حادثٍ قديم.

لكن نبرته لم تكن عادية، لم تكن إجابة، بل كانت جدارًا يرتفع بينهما، يحاول أن يعيدها إلى مكانها الآمن، بعيدًا عن

هذا الجزء منه الذي لا يجب أن تراه.

لم تكن هي غافلة عن ذلك. ارتسمت على شفتيها ابتسامة بالكاد وُلدت قبل أن تختفي، لكنها لم تضغط عليه. فقط مالت قليلًا إلى الخلف، تراقب كيف سقطت كلمتها في الماء، وكيف تركت دوائر صغيرة تتمدد ببطء قبل أن تتلاشى.

- أحيانًا، الأشياء القديمة لا تموت.. فقط تختبئ حتى نلمسها من جديد. أخبرني إذا أردتَ الحديث.

قالتها دون أن تنظر إليه، لكنها شعرت بتوتره في الصمت الذي تبعها، في الطريقة التي عبث بها بأطراف الشوكة بين أصابعه، في العتمة التي غيّرت بريق عينيه للحظة.

الفصل الثاني

ساد صمتٌ ثقيل بينهما، ارتجفت يد (أدهم) قليلًا قبل أن يضع الشوكة على الطاولة بصوتٍ خافت، لكنه بدا كصرخةٍ مكتومة. نظر إليها نظرةً طويلة، مزيجًا من الانزعاج والارتباك والغضب المكبوت.

- لماذا تهتمين؟

نطقها بصوتٍ منخفض، لكنه حمل في طيّاته شيئًا مظلمًا، شيئًا لم يُرد أن يراه أحد. لم تجبه فورًا، فقط أمالت رأسها قليلًا، تحاول فك شفرة ذلك الجدار الذي رفعه أمامها. لم يكن الهروب أسلوبه، لكنها رأت في عينيه شيئًا مختلفًا هذه المرة، شيئًا جعلها تشعر أنها ضغطت على جرحٍ لم يلتئم أبدًا. شدّ قبضته للحظة، ثم دفع الكرسي إلى الخلف فجأة، مُحدِثًا صوتًا أجبر بعض الجالسين حولهما على الالتفات. نهض، التقط معطفه، لكن أصابعه انقبضت عليه بقوة، كأنها تبحث عن شيء يثبّته وسط العاصفة التي اشتعلت داخله.

- هذا ليس من شأنك إطلاقًا.

قالها بصوتٍ منخفض لكنه قاطع. نظرةٌ واحدة كانت كافية لتدرك أنه على وشك أن يبتعد.. وأنها لن تستطيع منعه هذه المرة. استدار، خطا خارج المطعم، تاركًا خلفه طبقًا لم يُمس، وامرأةً تحدّق في الكرسي الفارغ أمامها، كأنها تحاول قراءة الفراغ الذي خلّفه وراءه. خرج من المطعم كأن الهواء بداخله قد اختنق. خطواته سريعة لكنها غير مستقيمة، الأرض تمتد تحت قدميه، الأصوات من حوله تلاشت، تحولت إلى ضوضاء

بعيدة. شعر أن المدينة بأكملها تقف خلف جدارٍ زجاجي سميك لا يستطيع كسره.

عندما وصل إلى السيارة، لم يفتح الباب مباشرة. رفع يده إلى وجهه، مرّر أصابعه على الندبة ببطء، شعر أنها تحرق جلده الآن أكثر من أي وقتٍ مضى. أنفاسه تسارعت، لم يكن غاضبًا منها بقدر ما كان غاضبًا مما أيقظته فيه. قبضته انغلقت، أظافره انغرست في راحة يده، لكنه لم يشعر بشيء. وللحظة، فكّر في مواصلة السير، في أن يترك السيارة والمكان وكل شيء خلفه، لكنه كان يعلم أن الهروب مجرّد وهم.

أخرج المفتاح من جيبه بعصبية، ضغط الزر فصدر صوت فتح الأبواب، لكنه لم يدخل على الفور. وقف للحظة، تنفّس بعمق، ثم فتح الباب بقوة وهو يحاول إفراغ شيءٍ من داخله. جلس على المقعد، يداه على المقود، أصابعه مشدودة عليه كأنه طوق نجاة وسط بحرٍ هائج.

نظر إلى المرآة؛ انعكاسه كان هناك، بنفس الندبة، بنفس العيون المثقلة بشيءٍ لا يُمحى. لم يحتمل النظر، فأدار وجهه، أدار المحرك، وانطلقت السيارة. تدفقت أضواء الشارع عبر زجاج السيارة، وانعكست على عينيه المتعبتين وهو يقود بلا وجهةٍ محددة. المدينة تمتد أمامه، ضوضاؤها تملأ الفراغ حوله، لكنه لم يكن يسمع شيئًا. لم يكن يرى السيارات التي تعبر بجواره، ولا إشارات المرور المتغيّرة.

أخرج علبة السجائر من جيبه بحركةٍ غير واعية. أصابعه سحبت واحدة، لامست شفتيه الجافتين، ثم أخرج الولاعة

وأشعلها. اللهب الصغير ارتجف للحظة قبل أن يلتهم طرف السيجارة، تمامًا كما كانت الذكريات تفعل به الآن. أخذ نفسًا عميقًا، ملأ رئتيه بالدخان وهو يبحث عن ثقلٍ مختلف يطغى على ما يشعر به. عيناه ظلّتا تحدّقان في الفراغ أمامه، لكنه لم يكن يرى الطريق أو السيارات المارّة، بل شيئًا آخر، شيئًا أبعد بكثير. حلقات الدخان تلاشت في هواء السيارة تمامًا كما تلاشت أيامه هناك، في البيت الذي لم يعد بيتًا، في الزمن الذي لم يعد زمنه. رائحة التبغ اختلطت برائحةٍ قديمة؛ رائحة الكتب المغلقة في مكتبة والده، رائحة العشاء المتأخر، رائحة الطفولة التي لم تكن يومًا بريئة.

ثم جاءت الأصوات. ليست أصوات المدينة من حوله، بل أصوات من الماضي. أصوات ارتطام الأبواب، همسات مكتومة خلف الجدران، خطوات حذرة في منتصف الليل، ثم ذلك الصوت، الصوت الذي لم ينسه أبدًا. أغمض عينيه لبرهة، لكن الظلام لم يكن أكثر رحمة..

***

«تلك الغرفة، وذلك المصباح الأصفر الخافت المتدلّي من السقف، يتراقص ضوؤه مع كل هبّة هواء. رائحة الورق القديم ملأت أنفه، امتزجت بصوتٍ جاف، حادّ الحواف:

- اقرأ مجددًا، بصوتٍ أوضح. العالم لا يرحم الضعفاء».

***

قلبه تسارع، أصابعه قبضت على المقود. لا حاجة ليغلق عينيه.. المشهد محفور هناك، في عمق ذاكرته، لا يبهت ولا يتلاشى..

***

«الخطوط القاسية على وجه والده، النظارة التي تعكس ضوء المصباح، الصوت الذي لا يعرف اللين. أمامه طفلٌ صغير، القلم بين أصابعه أضخم مما يجب. الحروف ثقيلة، تترنّح تحت عيني الرجل الجالس أمامه. لا مجال للخطأ، لا مجال للتلعثم. التردّد ضعف، والضعف خطيئة.

من الزاوية، نظرة قلقة، يدان مشبوكتان، وامرأة لا تجرؤ على التدخل، فقط تضع يدها على كتف الطفل عندما يرتجف، كأنها تقول له في صمت: «أنا هنا».

***

السيارة اهتزّت قليلًا، فالتقط أنفاسه بحدّة. أدرك أنه شدّ قبضته أكثر مما ينبغي، حتى تبيّضت مفاصله. نظر إلى المرآة، رأى وجهًا يعرفه جيدًا، لكنه لم يعد متأكدًا لمن ينتمي. أطلق زفرةً طويلة، ثم أخرج سيجارةً أخرى. النار التهمت طرفها، والدخان تصاعد في هواء السيارة، يحاول سدّ ثغرات لا تُسدّ. على مقعد القيادة، عيناه تراقبان الطريق، لكن ذهنه ظلّ معلّقًا هناك، في الماضي، حيث يقف والده شامخًا كتمثالٍ من حجر، لا يتزحزح، لا يلين، ولا يسمح لأحد برؤية ما خلف ملامحه الصارمة.

***

«كمال شكري.. الاسم وحده كان كافيًا ليفرض احترامه أينما ذُكر، رجلٌ لم يعرف الهزل، عاش حياته بين صفحات الكتب وأروقة المدارس، ينهل من التاريخ وكأنه أحد صُنّاعه. مدرس

تاريخ، لكنه لم يكن مجرّد معلّم يلقّن الدروس، بل كان يؤمن بأن الماضي ليس حكاية تُروى، بل درسٌ يجب أن يُعاش، وكانت عائلته.. أوّل من خضع لتلك الدروس.

في المنزل، لم يكن هناك مجال للضعف، ولا للأعذار. كل شيء كان محسوبًا، كل كلمة كان لها ثمن، وكل خطأ، ولو بسيطًا، يُعامل كجريمة لا تُغتفر. لم يكن يضرب إلا للضرورة، لم يكن يصرخ، لكنه كان يجيد فنّ التوبيخ بصوتٍ منخفض ونظرةٍ حادة، قادرة على أن تحفر في القلب أعمق من أي جرح.

تذكّر تلك الليالي الطويلة، حيث كان يجلس أمامه، كتاب التاريخ بين يديه الصغيرتين، والعرق يتصبب من جبينه وهو يحاول استرجاع التواريخ والأسماء دون خطأ. تلعثمه كان يعني إعادة الصفحة من البداية، وأُحيانًا إعادة الدرس بأكمله. لم يكن والده يقبل أنصاف المعرفة، فإمّا أن تفهم كل شيء، أو لا تفهم شيئًا على الإطلاق. لكن الصمت، الصمت كان أقسى عقوبة؛ تلك اللحظات التي كان يتوقف فيها عن الحديث، ينظر إليه نظرة طويلة، ثم يشيح بوجهه بعيدًا، وهو يقول دون كلمات: «خيبت أملي».

تلك النظرة.. لم تفارقه يومًا».

***

أشعل سيجارة مرة أخرى، وسحب منها نفسًا عميقًا، الدخان ملأ رئتيه، لكنه لم يستطع أن يملأ الفراغ الذي تركه ذلك الرجل في قلبه. أضواء الشارع امتدت على زجاج السيارة كندوب طويلة، تتلاشى وتعود كلما اندفع إلى الأمام. تداعت

عليه الذكريات القديمة بلا رحمة، تشكّلت في ذهنه صورة أخيه الأكبر (يحيى)، الجزء الوحيد من طفولته الذي لم يكن يحمل طابع الصرامة والقواعد الصلبة.

***

«(يحيى) لم يشبه والدهما في شيء، ولم يحاول. كان حرًّا كريحٍ لا تُروَّض، يعشق التمرد، ولا يخشى كسر القواعد، بينما كان (أدهم) يحاول أن يكون الابن المثالي، يجلس مستقيمًا، يجيب بإجابات دقيقة، ولا يتجاوز الخطوط الحمراء. كان يعبر تلك الخطوط وكأنها غير موجودة، كان الصبي الذي لا يخاف العقاب، يضحك في وجه الصرامة، ويواجه صمت والده بالسخرية، وكأنه يرفض أن يصبح نسخة أخرى من ذلك الرجل.

ربما لهذا السبب كان (أدهم) ينجذب إليه.. لأنه كان كل ما لم يستطع أن يكونه. في ليالي الشتاء الباردة، حين ينام الجميع، كانا يلتقيان تحت الغطاء، يهمسان في الظلام. يحكي له عن أحلامه الكبيرة، عن المدن التي سيزورها، عن الحياة التي سيعيشها بعيدًا عن هذا المنزل.

- أتعلم، يا (أدهم)؟

همس له ذات مرة، وعيناه تلمعان بالحماسة.

- ماذا؟

- حين أكبر.. سأكون شيئًا عظيمًا، شخصًا لا يمكن لأحد أن يوقفه».

ولكن في بيت كمال شكري، لم يكن هناك مساحة للتمرد،

لم يكن هناك صوت يعلو فوق صوته، ولا قرار يُتخذ دون موافقته. فالبيت يسير على خطى خطواته الثقيلة، والجدران تحفظ صدى أوامره وكأنها نُقشت عليها. هو الابن المثالي، يسير وفق القواعد، يجيب حين يُسأل، يلتزم الصمت حين يُطلب منه. أما (يحيى) فكان النقيض، لم يركع، لم يتعلم كيف ينحني تحت وطأة الأوامر، ولم يكن يقبل أن يعيش حياة مُعلّبة كجدول دراسي لا يتغير. ظل يختبر حدود الصبر، يختبر الحدود كلها، حتى تلك التي لا يمكن تجاوزها دون عواقب.

- كم مرة أخبرتك أن تعود قبل الغروب؟!

صوت كمال شكري كان منخفضًا، لكنه يحمل في طيّاته العاصفة القادمة.

لم يرد، وقف أمامه ورأسه مرفوع، عيناه تلتمعان بذلك التحدي الذي لم يفقده أبدًا، وقال:

- لقد نسيت.

لم يحتج الأب إلى أكثر من ذلك. كانت يده أسرع من أن يراها (أدهم)، وارتطم كفّه بوجه أخيه الأكبر، فدوّى الصوت في المكان. لم يرتجف (يحيى)، لم يهرب، لم يصرخ، فقط مسح الدم عن طرف شفتيه وابتسم. في كل مرة كان والده يرفع يده، كان (أدهم) يقف متخشبًا في مكانه، عاجزًا عن التدخل، عاجزًا عن منع ما يعرف أنه قادم. كان يعرف أن أي كلمة منه لن تغير شيئًا، بل ربما تجعله جزءًا من المشهد، والمشهد لم يكن يحتمل سوى (يحيى) وحده».

***

تسللت تلك الذكريات إلى ذهنه. سنوات مرّت، لكن المشهد لم يتغير في رأسه. لا يزال يرى (يحيى) شامخًا رغم الألم، متحديًا رغم الخوف. كم مرة حاول أن ينسى؟ كم مرة أقنع نفسه أن هذا كان طبيعيًا، أنه كان مجرّد «تربية» كما كانوا يسمونها؟ لكنه كان يعرف، يعرف أن هناك أشياء لا تُغتفر، حتى لو جاءت مغلّفة بغطاء الحب.

الطريق أمامه كان فارغًا، لكن ذهنه كان مزدحمًا، يتقافز بين الذكريات كحجر يرتطم بسطح الماء ثم يغرق بلا أثر. لم يكن بحاجة إلى أن يضغط على عقله لاسترجاع المشاهد، كانت هناك دائمًا، تطفو على حافة وعيه، تنتظر لحظة ضعف مثل هذه لتنقض عليه.

***

«وقف يومها أمام والده، كتفاه مشدودتان، وعيناه تحملان ذاك العناد الذي لم يستطع أحد كسره من قبل. الورقة بين أصابعه كانت مُجعّدة، آثار انفعاله عليها واضحة، لكنها لم تهتز وهو يمدّها قائلًا بثبات:

- أنا قدّمت في كلية الفنون الجميلة.

الصمت في الغرفة كان ثقيلًا، لكنه لم يدم طويلًا. كمال شكري لم ينظر حتى إلى الورقة، فقط وضع نظارته على الطاولة. صوته جاء هادئًا، لكنه حمل في طيّاته نصلًا حادًا:

- أنت ستدخل كلية الهندسة.

(أدهم) من ركن الغرفة، شعر بالهواء يبرد فجأة.

- لكنني لا أريد الهندسة، لا أحبها.

- وهل هذا اختيارك؟

نبرة والده لم ترتفع، لكنها ضغطت على صدر (أدهم) كما لو أنها صفعة غير مرئية.

- هذه حياتي، ولن أعيشها وفق هواك.

حينها فقط، رفع كمال شكري رأسه، حدّق في (يحيى). شعر أنه يراه لأول مرة، وكما لو أن ما رآه لم يُعجبه على الإطلاق. قام ببطء، خطواته ثقيلة لكنها دقيقة، اقترب حتى صار بينهما أقل من شبر، ثم همس بصوت لم يحتج إلى أن يكون عاليًا ليحمل تهديده:

- ما دمتَ تحمل اسمي.. فستفعل ما أقول».

شيءٌ ما في وجه أخيه تبدّل، لم يكن خوفًا، بل شيئًا أكثر خطورة، استسلامٌ مشوب بالاشمئزاز، كمن يدرك أن المعركة ليست عادلة منذ البداية، لكنه خاضها رغم ذلك. لم يقل شيئًا، فقط سحب الورقة من على الطاولة، طواها ببطء بين أصابعه، ثم ألقاها في جيبه. حين رفع رأسه، لم يكن هناك تحدٍّ هذه المرة، لم يكن هناك شيء على الإطلاق.

في ذلك اليوم، لم يخسر حلمه فقط، بل خسر شيئًا أعمق. و(أدهم)، كما في كل مرة، وقف متفرجًا، عاجزًا عن كسر دائرة الصمت. شيءٌ ما في أخيه قد تغير، كأن عموده الفقري تهشّم من الداخل دون أن يسقط. روحه ذبلت فجأة وذابت تحت وطأة كلمات والده. عيناه اللتان كانتا تشتعلان دائمًا بالحياة، انطفأت شعلتهما. لم تختفِ ملامحه، لكنه بدا يتلاشى بطريقة لا يراها أحد سوى (أدهم). كانت أصابعه مشدودة على الورقة في جيبه، الشيء الوحيد الذي يربطه

بحلمه، لكن قبضته تراخت ببطء، وهو يتخلى عنه دون حتى أن يدرك.

حين استدار، لم يواجه (أدهم)، لم يرمِ نظرة أخيرة حتى، فقط مضى إلى غرفته بخطواتٍ ثقيلة، يجرّ أقدامه كسجينٍ يُساق إلى زنزانته الأخيرة. لم يتحرك، فقط تابع شقيقه وهو يختفي خلف الباب. شعورٌ غريب بالبرد زحف إلى صدره، إحساس يشبه رؤية شخص يُدفن حيًا، دون أن يتمكن من الصراخ، دون أن يستطيع الحفر بيديه لإخراجه. في ذلك اليوم، لم يكن والده هو من انتصر، بل كان أخوه الأكبر هو من خسر.

مرت الأيام وهي تجرّ خلفها ظلًا ثقيلًا. شيءٌ ما في المنزل تغيّر، لكنه لم يكن واضحًا، لم يكن صاخبًا، بل كان خافتًا كهمسٍ في العتمة، لكنه حادٌ كالشظايا تحت الجلد. أخوه لم يعد كما كان، لم يعد يقف في وجه والده، لم يعد يضحك بتهكّم أو يقفز فوق الخطوط الحمراء، لم يعد يسرق الليالي ليحكي لـ(أدهم) عن الأحلام التي تنتظره هناك، بعيدًا عن جدران هذا البيت. كان حاضرًا لكنه غائب، يجلس على المائدة في صمت، يأكل ببطء، يؤدي فرضًا لا شهية له فيه. لم يعد عائدًا متأخرًا، لم يعد يتسلل من النافذة، ولم يعد يحمل ذلك الوهج في عينيه. كان أشبه بشخصٍ خرج من جسده وتركه هنا، مجرّد قشرة خاوية، تبتسم حين يجب أن تبتسم، وتهزّ رأسها حين يجب أن توافق، لكنه لم يكن هو، لم يكن (يحيى).

رأى كل هذا.. لكنه لم يعرف كيف يعيده. كان يراقبه كما

يراقب شخصًا يغرق ببطء، دون أن يجد الحبال ليرميها له. حاول التحدث، حاول المزاح، حاول إعادته إلى تلك الليالي الدافئة التي جمعتهما تحت الغطاء، لكن (يحيى) كان يتلاشى أمامه، ينسحب من الحياة كما ينسحب الضوء عند الغروب.

في بعض الليالي، حين يعبر بجوار غرفته، كان يسمع همسات، حديثًا مكتومًا. لم يكن صوتًا عاليًا، لم يكن واضحًا، لكنه كان موجودًا، كأن أخاه لم يعد يجد راحته إلا في الحديث مع الفراغ. وفي كل مرة يطرق الباب، لم يكن يجيبه سوى الصمت.

وفي زاوية هذا البيت الصارم، كانت أمه (سعاد) شاهدة، صامتة على كل شيء. قلبها يعتصر مع كل خطوة تبتعد بابنها عن الحياة، لكن صوتها ظل مكبوتًا تحت وطأة الخوف. كانت تجلس على طرف الفراش لياليَ طويلة، عيناها تراقبان باب غرفة ابنها المغلق، يداها تعبثان بملاءة السرير في قلق، وكأنها تنتظر أن يخرج، أن يعود كما كان، أن يتوقف هذا الشرخ الذي ازداد اتساعًا في قلب بيتها.

في بعض الليالي، كانت تحاول كسر الجدار بينهما، تقترب منه بطبق طعامه المفضل، تربت على كتفه بحنان الأم التي ترى ابنها يتلاشى أمامها، لكنه لم يكن ينظر إليها، لم يكن يتكلم، فقط يأخذ الطبق ويضعه جانبًا. وكل شيء فقد نكهته. لم يكن الأمر استسلامًا منها، بل عجزًا. كانت تعرف أن زوجها لا يتراجع، تعرف أن سلطته في هذا البيت مطلقة، وأن أي محاولة لمعارضته لن تؤدي إلا إلى مزيد من الألم.

فاختارت الصمت، حتى وإن كان هذا الصمت يخنقها كل ليلة، حتى وإن كانت دموعها تسقط على وسادتها بصمت، دون أن يراها أحد.

لكنها لم تكن وحدها.. (أدهم) كان يراها. كان يشعر بارتجافة يديها حين تصبّ له الشاي، كان يرى كيف أصبحت نظراتها خافتة، كيف تسرق اللحظات لتنظر إلى (يحيى) من بعيد، وكأنها تخشى أن يختفي أمام عينيها في أي لحظة.

أخوه الأكبر لم يختفِ فجأة، لكنه تلاشى ببطء. شيءٌ داخله شحب بعيدًا، شبرًا بعد شبر. في البداية، كان الأمر يبدو كحالةٍ مزاجية عابرة، مجرّد فترات صمت طويلة، نظرات شاردة، تأخر في الردود. لكنه لم يعد يشارك في الأحاديث العائلية، لم يعد يجادل والده، لم يعد يسخر. حتى ضحكته التي لطالما كانت عالية، متمردة، خفتت، كأنها اختفت معه.

في تلك الليالي التي يبتلعها السكون، صار شبحًا في المنزل. لم يعد يجلس مع العائلة، ولم تعد خطواته تُسمع بين الغرف، لكنه كان هناك، مختبئًا خلف الأبواب المغلقة، ساكنًا كأنفاسٍ محتجزة. لكن (أدهم) كان يراقب، كان يسمع الحركة الخافتة في منتصف الليل، وقع أقدام تلامس الأرض بحذر، يتبعها صوت الباب يُفتح ببطء، وكأن الهواء ذاته يخشى أن يُحدث ضجيجًا.

تسلل (يحيى) خارج المنزل كما يفعل كل ليلة. ظله يمتد تحت ضوء المصباح الوحيد في الفناء، قبل أن يبتلعه الظلام. (أدهم) كان مختبئًا خلف النافذة، حبس أنفاسه، عيناه تتبعان شقيقه وهو يعبر الفناء الخلفي بخطواتٍ مترددة لكنها

مضطرة، كمن يسير إلى مصيره ولا يملك خيارًا آخر. في تلك اللحظة، شعر بشيءٍ غريب، إحساسٍ ثقيل، كما لو أن شقيقه لا يغادر فقط إلى الخارج، بل يعبر إلى عالمٍ آخر، مكان لا ينتمي إليه أحد سواه.

وقف في مكانه، جسده متصلّب كأنه قطعة من العتمة المحيطة به، عيناه معلّقتان بالشخص الذي يبتعد في الظلام. لم يكن (يحيى) يخرج كمن يهرب، بل كمن ينتمي إلى ذلك الظلام أكثر من انتمائه لهذا البيت. ظل يتابعه حتى اختفى تمامًا. لم يبقَ منه سوى شعورٍ غريب زحف إلى صدره، إحساس بأن شقيقه لا يعود كما خرج، وكأن الليل نفسه يأخذه ويعيده بصورةٍ مختلفة، صورة يجهلها لكنه يخشاها.

وفي الصباح، لم يجرؤ على سؤاله أين كان. كان شقيقه يعود متعبًا، عيناه زائغتان وكأنه عبر مسافات أبعد مما يجب، يتناول طعامه بصمت، ثم يختفي مجددًا في غرفته.

وذات ليلة، قرر (أدهم) ألا يبقى خلف النافذة، ألا يكون مجرّد شاهدٍ صامت. حين تسلل (يحيى) من جديد، كان على بُعد خطواتٍ منه، يراقبه عن قرب، أنفاسه تتلاحق، وقلبه يطرق ضلوعه بتوجّس.

رآه يعبر الزقاق الخلفي، يلتفت حوله كأنه يتحقق من أن لا أحد يراه، ثم استدار عند زاوية الشارع، حيث كانت تنتظره سيارة سوداء لا تحمل أرقامًا. الباب الخلفي انفتح دون أن يلمسه أحد، ودخل دون تردد. أُغلق الباب فور دخوله، وانطلقت السيارة ببطء، كما لو كانت تبتلعه إلى الأبد.

ظل (أدهم) متجمّدًا في مكانه، يحدّق في الفراغ الذي

تركته السيارة خلفها. الهواء البارد تسلل إلى عظامه، لكن البرودة الحقيقية كانت تنبع من داخله، من ذلك الشعور الثقيل الذي بدأ يتضخم في صدره.

- من كانوا هؤلاء؟ إلى أين يأخذونه؟ ولماذا لم يتردد (يحيى) لحظة قبل أن يصعد؟

عاد (أدهم) إلى المنزل، لكن النوم ظل بعيدًا. شيءٌ ما في عقله ظل يكرر المشهد ببطء: الباب الخلفي يُفتح من تلقاء نفسه، الظلال التي أخفت ملامح من في الداخل، و(يحيى) الذي لم ينظر خلفه أبدًا.

الليالي أصبحت ثقيلة، والجدران تحمل صدى خطوات أخيه وهو يتسلل إلى الخارج. لم يعد قادرًا على تجاهل الأمر. كل شيء صار أكثر غموضًا، وعيناه لم تعودا تحملان ذلك التمرد المعتاد، بل شيئًا آخر، شيئًا غارقًا في العتمة.

وعندما عاد متأخرًا تلك الليلة، وجد (أدهم) في انتظاره. لم يتحرك من مكانه، لم يُشعل الضوء، فقط ظل جالسًا في الظلام، يراقب أخاه وهو يخلع حذاءه بحذر.

- إلى أين تذهب كل ليلة؟

جاء الصوت هادئًا، لكنه حمل ثقلًا لا يمكن تجاهله.

تجمد أخوه في مكانه. لم ينظر مباشرة إليه، كأن الإجابة أثقل من أن تُقال.

- أصدقائي.

قالها بصوتٍ خافت، لكنه لم يكن كافيًا ليخدع أخاه الأصغر.

- أي أصدقاء؟ أنت لم تعد تتحدث إلى أحد، بالكاد تتحدث

إليّ.

صمتٌ طويل مرّ بينهما، ثم أدار (يحيى) رأسه أخيرًا. نظرةٌ غريبة لم يرها من قبل سكنت ملامحه.

- أنت لا تفهم، ولا أريدك أن تفهم.

شيءٌ ما في تلك الجملة جعل القشعريرة تزحف على جسد (ادهم). لم يتحرك، لم يرمش حتى، ظل يحدّق في شقيقه، محاولًا اختراق تلك القشرة التي بدأت تلتف حوله، تلك العزلة التي أصبحت جدارًا بينهما.

- (يحيى)، ماذا يحدث معك؟ هل أنت في ورطة؟

ضحكة خافتة، مشوبة بشيء يشبه السخرية، أفلتت من شفتي أخيه.

- ورطة؟ لا، أنا فقط.. أمممم، أتعلم؟ أحيانًا عليك أن تبحث عن إجابات في أماكن لم تفكّر بها من قبل.

- أيّ إجابات؟ عن ماذا تبحث أصلًا؟

لم يجب، فقط مشى باتجاه سريره، ألقى بجسده عليه وكأنه استنزف كل طاقته، بينما ظل (أدهم) واقفًا يراقبه في صمت، يشعر بثقل كلمات لم تُقال، وأسرار تتسرّب من بين أصابعه كالرمال.

في الأيام التالية، بدأ يراقب (يحيى) عن كثب. لم يعد الأمر مجرّد تسلّل ليلي، بل تغيّرت تصرّفاته بالكامل. أصبح شاردًا أثناء الحديث، يحدّق في الفراغ طويلًا، كما لو أن هناك شيئًا يهمس له من العدم. وفي إحدى الليالي، بينما كان (أدهم) يستعدّ للنوم، سمع صوت حركة خافتة. تسلّل إلى خارج

غرفته بحذر، ليجده واقفًا في منتصف الصالة، عيناه مثبتتان على العتمة خلف النافذة، وكأنه يرى شيئًا لا يستطيع أحد رؤيته غيره.

- يحيى؟

همس (أدهم)، لكن شقيقه لم يتحرك. اقترب أكثر، حتى أصبح على بعد خطوة منه.

- ماذا تفعل هنا؟

التفت إليه أخوه ببطء، وعيناه محاطتان بهالات داكنة، نظرة غريبة تسكنهما، مزيج من التيه والانبهار. ثم، بصوت خافت، قال:

- إنهم ينادونني.

شعر بقشعريرة زحفت على عموده الفقري.

- من؟

ابتسم (يحيى)، ابتسامة باردة..

- أصدقائي الجدد.

تراجع (أدهم) خطوة إلى الوراء. شيء في نبرة (يحيى) جعله يشعر بأن هناك أمرًا ليس طبيعيًا، وكأن الشخص الواقف أمامه لم يعد شقيقه تمامًا. لم يرد أن يُظهر خوفه، لكنه شعر بأن الهواء في الغرفة أصبح أثقل، وكأن شيئًا غير مرئي يراقب المشهد بصمت.

- أيّ أصدقاء؟ عن ماذا تتحدث؟

قال بصوت منخفض، يحاول أن يبدو هادئًا.

لم يرد (يحيى) مباشرة، فقط أدار وجهه ببطء نحو النافذة، عيناه ما زالتا تحدّقان في الظلام خلفها، ثم، بصوت بالكاد يُسمع، قال:

- ستعرف قريبًا..

تحرّك (أدهم) للأمام، أمسك بذراع شقيقه بقوة، لكن جلده كان باردًا بشكل غير طبيعي.

- أنت تتصرّف بغرابة، من هؤلاء الأشخاص الذين تخرج لرؤيتهم كل ليلة؟

لم يحاول التملّص، لكنه التفت إليه أخيرًا، وشيءٌ في نظرته جعله يبدو.. بعيدًا.

- إنهم ليسوا أشخاصًا..

تسارعت دقات قلب (أدهم)، ضغط على فكّه ليمنع نفسه من الانفعال.

- كفّ عن الألغاز، أخبرني الحقيقة.

ابتسم (يحيى)، لكن الابتسامة لم تصل إلى عينيه.

- الحقيقة؟ الحقيقة ليست كما تعتقد.. أنت لا ترى، لكنني بدأت أرى.

شعر وكأنه يتحدّث مع شخص آخر، ليس أخاه الذي كان يعرفه. تلك اللمعة في عينيه، ذلك الجمود في صوته.. شيءٌ ما تغيّر، وانتابه إحساس مقلق بأن هذا التغيير ليس طبيعيًا. في النهاية، ترك ذراعه وأخذ خطوة إلى الوراء.

- أنت لست بخير، يا (يحيى). أخبرني، ماذا يحدث معك؟

أطلق أخوه ضحكة قصيرة، لكن صداها كان فارغًا، ثم، دون كلمة أخرى، استدار ومشى إلى غرفته، تاركًا شقيقه الأصغر واقفًا في العتمة، وقلبه يخبره أن القادم سيكون أسوأ.

وقف (أدهم) في مكانه، عيناه ما زالتا معلّقتين بباب غرفة أخيه المغلقة، لكن عقله كان في مكان آخر. إحساس ثقيل يجثم على صدره، وكأن الغرفة نفسها أصبحت أصغر. رفع يده ببطء، يحدّق في أصابعه التي لم تزل تحتفظ ببرودة ذراع (يحيى). ارتجفت يداه، لكنه لم يعرف إن كان ذلك بسبب الخوف أم بسبب شيء آخر. حاول أن يلتقط أنفاسه، لكن رئتيه لم تمتلئا كما ينبغي.

تراجعت خطواته بلا وعي حتى اصطدمت قدمه بحافة الطاولة الصغيرة بجواره، فاهتزّت فوقها مزهرية زجاجية، وكادت تسقط لولا أنه أمسك بها في اللحظة الأخيرة.

- ما الذي يحدث له؟

خرجت كلماته همسًا بالكاد سمعه، وكأنه يخشى أن يسمع أخوه صوته، أن يدرك أنه خائفٌ جدًا. التفت ناحية الباب مجددًا للحظة. خُيل إليه أن المقبض يتحرّك، لكن لا، لم يكن سوى خياله المثقل بالهواجس. لم يكن يؤمن بالخرافات، لم يكن من النوع الذي يصدق أن هناك شيئًا يختبئ في الظلال، لكن تلك الليلة، وهو واقف في الممر المعتم، شعر بشيءٍ زحف ببطء تحت جلده، إحساس غريب، كأن المكان نفسه لم يعد مألوفًا، كأن المنزل الذي نشأ فيه لم يعد منزله.

بلع ريقه بصعوبة، ثم أجبر قدميه على التحرك، لكنه لم يذهب لغرفته، بل وقف أمام باب (يحيى)، يمد يده نحو

المقبض، مترددًا للحظة، قبل أن يطرق مرتين، ولكن الصمت أجابه.

الفصل الثالث

ظل متسمّرًا للحظات، أذنه ملتصقة بالباب، يستمع لذلك النفس العميق، الرتيب بشكل غير طبيعي. لم يكن الأمر يشبه نوم (يحيى) المعتاد، لم يكن يشبه أي شيء بشري. التردد تآكل بسرعة، واندفعت يده نحو المقبض. قلبه يخبره ألّا يفعل، لكن عقله يصرخ أن هذا هو أخوه، وعليه أن يعرف ما يحدث معه. استجمع أنفاسه، ثم دفع الباب ببطء، والخشب يئنّ في صمت الممر.

الغرفة كانت مظلمة، الظلال تبتلع كل شيء، لكن عينيه اعتادتا العتمة بسرعة. نظر إلى السرير، كان (يحيى) مستلقيًا، لكنه لم يتحرك، ظل جسده مشدودًا كأنما متصلّب في وضعية غير مريحة.

- يحيى؟

لم يتحرك، فتقدّم خطوة، والهواء في الغرفة بدا أثقل. أصبح المكان كله يرفض وجوده. خطوة أخرى، وعيناه ثبتتا على شيء لم يكن هناك من قبل. على الجدار فوق سرير أخيه، كانت هناك علامات، خدوش طويلة غير متساوية، وكأن يدًا بأظافر حادة حفرتها في الخشب.

تسارعت أنفاسه، ورفع يده ليلمس كتف أخيه، لكن قبل أن يصل إليه، تحرّك (يحيى) فجأة. ليس كمن يستيقظ من نوم عميق، بل كمن انتزع من بُعد آخر. التفت إليه بسرعة غير طبيعية، وعيناه مفتوحتان بالكامل، متسعتان أكثر مما ينبغي، كأن جفونهما لا تعرف معنى الإغلاق. وبحركة مفاجئة،

دفعه للخلف بعنف، كأن قوته تضاعفت في لحظة.

لم يكن لدى (أدهم) وقت ليستوعب الصدمة، لأن أخاه لم يكتفِ بذلك، بل امتدت يده فجأة، وفي ظلمة الغرفة لمع شيء حاد في قبضته. ولم يرَ (أدهم) سوى انعكاس الضوء على المعدن، قبل أن يشعر بلسعة حارقة تخترق وجهه.

تراجع مترنحًا، يده تندفع إلى خده حيث الألم تصاعد بسرعة، وأصابعه التقطت ملمسًا لزجًا دافئًا. لم يكن بحاجة لأن يرى ليدرك أن أخاه قد جرحه.

وقف أخوه الأكبر بلا حراك، نَفَسه المتباطئ صار أشبه بهمهمة مكتومة، وعيناه ما زالتا مفتوحتين، تحدّقان فيه، لكنهما لم تكونا عينَي (يحيى)، ليس كما عرفهما. رفع (أدهم) يده عن وجهه، وبدأت الدماء تقطر على الأرض، بينما خطوتان بطيئتان فصلتاه عن الباب.

خرجت الصرخة من حنجرة (أدهم) كأنها نُزعت من أعماقه. ألمها لم يكن مجرّد جرحٍ في الجلد، بل كان كأنها طعنة في روحه، خيانة من يدٍ لم يتوقع منها إلا الأمان.

انتفض البيت كله، جدرانه ارتعدت مع الصوت المفاجئ، وكأنها تحمّلت على مدار السنين من الصمت أكثر مما ينبغي. باب غرفة كمال شكري فُتح بعنف، صريره كطعنات في الهواء الساكن، وانطلقت خطوات ثقيلة على الأرضية الخشبية، خطوات رجل لم يكن يعرف الخوف، لكن هذه الليلة كان يسير نحوه.

سعاد خرجت بعده بتوانٍ، يداها المرتعشتان تشدّان طرف شالها حول كتفيها، نظرتها كانت نصف نائمة، نصف مذعورة،

كأن عقلها يرفض تصديق أن الألم الذي يقطع الصمت الآن هو ابنها.

وقف كمال شكري عند باب غرفة ابنه. نظرته لم تكن مجرّد استفسار، كانت نظرة رجل اعتاد أن يكون المتحكّم، ولم تعجبه فكرة أن شيئًا قد حدث دون إذنه. وقع بصره على (ادهم) أولًا، الدم يتسلل ببطء من خده، يتبعثر فوق ملابسه، عيناه متسعتان بين الغضب والذهول.

أما (يحيى) فكان واقفًا عند سريره، جسده ساكن كتمثال، عيناه تحدّقان مباشرة نحو والده، لكنهما لم تحملَا أي أثر للخوف، بل كان فيهما شيء آخر، شيء لم يعهده أحد من قبل.

- ما الذي حدث؟!

صوت كمال دوّى في أرجاء البيت، خشنًا، آمرًا، كأن مجرّد نطقه للسؤال يجب أن يُعيد النظام إلى فوضى هذه اللحظة.

سعاد لم تنتظر الإجابة، اندفعت نحو (ادهم)، أصابعها تلامس جرحه بارتجاف، وعيناها تغرقان في القلق.

- بني.. ما الذي حدث لك؟!

لكن (ادهم) لم ينظر إليها، لم يستطع. عيناه ظلّتا معلّقتين على (يحيى)، على تلك الملامح التي بدت وكأنها تنتمي لشخص آخر، وكأن أخاه، أخاه الذي يعرفه، قد غادر هذه الغرفة ولم يعد.

لم يتحرّك أحد للحظات، وكأن الزمن تجمّد بين الجدران، فقط صوت الأنفاس المتوترة، بينما الدم الدافئ ينزلق ببطء

على خد (أدهم) ويتبعثر على قميصه.

كمال شدّ قامته، ظهره المنتصب كعادته زاد من هيبته، لكن شيئًا في وجهه كان مختلفًا هذه المرة. عيناه المشتعلتان لم تكونا تحملان الغضب فقط، بل ارتيابًا نادرًا. رفع يده وأشار نحو (يحيى) بإصبع حاد كحدّ السكين:

- تكلّم يا (يحيى)، ماذا فعلت؟

(يحيى) لم يتحرّك، لم يرتجف، لم يشيح بنظره حتى، كأنه لم يسمع، أو ربما لا يهتم.

- أنا لم أفعل شيئًا.

قالها بهدوء، هدوء بارد غير بشري. لكن (أدهم)، الذي لم يكن مجرّد متفرّج على هذا المشهد، لم يحتمل أكثر. رفع يده إلى جرحه، ضغط عليه بقوة، كأنه يحاول أن يثبت لنفسه أن ما حدث كان حقيقيًا، أن الألم ليس وهمًا. تقدّم خطوة، صوته خرج مشحونًا بالغضب والذهول:

- لم تفعل شيئًا؟! لقد هاجمتني، كدتَ أن تفقأ عيني، هل تريدني أن أنسى ذلك أيضًا؟!

سعاد شهقت، يدها غطّت فمها وهي تتراجع خطوة إلى الخلف، قلبها يرفض تصديق ما تسمع. نظرت إلى ابنها الأكبر، تبحث في وجهه عن أي أثر للندم، عن أي تفسير، لكنها لم تجد سوى تلك البرودة المخيفة.

كمال لم يكن بحاجة إلى سماع المزيد. تقدّم بخطواته الثقيلة، جسده كله يشع غضبًا. أمسك (يحيى) من كتفه، شدّه بعنف، لكن عيني الصبي ظلّتا معلّقتين على (أدهم)، بلا

مقاومة، بلا خوف، بلا أي شيء.

- ما الذي يجري هنا بحقّ الله؟!

سأله كمال، لكن السؤال لم يكن موجّهًا لـ(يحيى) وحده، بل كأنه سؤال أعمق، سؤال يبحث عن منطق وسط العبث الذي بدأ يتخلّل جدران هذا البيت.

لكن قبل أن يجيبه أحد، قطع (يحيى) الصمت، بصوته الرتيب، بلا أي انفعال:

- هو الذي فتح الباب.. لم يكن ينبغي له ذلك.

الجملة سقطت في الغرفة كحجر ثقيل في بحيرة راكدة. سعاد نظرت إلى ابنها وكأنها لا تعرفه. أمّا كمال شكري فقبض على معصم (أدهم) وسحبه خلفه بعنف، خطواته كانت ثقيلة كأن الأرض نفسها تتأوّه تحت ثقله. تبعته سعاد، تحاول أن تنطق بشيء، لكن الكلمات اختنقت في حلقها قبل أن تخرج.

- كمال.. انتظر، على الأقل نظّف الجرح قبل أن..

لم يلتفت إليها، لم يبطئ خطواته، لم يقل كلمة واحدة. فتح باب السيارة بقوة، دفع ابنه إلى المقعد الأمامي، ثم استدار نحو سعاد. كانت نظرة واحدة كافية لإسكات أي اعتراض.

- ابقي مع (يحيى)، سأعود بعد قليل.

ثم أغلق الباب. رفع (أدهم) يده إلى خده، شعر بحرارة الدم تختلط ببرودة جلده، لكنه لم يهتم بالألم. الألم الحقيقي كان في عقله، حيث تتزاحم الأسئلة بلا إجابة. التفت إلى والده، لكن الظلام الذي يغطي وجهه لم يسمح له برؤية ملامحه بوضوح، فقط ظلال مرسومة من الإرهاق والغضب.

تحركت السيارة بسرعة، الشوارع تمر بجانبهما كشريطٍ سينمائي باهت. ظل الصمت يسيطر للحظات طويلة، حتى قطعه كمال بصوته العميق:

-أخبرني.. من البداية، دون مبالغة أو إضافات. أريد أن أفهم ما حدث في المنزل.

لم يرد (أدهم) فورًا. زفر ببطء، كأنه يحاول أن يستعيد أنفاسه، ثم بدأ يتحدث. نبرته كانت ثابتة ظاهريًا، لكنها في أعماقه كانت مضطربة:

-كنت في الممر.. سمعت صوتًا غريبًا من غرفة (يحيى)، صوت أنفاسه.. لكنها لم تكن طبيعية، لم تكن أنفاسه المعتادة.

لم يرد كمال. عيناه ظلتا معلقتين بالطريق، لكن أصابعه انقبضت قليلًا على المقود.

- طرقت الباب.. لم يجب. وعندما فتحته، رأيت أمرًا غريبًا.. (يحيى) كان واقفًا في الظلام، لم يتحرك، لم يتحدث، لكنني شعرت كأنه كان ينتظرني أن أفتح الباب..

زمّ كمال شفتيه. لم يكن يحب الطريقة التي يتحدث بها (أدهم)، كأن كلماته تخفي وراءها شيئًا لا يريد سماعه.

- وحين دخلت، فجأة هجم علي، لم تكن حركة عشوائية، بل كأنه كان يعلم تمامًا ما يفعله.. وكأنه.. لم يكن هو.

ضغط كمال قدمه على الفرامل بقوة، فتوقفت السيارة فجأة عند إشارة حمراء. استدار نحو (أدهم) بعينين ضيقتين، كأنهما تحاولان اختراق عقله:

- ماذا تعني؟ هل تقول إن أخاك تعمد إيذاءك؟

تردد (أدهم) للحظة، لكنه لم يجد تفسيرًا آخر، فأومأ برأسه ببطء. أغمض كمال عينيه للحظة، ثم استدار إلى الأمام وأعاد تشغيل المحرك عندما تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر.

- يحيى ليس كذلك، لم أرَ منه شيئًا كهذا من قبل. ربما كان يحلم، ربما كانت نوبة هلع أو..

قاطعه (أدهم) بصوت أقوى، وعيناه تحملان يقينًا لم يره كمال فيه من قبل:

- لا، يا أبي.. (يحيى) تغيّر. منذ فترة لم يعد هو ذاته، وأنت تعلم ذلك.

عاد الصمت وهو يقود السيارة، لكنه هذه المرة لم يكن صمتًا عاديًا، بل كان مليئًا بالأفكار غير المعلنة، بالحقائق التي لم يرغب أحدهما في مواجهتها. لم يُجب كمال، لكنه شعر بشيء بارد يزحف إلى صدره. لم يكن خوفًا، بل كان شكًا.

وصلت السيارة إلى مدخل المستشفى، ولم ينتظر كمال أن يركنها بشكل صحيح. أوقفها بعنف أمام المدخل الرئيسي، ثم ترجل بسرعة، فتح الباب لـ(أدهم) وأشار له بالنزول دون أن يتفوه بكلمة.

لم يجادله (أدهم). الألم في خده كان قد بدأ يخبو. جلست الممرضة أمامه، تفحّصت الجرح بعناية قبل أن تبدأ بتنظيفه. نظراتها كانت عملية، خالية من الشفقة، وكأنها اعتادت رؤية أمورٍ أسوأ بكثير.

- ستحتاج إلى بعض الغرز، لكنه ليس عميقًا جدًا، وإن شاء الله لن يكون هناك أثر واضح بعد الشفاء.

لم يرد (أدهم)، فقط أومأ برأسه، بينما راقب والده وهو يسير جيئة وذهابًا في الغرفة، يده في جيب معطفه، وجهه متجهم. لكن (أدهم) استطاع أن يقرأ التوتر خلف ذلك القناع.

حين بدأت الممرضة بخياطة الجرح، شعر بوخز الإبرة تخترق جلده، لكنه لم يتأوه. الألم الجسدي كان أهون من كل ما يدور في رأسه. أخيرًا، بعد دقائق من الصمت، خرجا واستقلا السيارة.

التفت كمال نحوه، صوته كان منخفضًا لكنه حاد:

- أنت لم تخبرني بكل شيء، أليس كذلك؟

رفع (أدهم) عينيه ببطء، نظر إلى والده طويلًا، كأنه يزن كلماته قبل أن ينطق بها. ساد الصمت بينهما، لكنه لم يكن صمتًا فارغًا، بل كان مليئًا بالتساؤلات، بالشكوك، بالخوف المكتوم الذي بدأ يتسلل إلى عقل كمال، رغم كل محاولاته لإنكاره. ثم قال بصوت منخفض، لكنه مشحون بثقل لا يُخفى:

- أخبرني بكل شيء. لا أريد أجزاءً، لا أريد استنتاجات. أخبرني بما رأيته فقط.

نظر (أدهم) إلى الجرح المغلق على خده، كأنه يقيّم كل ما مرّ به خلال الساعات الماضية. ثم، بتردد، بدأ بالكلام:

- كنت في غرفتي.. لم أستطع النوم، لا أعرف لماذا، لكن شعورًا غريبًا كان يلازمني.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع:

- سمعت صوتًا، خطوات خفيفة، فتحت الباب ببطء،

ورأيته..

- رأيت من؟

- (يحيى).

انعقد حاجبا كمال.

- وماذا كان يفعل؟

- كان خارجًا من غرفته، يتسلل في الظلام، لم يكن يشعل الأنوار، وكأنه لا يريد أن يراه أحد.

تغيرت ملامح كمال قليلًا، لكن صوته ظل ثابتًا:

- إلى أين ذهب؟

- خرج من البيت، عبر الباب الخلفي.

ساد الصمت للحظات، قبل أن يقول كمال:

- هل تبعته؟

- لا، كنت مصدومًا، لم أفهم ما كان يفعله. انتظرت لبعض الوقت، وعندما عاد، كان مختلفًا..

شبك كمال يديه معًا، ثم قال ببطء:

- كيف مختلفًا؟

ازدرد ريق (أدهم)، ثم قال بصوت خافت، كأن مجرّد النطق بالكلمات يجعله غير مرتاح:

- عندما عاد.. لم يكن يبدو كأنه (يحيى).

نظر كمال إليه مباشرة، عيناه محملتان بتساؤلات لا نهائية، لكنه لم يقاطعه.

- وجهه كان شاحبًا أكثر من المعتاد، وعيناه.. كان فيهما شيء مظلم، شيء لم أره من قبل. وقال إنه يرى أشياء لا أستطيع رؤيتها، وأن له أصدقاء جددًا.

لم يكن كمال رجلًا يؤمن بالخرافات، لكنه كان يؤمن بالمنطق. ومع ذلك، لم يكن هناك أي منطق في هذا.

- لماذا لم تخبرني من قبل؟

سأل أخيرًا، صوته بارد، لكنه لم يحمل الغضب الذي توقعه (ادهم).

- لأنني أعلم ماذا ستفعل به.. ثم حدث ما حدث عندما دخلت غرفته، وعندما هاجمني، وعندما قال تلك الجملة.

مرّر كمال يده على وجهه، كأنه يحاول طرد الأفكار التي بدأت تتجمع في رأسه. ثم وقف، حدّق في ابنه للحظات قبل أن يقول بحزم:

- سنعود الآن.

- إلى المنزل؟

- نعم.

قالها كمال وكأنه قد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه. نبرته لم تكن قابلة للنقاش.

رغم الألم الذي يشعر به (ادهم)، كان بداخله شعور بشيء أثقل من جرح في خده.. شعور بأن ما ينتظرهم في الشقة لن يكون أبدًا كما تركوه. الطريق إلى المنزل كان صامتًا. كمال يقود السيارة بعينين ثابتتين على الطريق، كأنه يهرب من التفكير، أما (ادهم) فجلس في المقعد المجاور، يضغط

المنديل على خده المخيط، لكن عقله كان في مكان آخر.

- لم يكن ينبغي له أن يفتح الباب.

ظلّت الجملة تدوي في رأسه كطبول جنائزية. لم تكن فقط جملة غريبة، بل كانت إعلانًا. وكأن ما حدث تلك الليلة لم يكن انفعالًا عابرًا من أخيه، بل خطوة أولى نحو شيء أكبر وأخطر.

عندما وصلا، كانت الشقة غارقة في ظلمة ثقيلة. حتى النور الشاحب القادم من نافذة المطبخ لم يكن كافيًا لطرد الإحساس بالبرودة. فتح كمال الباب، وخطا إلى الداخل ببطء، كأن شيئًا فيه كان يتحسس الظلال قبل أن يدخل.

سعاد كانت جالسة على الكنبة، لم تتحرك منذ غادرا، وعيناها متعلقتان بباب غرفة (يحيى) المغلق.

- ما الذي.. ؟

بدأت تسأل، لكن كمال رفع يده، وكأنه يطلب الصمت، ثم التفت إلى (أدهم) وقال:

- ادخل غرفتك. الآن.

لم يحتج، مشى نحو غرفته بخطواتٍ مترددة، يُلقي نظراتٍ خاطفة نحو باب غرفة (يحيى)، الباب نفسه يحمل لعنةً أو سرًا ينتظر اللحظة المناسبة ليفتح نفسه.

كمال نظر إلى سعاد بحدّة وقال:

- هناك شيء غير طبيعي يحدث مع (يحيى).. وأنا لا أعني تمرد مراهق.

سعاد همست، بعينين تغرقان في القلق:

- كنت أشعر بذلك.. منذ أسابيع، لكنني أقنعت نفسي أنني أتوهم.

كمال لم يرد، فقط ظلّ يحدّق في الظلام، كأنه ينتظر أن يتكلم الظل نفسه.

ثم وقفت سعاد فجأة، كأنها شعرت بشيء في الهواء، ثم قالت:

- يحيى، أين يحيى الآن؟

كمال وقف على الفور، نظر نحو الباب المغلق لغرفة (يحيى)، وقال بنبرة حازمة:

- لا أريد أن أسمع المزيد من هذا الآن. يجب أن نتعامل مع الوضع بهدوء، لن أسمح له بأن يواصل هذا التصرف.

لكنه لم يكن واثقًا من نفسه كعادته. كمال كان يعلم أنه مهما حاول فرض سلطته، كان هناك شيء آخر أقوى من كل شيء، شيئًا يلاحق (يحيى). شعر كمال بثقل خطواته وهو يقترب من غرفة (يحيى)، قلبه ينبض بسرعة، وكل خطوة تأخذه إلى هناك تُحمّله مزيدًا من القلق. كان يشعر بشيء غريب في الجو، شيء غير مرئي لكن له حضور ثقيل. عيناه تتنقلان بين الزوايا في الممر الضيق، بينما يده تمتد إلى المقبض. شعور لا يُحتمل يُسيطر عليه، كانت أصابعه ترتجف قليلًا قبل أن يضغط على الباب، رغم محاولته إخفاء ذلك.

في تلك اللحظة، شعر بشيء غامض يتسلل إلى داخله. لم يكن صوت (يحيى)، ولا حتى هدوء الليل، هو ما جعله يشعر

بهذه الارتجافة. كانت الغرفة نفسها تبدو وكأنها تحمل شيئًا قديمًا، سرًا مدفونًا في الظلال التي تكاثفت حولها. كان يشعر وكأن الباب نفسه ينتظر أن يُفتح، كما لو كان يخبئ شيئًا لا يريد كمال أن يراه. وقف لحظة أمام الباب. الزمن توقف. شعر بشيء خفي يتحرك خلف الباب، غير مرئي لكنه موجود. لم يعد يستطيع أن يُقنع نفسه أن كل شيء سيكون على ما يرام. كانت تلك اللحظة، شعورًا غامضًا في الهواء، كأن باب غرفة (يحيى) هو العائق الأخير بينه وبين الحقيقة، الحقيقة التي ربما لن يكون مستعدًا لمواجهتها.

***

استفاق (أدهم) من غفلته لحظة وهو يقود سيارته في الظلام الدامس. عيناه تجوبان الطريق الملتوي أمامه، بينما أصداء الذاكرة تتسلل إلى ذهنه كخيوط دخان رقيقة. الهواء البارد يلامس وجهه من خلال نافذة السيارة المفتوحة، لكنه لم يشعر بالبرودة في جسده بقدر ما شعر بارتفاع نبضات قلبه بشكل غير طبيعي. دقات قلبه تتسابق مع أفكاره المضطربة.

كل تفصيل في الطريق بدا كمرآة لذكرياته القديمة، مشاهد قديمة تتداخل فيها الوجوه والأصوات والأوقات. لم تكن الذكرى واضحة، لكنها كانت تتناثر حوله كضباب كثيف يكتسح عقله. مشهد تلك اللحظة في المطعم مع (ليلى)، حينما شعر بشيء غريب في عينيها، شيء لا يمكن تفسيره، كيف تغيرت ملامحها فجأة، وكيف ترددت على شفتيها كلمة «الندبة»، ثم تركها هناك بلا إجابة.

تسارعت نبضاته فجأة، كما لو أن عقله بدأ يربط خيوطًا

ماضية بأحداث متشابكة، شيء غير مكتمل، شيء غامض يرفض المغادرة. ثم زحف شعور بارد إلى جسده، شعور بالضياع يتسرب في عروقه. كلما تذكر (يحيى)، أخاه المفقود الذي اختفى في ظروف غامضة، شعر بفراغ عميق في قلبه، فراغ لا يمكن لأي شيء أن يملأه.

فجأة، أوقف سيارته دون تخطيط مسبق، ونزل بها إلى جانب الطريق في لحظة من اللاوعي. كانت الراحة مفقودة، شعور بالاضطراب يلتهمه، شعور أن ما يحاول إخفاءه في أعماقه انفجر فجأة، فأصبح غير قادر على إيقاف الأفكار التي تجتاحه. كانت ذكرياته عن (يحيى)، عن طفولتهما معًا، تلاحقه وتغلف عقله بكثافة، أطياف ضبابية تقوده إلى أسئلة مروعة لا تملك أجوبة.

لماذا لا يزال هذا السر يطارده؟ لماذا لا يستطيع التخلص من تلك الذكريات الثقيلة التي تظل تلاحقه حتى في أكثر لحظاته وحدة؟

نظر إلى الظلام الذي يحيط به من كل جانب. شعور بالتيه يزداد كلما ساد الهدوء. كانت الراحة بعيدة عنه، وجسده مشدودًا. شعر أن المجهول يقترب منه، يضغط عليه في كل لحظة، وفي هذه اللحظة، لم يكن قادرًا على الهروب من نفسه.

الفصل الرابع

ركب سيارته مرةً أخرى، وتسللت يده إلى المقود بشكلٍ آلي، بينما عقله ما زال محاصرًا بتلك الذكريات المتشابكة التي تخترق كل حواجز الزمن. الطريق أمامه ضبابي بعض الشيء، لا يظهر سوى الخطوط التي تمثل طريقًا ضيقًا يقوده إلى مكانٍ يعرفه جيدًا، لكنه لا يستطيع التنبؤ بما ينتظره هناك. الأماكن التي مرّ بها عادت له في أشكالٍ غريبة؛ تلك الحارة التي مرّ فيها مئات المرات، لكنها الآن تبدو غريبة، تدور حوله وتراقبه في صمت.

مع مرور الوقت، بدأ المكان الذي يقترب منه يزداد وضوحًا في ذهنه. الشوارع التي اعتاد أن يراها، وأصواتها المألوفة، كانت مشوّهة في ذاكرته. وحين وصل إلى الزاوية التي عرفها جيدًا، بدأ يلمح الجدران القديمة للمنزل. أصوات الرياح تتسلل إلى أذنه، تحاول أن تهمس له بما كان مخفيًا، بأشياء لم يتمكن من مواجهتها يومًا.

أوقف السيارة أمام المنزل، وظل لحظةً صامتة وهو ينظر إلى ذلك المكان الذي كبر فيه. لم يكن المنزل مهدّمًا، لكنه كان قديمًا جدًا، وعوامل الزمن قد تركت بصمتها عليه. نوافذه كانت مطفأة، ولكن هناك شيء في ظلّ ذلك المنزل جعله يشعر بشيء لا يستطيع تحديده؛ ربما هي الذكريات، أو ربما هي الأحاسيس التي تتراكم داخل روحه.

نزل من السيارة بخطواتٍ ثقيلة، ووقف للحظة في المكان الذي شهد بداياته ونهاياته. خطواته كانت بطيئة، شعر بثقل الزمن على قدميه. صعد على السلم، ووقف أمام باب شقته،

أخرج من معطفه مفتاحًا قديمًا، غرسه في الباب، ثم دفع الباب الخشبي بصعوبة، وكأن السنين التي مرّت عليه قد أغلقت هذا الباب بأقفالٍ لا يستطيع تخطيها بسهولة. صريره كان عميقًا في الصمت، يذكّره بكل شيء قديم، بكل لحظة مضت.

دخل ببطء، ونظراته تتنقل بين أرجاء المكان الذي طالما كان مألوفًا له، لكن الآن كل شيء يبدو غريبًا، والزمن قد عبث بكل شيء هنا. الهواء كان خانقًا، مليئًا برائحة الغبار الذي تراكم على الجدران والأثاث المتروك. النوافذ المغلقة كانت تمنع الضوء من دخول المكان، والظلال التي تسكن الزوايا جعلت كل شيء يبدو مسكونًا بذكريات لا تُمحى.

تنفّس بعمق، وكل خطوة تخطوها قدماه داخل هذا المنزل كانت تفتح جرحًا قديمًا في قلبه، جرحًا لا يزال ينزف رغم مرور كل هذه السنوات. قفزت عيناه إلى الزوايا المظلمة، حيث كانت هناك خيوط رقيقة من الضوء تتسلل عبر فتحات الجدران، تبرز الأثاث المهدّم، وكل قطعة كانت تروي قصةً قديمة. المكان نفسه، رغم أنه لم يتغير كثيرًا، كان يعكس نوعًا من الندم الخفي.

كانت الجدران شامخة، لكنها مليئة بالشقوق. زجاج النوافذ المنكسر يعكس له صورةً مشوّهة. الأشياء التي كانت تقف بانتظام في هذا المنزل قد تبعثرت، كما تبعثرت حياته بين الماضي والحاضر. ظل واقفًا في منتصف الصالة، عيناه تتنقلان بين الأثاث القديم وبين الجدران، وعقله يلتقط كل تفصيل، كل زاوية، يبحث عن شيء مفقود، شيء قد يفسر ما

حدث، ولكن لا شيء هنا يمكنه أن يزيل الغموض أو يخفف من الشعور بالضياع الذي بدأ يزحف إلى قلبه.

البيت كان يحمل عبق ذكريات الطفولة. مدّ يده نحو مفتاح النور في مدخل البيت، ضغط عليه مرة، مرتين.. لا شيء. الظلام ظل كثيفًا كما هو، لا يتزحزح. زفر بضيق، وأخرج هاتفه من جيب معطفه، إصبعه ينزلق في حركةٍ آلية ليفتح الكشاف. شعاع الضوء الأبيض انطلق في الصالة المهجورة، كخنجرٍ حاد يشق صدر العتمة.

تقدّم بخطّى متأنية، يتلمس تفاصيل الحوائط المليئة بشقوق الزمن. أوقفه شيء ما في منتصف الصالة. عيناه ثبتتا على صورةٍ قديمة معلقة على الجدار، مغلّفة بغبارٍ كثيف، لكنه لم ينجح في حجب الملامح. أربعة وجوه: أب، أم، طفلان. العائلة التي كانت هنا.

اقترب أكثر، أصابعه امتدت ببطء لتزيل الغبار عن الزجاج. انعكس ضوء الكشاف على الصورة، فبدت الوجوه تطل عليه من زمنٍ بعيد، محنّطة بين الزجاج والخشب. والده بعينين صارمتين لا تعرفان الرحمة، والدته بابتسامتها التي كانت تخفي قلقًا لا يشيعه أحد، (يحيى) بعينين فيهما شيء من التمرد، ونفسه.. طفلٌ نحيل، يحدق في العدسة كمن لا يعرف إنه كان جزءًا من المشهد.

مدّ يده الأخرى إلى جيب معطفه، أخرج علبة السجائر، نقر على الفلتر، ثم أشعلها. أوّل نفس دخان خرج كثيفًا من صدره، وكأن صدره ذاته أطلق تنهيدةً اختنقت منذ سنين. ظل واقفًا هناك، السيجارة مشتعلة بين أصابعه، والدخان يلتف حوله

كضبابٍ داخلي خرج للعلن. كل شيء في البيت بدا مألوفًا، لكنه مسكون، ليس بالأشباح، بل بالذكريات، تلك التي تنخر في القلب بلا صوت.

عيناه ظلّتا معلّقتين على وجه والده في الصورة. ذاك التعبير الصارم المنحوت على ملامحه لم يتغيّر حتى في الذاكرة، وكأن الزمن نفسه لم يجرؤ على الاقتراب من صلابته. وأثناء سحب نفسٍ جديد من السيجارة، اجتاحت رأس (أدهم) موجةُ ماضٍ لا يرحم، بدأت تتسلل إلى عقله كقطرة حبرٍ تسوّد صفحةً بيضاء.. وشيئًا فشيئًا، انسحب من الحاضر، وغاص في ماضيه.

***

في غرفة (يحيى).. لكن آنذاك، لم تكن صامتة كما الآن، بل ترتجّ بصوت آيات تتردد بغلظة من فم شيخٍ كثّ اللحية. صوته يخترق الجدران كالسياط، يتعالى ثم يهبط، معركة بين عالمين. الغرفة مشبعة برائحة بخورٍ نفّاذ، دخانه يلفّ المكان كستارٍ خادع يحجب شيئًا أكثر قبحًا.

(يحيى).. مربوط في السرير. لا، ليس مجرّد ربط. أطرافه كانت مشدودة بحبالٍ غليظة، معقودة بإحكام على قوائم السرير الحديدي، كمن يُهيأ للذبح لا للعلاج. عيناه متسعتان، فيهما رعبٌ بدائي، وكأنه رأى شيئًا لا ينبغي لبشرٍ أن يراه، وجسده النحيل يتلوّى في مكانه كما لو أن شيئًا داخله يحاول الخروج، أو ربما الدخول.

كمال شكري وقف جوار الشيخ، ساكنًا كالصخر. عيناه جامدتان، لا تحملان شفقة ولا خوفًا، فقط نظرة رجلٍ اعتاد

السيطرة، ويرفض أن يُهزم حتى لو على يد ما لا يُرى. قبضته مشدودة خلف ظهره، وصوته يخرج هامسًا يناجي نفسه:

- هذا ليس ولدي.

الشيخ يصرخ:

- ثبتوا جسده! الجني يقاوم!

والأم منكفئة في الزاوية، كومة من البكاء والدعاء، وشعرها المنفلت يخفي عينيها عن المشهد، تخشى أن ترى ما لم يُقل. أمّا (أدهم) الطفل آنذاك، فوقف عند الباب نصف المفتوح، جسده الصغير متصلّب، لا يعرف هل يخاف على (يحيى) أم منه. كانت هذه لحظة من اللحظات الكثيرة التي بدأت تشق الفجوة بينهما، اللحظة التي توقّف فيها أخوه عن كونه مجرّد أخ، وتحول إلى شيءٍ آخر، شيء يبعث الرهبة كلما اقترب الليل.

***

انسحب المشهد من عقل (أدهم) كما انسحب الدخان من سيجارته. عاد للواقع، لكن صدره مثقل، وعيناه مسمّرتان على الصورة. لم تعد مجرّد ذكرى، بل بوابة. الصورة ما زالت أمامه، لكن عيناه بدأتا تتجاوزانها، تبحثان في الجدران، في السقف، في هواء المكان، عن شيء لم يكن مرئيًا، عن بقايا روحٍ لم تُدفن بعد.

تحرّك ببطء، ضوء كشاف الهاتف يتهادى أمامه، يرسم ظلالًا مرتعشة على الجدران المتشققة. كل زاوية تهمس بسر، وكل شقّ يئنّ من الماضي. السكون في المكان لم يكن سكونًا

مطمئنًا، بل أقرب إلى فخّ، فخّ ينتظر أن يُغلق فمه على قلبه.

اقترب من باب غرفة (يحيى)، لا يزال كما هو، رغم أن الزمن نال من خشبه. مدّ يده على مقبض الباب المعدني، ثم تردّد. لحظة واحدة فقط كانت كافية لتتهادى إلى رأسه أصواتٌ قديمة:

صرخات (يحيى)..

همسات الشيخ..

أنين أمه.

ووقع قلبه كحجرٍ أسقِط فجأة في بئر. لامس المقبض، فأصدر صريرًا ضعيفًا، كما لو أن الباب يتألم من العودة إلى الحياة. دفعه ببطء، والغرفة بدأت تكشف عن نفسها. كل شيء فيها ثابت، الزمن اختار أن يتجمّد هنا تحديدًا.

السرير القديم، النافذة المغلقة، الستائر المتهالكة التي ما زالت تتدلّى كأشباحٍ مرهقة. رائحة غبارٍ مختلطة ببقايا بخور، لا تزال تحتفظ بأنفاس آخر طقسٍ جرى هنا. لم يتقدّم، ظل واقفًا عند العتبة، ثم تقدّم ودفع الباب بخفة، فأكمل الباب صريره، كما لو أن الغرفة تنبّهت لعودته.

الضوء الضعيف المنبعث من كشاف الهاتف ارتجف بين أصابعه. شعر أن حتى النور نفسه متردد من دخول المكان. الهواء داخل الغرفة كان أثقل؛ لم يكن مجرّد هواءٍ قديم، بل هواء محمّل بأنفاسٍ لم تُطلق، بخوفٍ ظل حبيس الجدران سنين طويلة. الغبار يرقص في شعاع الضوء ككائناتٍ صغيرة هاربة من العدم.

خطا خطوة، ثم أخرى، ثم توقّف. تجمّدت عيناه على الجدار المقابل. كلمات.. لا، ليست كلمات، بل خربشات محفورة بأظافر أو بأداةٍ حادة. بعضها غائر، وبعضها يلتف حول الآخر، كما لو أن الكاتب لم يكن يكتب، بل يتقيأ شيئًا كان يحترق بداخله.

«هم هنا.. »

«الظلال تتكلم وأنا أسمع.. »

«أغلقوا المرآة.. أغلقوها!»

«هو ليس منكم»

كل سطر محفور بعمق الألم، والجنون، والانهيار. ورسومات وجوهٍ مشوّهة بلا ملامح، عيونٌ واسعة تنظر في كل اتجاه، دوائر متداخلة، ورموز أشبه بطلاسم، مفتاح لبوابة لا يجب أن تُفتح.

اقترب ومرّر أصابعه على أحد الجدران، فشعر بخشونة الحفر. شعر أن (يحيى) لم يكن يكتب، بل كان يقاتل الجدار. شيء ما في قلبه ارتجف، مزيج من الغضب والشفقة والخوف. الغرفة لا تشبه سجنًا.. بل مزارًا. أخوه لم يُحبس فيها، بل استدعي شيءٌ ما إليها.

نظر حوله. السرير ما زال في مكانه، لكنه مكسوّ بطبقة غبارٍ كثيفة، وسادة مقلوبة، وبطانية مطويّة بعشوائية. وفجأة، مرّت بجواره نسمة باردة، ليست من نافذة، ولا من شقّ، بل من العدم، شعور أن أحدهم يمرّ بجواره دون أن يُرى.

ظل واقفًا في منتصف الغرفة، ضوء كشاف الهاتف يهتزّ

بخفة مع أنفاسه، يراقب الجدران المشوّهة بالكلمات الغامضة والرموز البشعة، بدت كأنها تنبض، كأن الحبر لم يجفّ، وكأن أحدهم ما زال يكتب في الخفاء. لكن ما علّق روحه لم يكن الكتابة.

بل تلك الرائحة.. رائحة قديمة، مزيج غامض من عفونة وبخور، وذكريات لا يُفترض بها أن تعود. شيء في الجو جعله يحدّق إلى الأرض، إلى تلك البقعة الداكنة عند طرف السرير، ثم يرفع بصره إلى الباب المفتوح قليلًا، الباب الذي كان يومًا مغلقًا، والمكان خلفه مسرحًا للجنون. حينها فقط انسحب من الحاضر، لا بكامل إرادته، بل الغرفة لفظت أنفاسها وأعادته إلى حيث بدأ كل شيء.

***

كان صغيرًا، ورغم صغره، فهم أن ما يحدث ليس طبيعيًا، ولا يشبه كوابيسه المعتادة. الصوت، ذلك الصوت الخارج من غرفة (يحيى)، لم يكن صوت أخيه. كان شيئًا غريبًا، مزيجًا من الصراخ والزمجرة، صوتًا يتلوّى كأفعى جريحة، يعلو فجأة ثم ينخفض. من يصرخ في الغرفة يُنتزع من داخله شيء.

في الصالة، كان (كمال شكري) جالسًا كما في كل ذكرى، ثابتًا، لا يتحرك. رآه من خلف الباب، يداه متشابكتان أمامه، رأسه منحنٍ قليلًا، لكن عينيه.. عينيه كانتا كجمرتين مطفأتين، لا دمعة، لا غضب، فقط قسوة ناشفة، كما لو أن ما يسمعه لا يخصه.

صوت الأم قطع الصمت المسموم، وهي تدور حوله كروح

حائرة، ترتجف من الداخل، وتلهث من فرط القهر. قالت بصوتٍ متهدّج، غارقٍ في الحزن:

- ألن تتحرك؟! ألن تفعل شيئًا؟! صوته يمزق قلبي، وأنت جالسٌ كأن الأمر لا يعنيك! ذلك الشيخ لم يُجدِ نفعًا، ولم يزده إلا عذابًا.. إنه ابنك.. ابنك، وليس عدوًّا!

لم يرد. أدار وجهه نحو الظل، وقال ببرودٍ لا يعرف الرحمة:

- ابني لا يصرخ بهذه الطريقة. الذي هناك.. ليس (يحيى).

لم يكن الصراخ وحده هو ما يُرعب (أدهم) في تلك الليلة. كان هناك شيء آخر، شيء تسلّل من خلف الأبواب المغلقة، شيء تسرّب إلى الجدران. البيت كله صار يتنفس رعبًا. الصوت تغيّر، لم يعد صراخًا بشريًا، بل تحوّل إلى نبرةٍ غليظة، متقطّعة، صوت خارج من حفرة لا قاع لها. كلمات مبعثرة راحت تتكوّن بين الزفرات، مشحونة بكراهية لا تشبه البشر.

ثم جاء الهمس، لكنه لم يكن ضعيفًا. كان يزمجر كوحش. ومع ذلك خافت الأم أن تسمعه. ورجف قلب (أدهم) وهو يقف خلف الحائط، وجسده الصغير ينتفض كما لو أن البرد سكن عظمه.

- سأقتلك يا كمال..

قالها (يحيى).. أو من يسكن جسده، بصوتٍ مكسورٍ وقويّ في آنٍ واحد، لا يُشبه صوته، بل صوتًا أعمق. شعر أخوه الصغير أن هناك ألف حنجرة تصرخ من خلاله.

الغرفة اضطربت. المصباح المعلّق بالسقف راح يومض

بجنون المحتضر، والنور يتأرجح ما بين ضوء أصفر باهت وظلام مطبق، حتى صار ظل كمال على الحائط يرقص كشيطان يرتّل طلاسمه الأخيرة. الهواء ثقل، لم يعد يُستنشق، بل يُبتلع بصعوبة، وشيء خفي يسحب الأوكسجين من المكان.

كمال شكري وقف، لكنه لم يتحرك إلى الأمام. ظل ساكنًا، كتلة من الغضب الصامت. عيناه المتجمّدتان اتجهتا نحو باب غرفة (يحيى). لم يرتجف، لم يتراجع، لكن أصابعه كانت تضغط على يديه خلف ظهره، تحاول أن تخنق رعشة كادت تظهر.

- لن تهزمني.. لا أنت، ولا من يسكنك.

قالها كمال بصوتٍ خفيض، مشبَعٍ بتحدٍّ غريب، كمن يفاوض الموت ولا يخشاه. أجابه صوت غليظ، ممزوج بحشرجة كائنٍ يختنق بالكراهية:

- أنا لست ابنك.. أنا ما زرعته بيديك.. وسأقطفك.. كما يُقطف العفن من أصل الجذور!

تشقّق الضوء فجأة. انطفأ، ثم عاد، ثم انطفأ ثانية. كل شيء في الغرفة ارتجف. الجدران ضاقت، والهواء تثاقل. رائحة كريهة، مزيج من عفن ورماد، ملأت المكان. كأس زجاجي على الطاولة تحرّك من تلقاء نفسه، ارتجّ لحظة، ثم انقلب بقوة وتحطم. تناثر الزجاج على الأرض، وهو يعلن بدء الطقس.

كمال لم يتحرك، لكن الصوت امتصّ من روحه شيئًا لا يُعوّض. وفي الداخل، خلف الباب المغلق، صوت (يحيى) لم

يعد صوتًا، بل وعدًا، تهديدًا جاء من ليلٍ لا فجر بعده:

- سأخرج.. وحين أفعل.. لن تبقَ لهذا البيت أبوابٌ تُغلق.. ولا جدرانٌ تحميك.

ثم خيّم السكون.

لكن قلب الطفل لم يهدأ منذ تلك الليلة. وفي تلك الليلة، لم تكن السماء تمطر، لكنها كانت تنظر بصمتٍ حزين إلى البيت، كأنها تعلم ما سيحدث وتنتظر. كان الليل قد تمدّد كوحشٍ زاحف على جدران البيت، يغلفه ببرودة لم يعرفها من قبل. الهواء ساكن أكثر مما ينبغي، لا نسمة، لا حركة، فقط سكون داخل البيت.

لم يكن أحد ينام. (سعاد) جالسة في ركن الصالة، مسبحتها بين أناملها، شفتاها تتحركان بلا صوت، دعاء مكسور متواصل، لا تعلم إن كانت تناجي الله أم تحاول أن تحجب شيئًا آخر. (كمال شكري) الأب، واقف أمام النافذة، عيناه ترقبان الظلمة، كأنها ستحمل له إجابة لم يفهمها بعد. سيجارته تحترق حتى النهاية دون أن يدخّنها، الرماد يتساقط على الأرض.

و(أدهم) كان في سريره، لكن النوم رفض زيارته. عيناه مثبتتان على سقف الغرفة، وأذنه مشدودة لكل صوت ينبعث من الجناح الآخر من المنزل، من غرفة (يحيى).

وفجأة.. بدأ الأمر.

صرخة. ليست صرخة عادية. لا تشبه صوت بشر. كانت كالعواء، كنداء صادر من جوف كهف مظلم يسكنه شيء لا

اسم له. صوت شقّ سكون البيت كسكينٍ بارد. جعل سعاد تسقط مسبحتها، وكمال ينكمش حاجباه، و(أدهم) ينهض جالسًا في فراشه، يده على قلبه.

تبع الصرخة صوت ارتطام.. شيء ثقيل تحطم، ثم خربشة على الجدار، ثم صمت خانق. اندفع كمال نحو الغرفة كصوت رعدٍ خافت، ووراءه سعاد تبكي، تكرر:

- لا، لا تفتحه.. لا الليلة.

لكن الباب كان قد فُتح.

الغرفة فارغة. لا أثر لـ(يحيى). النافذة مغلقة. الأثاث في مكانه. الحبال ما زالت مربوطة في السرير الحديدي. لكن (يحيى).. الفتى النحيل، الغريب، المختلط بالصراخ والجنون.. اختفى.

لا دم. لا صرخة وداع. لا أثر.

فقط، على الحائط، فوق وسادته مباشرة، سطر واحد كُتب بلونٍ غير واضح، كُتب وكأن يدًا مرتجفة قد خطّته بألم:

«هو ليس منكم».

انهارت الأم على الأرض. جسدها المتهالك يرتجف تحت وطأة الذهول. الأرض نفسها لم تعد تطيق ما تحمله من وجع.

أما كمال شكري، ذاك الجبل الذي ما انحنى يومًا، فقد تراجع خطوتين إلى الوراء. لا عن خوف، بل لأن الكلمات التي قرأها للتو لكمته في قلبه مباشرة. لم يكن مشهدًا دراميًا بصخب، بل مأساة خافتة، تُروى بالعيون المنكسرة والصمت المبلل بالحسرة.

كمال، الذي طالما واجه الصراخ بالسكوت، والدموع بالحزم، شعر فجأة بشيء يتداعى في داخله، شيء لم يعرف له اسمًا. هل هو الذنب؟ أم الفشل؟ أم مجرد.. انكسار؟

عيناه اتسعتا. لم تدمعا، بل تجمّد فيهما بريق مشوّش، يحاول أن يرى ما لا يُرى. يسأل نفسه: هل أخطأت؟

راح يتلفّت حوله، كمن ضلّ الطريق في بيته، يبحث عن ركن يختبئ فيه من نظرة الاتهام التي خرجت من حنجرة من كان يومًا جزءًا من ضلعه. ثم ارتعشت أصابعه. نعم، تلك اليد التي طالما رفعها صارمة فوق رؤوس الجميع، ارتجفت، كما لو أن شبح الماضي أمسك بها أخيرًا.

و(أدهم)، من خلف الباب، كان يرى كل شيء. رأى صلابة أبيه وهي تتحلل ببطء، كما تتحلل الأسطورة حين تصطدم بالواقع. رأى ذلك الوجه العابس وهو يتحوّل إلى قناعٍ مرعوب.

في تلك اللحظة، لم يكن في الغرفة جنّ، بل كان هناك رجل، يُحاسب نفسه للمرة الأولى، ويكتشف، في هول الصمت، أن الخوف الحقيقي لم يكن مما في (يحيى)، بل مما فعله هو في (يحيى).

سقط الصمت فجأة كستارةٍ ثقيلة أُسدلَت على مسرحٍ من الألم. لا تصفيق، لا نهاية، فقط وجوه مجروحة بلا حيلة.

الأم ما زالت على الأرض، جبهتها تلامس البلاط البارد، وجسدها ينتفض كأنها تحاول إيقاظ حلمٍ مرعب بالدموع. لم تصدر منها صرخة، فقط همهمات مكسورة، دعوات غير مكتملة، وارتجاف أمّ تشققت تحت فقد لا يُحتمل.

وفي قلب هذه الكتلة من السكون، كان (أدهم) واقفًا هناك، على أعتاب الطفولة والهاوية. طفل صغير بجسد راجف، لكن روحه تشيخ فجأة. لم يفهم كل شيء، لكن قلبه فهم. شعر أن شيئًا قد كُسر، شيء كبير، شيء لا يُرمم.

رأى والده، ذاك الجبل، يتحول إلى ظلّ رجل يُجلد من الداخل. ورأى والدته، الحصن الدافئ، تنهار كورقة مبتلّة في مهبّ العجز.

وفي صدره كان شيء ينمو.. ليس خوفًا، بل صمتًا كثيفًا كبئرٍ عميق امتلأ فجأة بكل ما لم يُقال، ولن يُقال.

مرت الثواني كالقرون، ثم ارتعش صوت الأب لأول مرة:

- سعاد.. أين يحيى؟ أين ذهب؟!

لم ترد. هو لم يكن يسألها، كان يسأل الفراغ.

وفي عيني (أدهم)، انعكس المشهد الأخير لطفولة تموت. لحظة لم يعد بعدها الأب كما كان، ولا الأم كما كانت، ولا هو نفسه كما كان.

تراجع كمال شكري ببطء، ثم انتفض فجأة، كأن الصدمة تحوّلت إلى طاقة مجنونة تدفعه للحركة. راح يتلفّت بجنون، نظراته تتخبط في زوايا الغرفة، يبحث في كل ركن، في كل ظل، في كل احتمال مستحيل. ركض إلى الخزانة وفتحها بعنف حتى كادت تُقتلع من مكانها، دفع الفراش أرضًا، قلب الأغطية، رفع السجادة، فكّ الستائر.

كل ما تقع عليه يده كان يُبعثر بلا وعي. صوته خرج أخيرًا، لكنه لم يكن نداء أبٍ يبحث عن ابنه، بل كان أشبه بزمجرة

مخلوق يوشك أن يفترس حزنه:

- يحيى! يحيى! أجبني يا ولد!

لكن الصدى فقط هو من ردّ عليه، يرتدّ من الجدران الخرساء. خرج كمال من الغرفة وهو يترنّح، شعر أن الأرض لم تعد تحت قدميه. اندفع إلى المطبخ، إلى الحمام، فتح الأبواب كلها، حتى باب الشرفة. وكلما وجد المكان خاليًا، انكسر شيء جديد في صدره.

ركض إلى باب البيت وفتحه، نزل درجات السلم قفزًا، يصرخ في السكون:

- يحيى! هل منكم من رأى يحيى؟!

لكن البناية كانت نائمة. لا أحد يرد. الهواء فقط هو من كان يصفّر في الدرجات، يحمل الصمت كسكين بارد.

و(أدهم)؟ ظل واقفًا عند باب غرفة (يحيى)، لا يتحرك. كان يسمع كل شيء: كل خفقة، كل شهقة، كل صوت اصطدام بين يأس الأب وجدران الحقيقة. لكنه لم يتحرك. شيء ما جذره هناك.

خطوات كمال شكري وهو يصعد السلم مجددًا لم تكن كخطوات الرجل الذي نزل قبل دقائق. لم تعد صلبة، لم تعد تحمل تلك الهيبة التي طالما بثّها فيمن حوله، بل كانت متهالكة، متعثرة.

روحه أصبحت عبئًا لا يُحتمل. ظهره كان منحنياً قليلًا، وكتفاه المشدودتان دومًا تهدّلتا، كأن عبئًا خفيًا قصم صلابته. دخل الشقة ببطء، عيناه زائغتان. توقّف في منتصف الصالة،

أنفاسه متقطعة. نظر إلى سعاد المنهارة على الأرض، ثم إلى الباب المفتوح لغرفة (يحيى).

وبدون أن يقول كلمة، ركع فجأة على ركبتيه في منتصف المكان. يده اليمنى ارتفعت لتغطي وجهه، واليسرى سقطت بجانبه، خالية من أي معنى. وببطء، تسرّبت شهقة.. ليست كأي شهقة، بل كانت الأولى منذ سنوات طويلة، شهقة من انكسر صوته بعد عمر من الصمت.

لم يبكِ كمال شكري، بل انهار بصمت موجع.

و(أدهم)، الذي كان يراقب من باب الغرفة، لم يعرف وجه أبيه هذا. كان غريبًا، هشًا. الرجل الذي صرخ يومًا: «هذا ليس ابني»، قد تجرّع الآن ثمن تلك الكلمات.

الفصل الخامس

ومضت الأيّام، لا تمشي، بل تنساب كقطراتٍ من حبرٍ ثقيل، تلطّخ جدار الزمن دون أن تغسل شيئًا. في بيت آل شكري، حلّ الصمت كضيفٍ ثقيل، أزاح كل شيء، حتى الأمل. كمال شكري صار شبح رجل، يسير كل صباح بخطى ثابتة، لا عن ثبات، بل عن عنادٍ يائس. في يده كُوِّمت منشورات، طُبعت عليها صورة (يحيى)، وتحتها سطور مرتجفة:

«مفقود.. يُرجى من يعرف مكانه الاتصال على هذا الرقم.. »

يلصقها على الجدران كما لو كان يحاول أن يُثبت ابنه في العالم، أن يمنع الذاكرة من محوه. يكرر ذات الخطوات، يطرق أبواب الناس، يزور الأقسام، يملأ الاستمارات، يكتب البلاغات، يُسائل، يتوسل، لكنه لا يتراجع. في قسم الشرطة، صار جزءًا من الأثاث، يجلس على ذات المقعد، أمام نفس الضابط، ويُعيد ذات السؤال:

- هل هناك خبر؟

ويأتيه الجواب، كجرحٍ معتاد:

- ما زلنا نبحث.

وسعاد كانت تذبل في صمت، تجلس بالساعات تحدّق في النافذة، تنتظر ظلًا أن يعبر، أو صوتًا أن ينادي، أو معجزةً أن تهبط. أمّا (ادهم)، فقد تعلّم أن ينظر إلى والده لا كصنم، بل كإنسان يتآكل. يراه في الليل، جالسًا على الأرض أمام غرفة (يحيى) المغلقة، يمسك صورته، يضغط عليها بأصابعه، كما لو أنّه يطلب منها أن تنطق. مرّت أسابيع، ثم شهور، والمنشورات

صارت بالية، أكلت الحواف، وتكسّرت حروف النداء، لكن كمال لم يتوقف. كان يُلصقها كلّ مرة وكأنها الأولى.

وهكذا بقيت الأسرة، لا تبكي، بل تنزف بهدوء. وفي الليلة، وبينما كان كمال جالسًا على الكرسي الخشبي العتيق في الصالة، رأسه بين يديه، والبيت في حالة صمت مهيب، جاء صوتٌ خفيف وخافت، أحدهم يمرّر أصابعه على خشب الباب القديم لغرفة (يحيى). رفع كمال رأسه، وانتبهت الأم التي كانت في المطبخ تُعدّ شاي النعناع، وسقط الكوب من يدها دون قصد. ثم فُتح الباب وحده، لا ريح، لا يد، لا أحد. ومن داخل الغرفة خرج ضوء خافت، وظهر ظلٌّ صغير واقف في عمق الغرفة. كمال لم يتحرك، عيناه ثبتتا على الظل.

- يـ.. (يحيى)؟

لكن الظل لم يجب. الهواء تغيّر. أوراقٌ على الطاولة تحرّكت دون أن يلمسها أحد. الضوء بدأ يضطرب. ونفس الصوت الذي سمعوه من قبل خرج مرّة أخرى، لكن أعمق، أبطأ:

- أنا هنا.. ولكني لست (يحيى).

ثم اختفى كل شيء. ومنذ تلك الليلة، لم يغُد البيت كما كان. كل شيءٍ فيه تغيّر. الأم باتت لا تنام، تجلس طوال الليل في الركن القريب من الصالة، تضم مسبحتها إلى صدرها، تتمتم بآياتٍ لم تعد تُشعرها بالأمان كما كانت تفعل، وعيناها لا تغمضان. كمال شكري صار رجلًا شاحبًا، يتلفّت فجأة، يرفع رأسه كمن سمع صوتًا يناديه ثم ينكر. كان يشعل السجائر وينساها مشتعلة بين أصابعه، يمشي ليلًا بين الغرف، يتوقف أمام باب غرفة (يحيى) ثم يتراجع دائمًا.

وأدهم كان يعلم أن شيئًا ما تغير. الظلال في الزوايا صارت تتحرّك، صوت أقدام تهمس على البلاط بعد منتصف الليل، وهمسات خافتة تخرج من خلف باب الغرفة المغلقة، وأحيانًا بكاء شديد في أروقة الصالة. الجدران لم تعُد صامتة. وكل ليلة في تمام الثالثة صباحًا، ينطفئ النور وحده، وتُفتح نافذة غرفة (يحيى)، رغم أنها موصدة بالمسامير. وفي أحد الأيام، وجدت الأم مكتوبًا على المرآة بخطٍ أحمر غليظ:

«أنا لم أرحل بعد».

فانهارت. وصار الخوف ساكنًا دائمًا في هذا البيت، لا يُغادرهم، لا يهدأ، لا يرحم، بل فقط ينتظر.

وفي ليلة لم تكن تختلف في بدايتها عن سابقاتها، الساعة الثالثة، النور انطفأ وحده كعادته، النافذة انفتحت رغم المسامير، والصمت.. ثقيل، يئنّ تحته الحوائط. لكن شيئًا ما في الهواء تلك الليلة.. كان أبرد وأثقل وأبغض. استفاق (أدهم) على صوت خافت. خطا بخفّةٍ نحو الصالة، لم يُشعل الضوء، فقد تعوّد الظلام، لكنه توقّف ثم جمد في مكانه. كانت الأم واقفة في المنتصف، جسدها متخشّب، تحدّق لأعلى بلا صوت. رفع (أدهم) عينيه إلى حيث تنظر، فتجمّدت كل خلاياه حين شاهد والده كمال شكري، بجسده المُعلّق، يتدلّى من الحبل في عارضة باب غرفة (يحيى). جسده يتأرجح ببطء، ورأسه مائل، وعيناه مفتوحتان، وكأنّه كان يرى شيئًا حتى اللحظة الأخيرة. لكن ما شلّ عقله لم يكن المشهد وحده، بل ما كُتب أسفل قدميه بخطٍ غليظ مشوّه، بدمٍ لم يعرفوا مصدره:

«اخرجوا من المنزل».

صرخت الأم أخيرًا، صرخة خرجت من عمق عمرٍ كامل من الإنكار. أدهم لم يصرخ، بل فقط وقف، ويده على فمه، وعقله يعيد كل لحظات الرعب التي مرّ بها. وقف أمام جثمان والده المعلّق، والصمت صار كائنًا زاحفًا يلتفّ حوله، يخنقه رويدًا. يداه ترتعشان، وعيناه لا تبرحان تلك الكلمات التي خُطّت بالدم تحت قدمي أبيه، كلماتٌ ليست غريبة، كلماتٌ يعرفها:

«سأقتلك يا كمال.. »

الصوت، ذلك الصوت الغليظ المتكسّر، الذي سمعه ذات ليلة وهو يقف خلف الباب، حينما كانت أمه تبكي وتترجّاه أن يغيّر ذلك الشيخ، وحينما كانت الغرفة تهتزّ، والنوافذ تُغلق وحدها، وحينما قال (يحيى) بصوت لم يكن صوته:

«سأقتلك يا كمال.. عاجلًا أو آجلًا».

الآن فقط.. فهم. ارتجف جسده. الحقيقة صفعته على وجهه. إنّ ما حدث تلك الليلة لم يكن نوبة هستيرية، ولا مسًّا عابرًا، بل كان الوعد. الوعد الذي تم. كمال شكري لم يُشنق نفسه، بل نُفّذ فيه الحكم الذي أُعلن قبل أشهر من فمٍ كان لأخيه ولم يكن. ظلّ يحدّق نحو جسد أبيه المتدلّي، فرأى في قسمات وجهه شيئًا لم يره من قبل: الرعب، الضعف، الذنب. وأدرك أنّ المأساة لم تبدأ الليلة، بل بدأت منذ أوّل صرخةٍ خرجت من غرفة (يحيى)، وأنّ البيت.. لم يكن بيتًا بعد تلك الليلة أبدًا.

تجمّع رجال الشرطة أمام المنزل، بينما كانت شمس الصباح تتسلل بخجل من خلف الغيوم الرمادية، تتردّد في أن تُلقي

نورها على ما حدث في هذا المكان. وقف (أدهم) إلى جوار الباب، شاحب الوجه، تتأرجح نظراته بين رجال المعمل الجنائي وأثر الحبل المتدلّي من السقف، حيث كان جسد والده يتأرجح بالأمس، بلا حراك وبلا كرامة. دخل المحقّق (هشام) بخطى واثقة، يتبعه مساعدوه، ثم توقّف عند منتصف الغرفة، ورفع عينيه نحو السقف.

قال بهدوء مصطنع:

- العلامات واضحة.. انتحار. لا توجد آثار لعراك، ولا كسور، ولا علامات مقاومة.

سأل أحد الضباط:

- هل من أقوال من أهل المنزل؟

ردّ (أدهم)، بصوتٍ خافت لكنه مشحون بالتحفّظ:

- كنت أوّل من استيقظ، وجدته هكذا.. معلّقًا، ولا شيء في الغرفة قد تغيّر.. سوى الهواء.

تقدّم أحد الفنيين وهو يحمل لوحة خشبية صغيرة عليها كتابات مرتجفة، رفعها نحو المحقّق قائلًا:

- وُجدت هذه الكلمات مكتوبة أسفل الجثة، بخطٍ غير منتظم: «سأقتلك يا كمال»، وبعض الكتب القديمة.

أخذ المحقّق اللوحة، تأمّلها للحظات، ثم قال وهو يهزّ رأسه:

- غالبًا كتبها بنفسه.. تأنيب ضمير، أو هلوسات متأخرة.

حدّق فيه (أدهم) طويلًا، ثم قال محاولًا كبح الغليان في صدره:

- وهل يكتب المرء وعيدًا لنفسه؟ ويشنق جسده من دون أثر تردد؟ من دون حتى أن يترك رسالة؟

أجابه المحقّق بهدوء، كأنّه يحفظ السيناريو عن ظهر قلب:

- هذا ما تشير إليه الأدلة يا فتى.. نحن لا نؤلف الرواية، نحن نقرأ ما كُتب أمامنا.

صمت (أدهم)، لكن ملامحه نطقت بما لم يُقل. هو وحده يعلم أن القصة لم تُكتب هنا.. بل بدأت قبل أشهر في غرفة أخيه، في الليلة التي هربت منها العيون، وبقيت الأصوات تهمس في الجدران.

***

تشقّق جدار الزمن داخله، وسقط منه (أدهم) دفعةً واحدة. الذاكرة لفظته فجأة، بعنفٍ لا رحمة فيه. شهق شهقة ثقيلة خرجت من صدره المكموم منذ لحظة اختفاء (يحيى). عادت عيناه تتحركان ببطء. رأى التراب الراكد فوق منضدة قديمة، رأى خطوط الطلاسم التي رسمها أخوه. تراجع خطوة، يده على الحائط البارد، صدره يعلو ويهبط، وقلبه يصفع ضلوعه بقوة. ثم خرج الصوت منه، لا همسًا، كأن شيئًا داخله انكسر:

«لقد غدت.. ولكني لا أعرف ما الذي سأجده».

كانت يداه ترتجفان، عيناه تجولان كأنهما تفتشان عن شبحٍ عاش هنا ذات زمن. والصمت لم يكن صمتًا، كان همسًا خافتًا يلوّن الجدران. (أدهم) لم يخرج من الذكرى، الذكرى هي التي خرجت معه، وجلست بجانبه، وتنفّست في أذنه. مدّ يده نحو الكومة المهترئة بجوار السرير: أوراقٌ صفراء، دفاتر ممزقة،

وكتب قديمة بجلود متشققة. حملها ووقف في وسط الغرفة كأنّه آخر شاهدٍ على أثرٍ انسحق تحت عجلة الزمن. يداه تمسكان الكتب، وعيناه تُحدّقان في الغلاف العلويّ لواحدٍ منها، المُغبّر كصفيحة نُبشت من قبرٍ قديم.

«الغيلان السود»... قرأ العنوان همسًا، الحروف تحمل وزنًا أكبر من الصوت. ارتجف شيء داخله، لا خوفًا... بل إدراكًا، أن روحه تلمّست أطراف حقيقةٍ طال نفيها. ضمّ الكتاب إلى صدره ببطء، ثم لفّه مع بقيّته داخل معطفه. وقبل أن يغادر، ألقى نظرةً أخيرة على الغرفة، أدرك أنه لا يودّع المكان فحسب، بل يطوي صفحةً لم تكن يومًا ملكه، بل فرضها عليه الغياب، والجنون، والدم.

فتح باب البيت، لفح وجهه هواء الليل البارد، لم يلتفت. هبط الدرج بخطى ثابتة، لم يسمع شيئًا، لم يرَ شيئًا. دلف إلى سيارته، يده ترتجف لحظة وضع المفاتيح في مكانها. أدار المحرك، صوت الموتور اخترق الصمت، لكن قلبه ظلّ متسمّرًا هناك، في الطابق العلوي، بين الكتب والغبار والذكريات التي عادت تنبض. ضغط على دواسة البنزين ببطء، والضوء الأصفر الخافت للمصباح الأمامي انزلق على الرصيف المهجور.

لكن شيئًا ما جذبه ليرفع عينيه إلى الشرفة. تجمّد. هناك، خلف الدرابزين الحديدي الصدئ، كان (يحيى) يقف. لا.. ليس «(يحيى)» كما عرفه. وجهه شاحبٌ كصفحةٍ طواها الزمن، لون بشرته لا يدل على حياة، بل على شيء عاد من العدم. عيناه سكونٌ قاتم، بُعدٌ لا يُقاس، لا تنظران إليه، بل تخترقانه،

تبحثان عن شيء دفنه منذ زمن. لم يحرّك ساكنًا، لم يرمش، وقف في البلكونة ساكنًا، مائلًا قليلًا.

(أدهم) حدّق فيه.. وشيء ما بداخله انكسر. يده اشتدت على المقود حتى ابيضّت المفاصل، وعيناه ظلّتا معلّقتين بذلك الكائن الذي كان يومًا أخاه. لكن حين نظر ثانية، لم يجده. الشرفة خالية، الليل تمدّد حوله كسائلٍ باردٍ يغمر كل شيء، والطريق أمامه يبدو كهاويةٍ مفتوحة.

جلس (أدهم) داخل السيارة كمن جلس داخل جسد لا يعرفه. أنفاسه بطيئة، مشوّشة، السيارة لا تتحرك، فقط صوت المحرك، كهمهمةٍ قديمة، وكأن الحديد نفسه يهمس له:

«ما الذي صحبته معك؟»

الكتب كانت بجواره، ترقد كجثثٍ غامضةٍ استخرجها من قبرٍ لم يُفتح منذ قرون. أعلاها كتابٌ واحد: «الغيلان السود». العنوان محفور بلونٍ لا يُشبه الحبر، بل سوادٌ كُتب بالحرق أو بلعنة. مدّ يده نحوه، لكنها توقفت قبل أن تلمسه، كأن بين جلده وصفحاته كهرباءً راكدة، أو ذكرى تعرف كيف تؤذي دون أن تتكلم.

نظر إلى المرآة الجانبية، فرأى وجهه. فتح النافذة قليلًا، اندفع هواء الليل كطعنةٍ هادئة، لامس جلده دون أن يوقظه. لم يكن وحده؛ كان معه كتاب، وذاكرة، وصورة أخٍ لا تموت. وكان معه سؤالٌ لم يُسأل بعد، لكنه يعرف أن الإجابة ستكون نهاية كل شيء.

السيارة انسابت على الإسفلت كشبحٍ يشق الظلمة، والضوء الباهت من المصابيح يرتجف فوق الجدران واللافتات.

المدينة كلها لا تشعر بالطمأنينة تجاه هذا العائد من الماضي. لم يشغِّل الراديو، لم يفكّر في شيء. كل ما في داخله كان ضجيجًا صامتًا، كصرخةٍ مكتومة في قاع بئر.

بيت والد (نادية) زوجته لم يكن بعيدًا، لكنه بدا كأنّه جزيرة في محيطٍ من الأسئلة. وفي تلك اللحظة، لم يكن (أدهم) شكري صحفيًا، ولا زوجًا على شفا طلاق، ولا أبًا فقد طريقه، بل كان رجلًا يحمل شيئًا لا يفهمه.. ويسير به نحو من لا يدرك بعد أنه سيتورّط في ظله.

أوقف (أدهم) السيارة أمام بيت والد (نادية). الضوء الخافت المنبعث من إحدى النوافذ كان كافيًا ليُشعل داخله خيطًا رفيعًا من القلق أو الحنين؛ هو لا يعرف تمامًا. أطفأ المحرّك وترجّل من السيارة. خطواته ثابتة لكنها متحفّظة.

بيت والدها كان يزوره من قبل زوجًا، صهرًا مقبولًا. أمّا الآن، فكل شيء تغيّر بدرجة لا تُرى، لكنها تُحسّ من كثرة المشاكل. اقترب من الباب، لم يتردّد ولم يتعجّل. مدّ يده وضغط الجرس. في قلبه اختلطت مشاعر لا يعرف أسماءها بدقة.

هل اشتاق لـ(نادية)؟ أم اشتاق فقط لما كانا عليه؟

هل يخشى المواجهة؟ أم يتمنى أن تكون هي التي تفتح الباب؟

طرق (أدهم) الباب مرةً أخرى طرقًا خفيفًا، كأنه لا يريد إيقاظ ما لا ينبغي إيقاظه. ثوانٍ مرّت، ثم فُتح الباب على مهل، وظهر خلفه (عزت الليثي) والد (نادية)، بهيئة رجلٍ لا يرحّب ولا يستغرب. عيناه كما هما، جامدتان، حادتان، تصدران حكمًا بمجرد النظر. قال عزت بنبرة مقتضبة:

ـ «تفضل».

دخل (أدهم) وقدماه تثقلان بأوزار الماضي. لم تكن هذه زيارته الأولى لهذا البيت، لكنها الأولى التي يشعر فيها كالغريب. لا تحية، لا مصافحة. جلس عزت على المقعد المقابل، وظلّ (أدهم) واقفًا لبرهة، ثم جلس أخيرًا دون أن ينطق.

وبعد لحظة صمت قال:

ـ لم آتِ لأبرر موقفي.. ولكن عرفت أن (نادية) هنا.

رفع عزت حاجبه، وقال بنبرة خالية من الحفاوة:

ـ نادية في بيت أبيها، هذا كل ما في الأمر.

ابتلع (أدهم) الجملة، وأكمل بصوتٍ أكثر ثباتًا:

ـ أعرف أنك لم تكن تراني أهلًا بها، وربما كنتَ على صواب. لكن لا أحد يعرف كم خسرت، إلا من عاش معها ثم فقدها.

جاوبه عزت بجمود لا يخلو من لسع السخرية:

ـ الخسارة تبدأ من لحظة الغفلة.. وأنت غفلت كثيرًا، يا أستاذ أدهم.

أخفض أدهم نظره للحظة، ثم رفعه مجددًا وقال:

ـ لم آتِ لأسرد أعذارًا، أنا فقط أريد التحدث معها.

صمت عزت، يزن كلماته، ثم قال بوضوح حاد:

ـ أفهم من كلامك.. أنك تنتظر أن تعود معك؟

ثبّت أدهم نظره في عينيه، وأجاب بهدوء:

ـ لا أنتظر.. بل أرجو.

لحظة من الصمت انزلقت بينهما. ثم نهض عزت ببطء وقال:

ـ انتظر هنا. إن أرادت أن تراك.. فستأتي.

ثم تركه ومضى.

أومأ عزت برأسه، وقال بصوتٍ متماسك:

- جيّد.. فلنسمع إذن، ما الذي جئت من أجله؟

أدار (أدهم) وجهه نحوها للمرة الأولى منذ دخوله، وفي عينيه شيء لم يكن هناك من قبل؛ مزيج من الندم والعناد، من الحب والخذلان، من رجلٍ تأخّر كثيرًا، لكنه لا يزال يأمل. قال بصوت خافت، لكنه يحمل ما يكفي من الرجاء ليصل إلى قلبها:

- نادية.. لم آتِ لأبرر، ولا لأختلق الأعذار.. أعرف كم تعبتِ، وكم انتظرتِ، وكم سئمتِ هذا الغياب.. لكنّي جئتكِ كما أنا، دون أقنعة.. رجلٌ أضاعكِ وهو يبحث عن ظلال الحقيقة، ونسِي أن الحقيقة الوحيدة التي كان عليه التمسك بها.. كانت في عينيكِ.

رفعت (نادية) نظرها نحوه أخيرًا، ببطء، كأنها تخشى أن تراه كما كان، أو أن تراه وقد تغيّر. لم تتكلم، لم تدمع، لكن عينيها.. اشتعلت فيهما أسئلة كثيرة، أكثرها: «لماذا الآن؟»

تابع (أدهم)، دون أن ينتظر جوابًا:

- أعرف أنّ بيننا هوّة صارت أوسع من الكلام، وأنّي كلّما اقتربتُ، زدتُكِ بعدًا.. لكنّي لن أعد بعدكِ.. ولن أحتمل فكرة أن يُربّى ابني بعيدًا عني، ولا أن تنامي كل ليلة في بيتٍ.. ليس

بيتي.

ثم أضاف، بصوتٍ أكثر حنانًا:

- لم أكن الرجل الذي تستحقّينه.. لكنّي.. أريد أن أكون الأب الذي يستحقه (علاء)، والشخص الذي، ولو بعد فوات الأوان.. يستحق فرصة أخرى.

ظلّت (نادية) تنظر إليه للحظات، ثم تنفّست بعمق، كأنّها تُفرغ صدرها من سنوات الصمت.

قالت بهدوء لا يخلو من الحزن:

- (أدهم).. كل كلمة قلتها الآن، كنتُ بحاجة لسماعها.. لكن في وقتٍ مضى، وقتٍ كنتُ أقاتل لأبقى، لأفهم، لأُصلح ما بيننا.. لكن وحدي.

صمتت قليلًا، ثم تابعت بنبرة أكثر حسمًا:

- جئتَ متأخرًا.. متأخرًا على الحب، وعلى الثقة، وعلى الأمل الذي كان يومًا بيننا. أنا لا أكرهك.. ولستُ غاضبة كما كنت، لكنني فارغة، فارغة من الانتظار، ومن المحاولة، ومن الرغبة في أن نكمل.

ثم أنزلت نظرها، قبل أن ترفعه نحوه مجددًا، وقالت:

- كل ما أُريده الآن.. هو أن تطلقني. بهذا فقط.. نستطيع أن نحفظ ما تبقّى من احترام، وأن نمنح (علاء) شيئًا من السلام.

ساد الصمت بعد كلمات (نادية)، صمتٌ ثقيل، كأن الجدران اختنقت به، وكأن الهواء نفسه تردّد في المرور بينهما. رفع (أدهم) نظره إليها، بعينين لا تُخفيان الانكسار، ثم قال بصوتٍ خافت، لكنه حازم:

- نادية.. هل يمكننا أن نتحدث.. وحدنا؟

نظر إلى عزت الليثي، الذي ظل واقفًا متجهمًا، كأن كل ما يجري أمامه تأكيد لما كان يخشاه يومًا. ثم أضاف (أدهم)، دون أن يُخفي رجاءه:

- أعرف أن وجودي هنا لا يريحك، وأنك لم تردني يومًا زوجًا لابنتك.. لكنني لم آتِ لأبرر.. ولا لأكابر.. فقط أطلب دقائق، بيني وبينها، دون أعين الغضب ولا أحكام الماضي. فإن كانت النهاية قادمة.. فلأفهمها منها، لا من صدى خطواتها وهي ترحل.

نظر عزت إلى ابنته بعين الأب الحامي، ثم تنحّى جانبًا بعد لحظة صمت، وقال ببرود:

- معك عشر دقائق.. لا أكثر.

ثم خرج، مغلقًا الباب خلفه، تاركًا الصمت بينهما من جديد. لكنه هذه المرة، كان صمتًا ينتظر الانفجار أو الخلاص.

تقدم (أدهم) خطوة.. ثم توقّف. نظراته معلّقة بها، لا تحوي غضبًا، بل شيئًا يشبه العتب الذي يُخفي وراءه اعترافًا أثقل من أن يُقال. قال بهدوء، لكن كلماته كانت كالسكاكين التي خرجت من صدره:

- أتدرين ما يؤلمني؟ أنكِ تنظرين إليّ الآن وكأنني عابر.. غريب دخل بيتًا لا يخصه.

اقترب أكثر، وصوته يهبط نبرة:

- كل ما أنا عليه.. كنتِ أنتِ السبب فيه. قصصي التي يقرؤها الآلاف.. شهرتي، ذلك اللقب البائس الذي يلاحقني

كظلّي.. كله بدأ من هنا.. من غرفتكِ.. من همسات المرضى النفسيين الذين كنتِ تعالجينهم.

ابتسم ابتسامة مكسورة:

- كنتِ تجلسين لساعات تقرئين ملفاتهم.. وأنا، خلف الباب، أسمع.. أدوّن.. أتنفّس رعبهم، وأحوّله لحكايات. حتى أنا.. لم أعد أعرف إن كنتُ أكتب عنهم.. أم عن نفسي.

سكت لحظة، ثم رفع نظره لعينيها:

- لكنكِ كنتِ دائمًا البدايات.. وها أنتِ الآن، تحاولين أن تكوني.. النهاية.

أشار بيده حوله، وكأن المكان نفسه شاهد على الحكاية:

- كنتِ تعيشين في عالمٍ نقي، منضبط، كل شيء فيه محسوب.. وأنا؟ كنتُ فوضى.. ابن حارة قديمة، لا أملك من الدنيا إلا قلمي وحقيبة بالية، وحلمًا مستحيلًا.

اقترب حتى صار بينهما أقل من خطوتين:

- أبوكِ لم يكن يخطئ.. أنا لستُ منكم، ولم أكن يومًا. لكن رغم كل شيء.. أحببتكِ، بطريقتي. ربما لم أُحسن التعبير، ربما انشغلت.. لكنني لم أتغيّر. كل ما تغيّر أنني أصبحت مرئيًا للعالم، بعد أن كنتُ ظلًّا في عينيكِ.

نظر إلى الأرض، ثم رفع عينيه إليها مجددًا، ونبرة صوته انكسرت وهو يكمل:

- لا أحد علّمني كيف أكون زوجًا ناجحًا.. كنتُ أتعلم من خسارتي.. من صمتكِ.. من نظرات ابننا التي كانت تُسائلني دون كلام.

ثم ابتسم بسخرية خفيفة:

- أتعلمين؟ كل مرة كنتِ ترحلين فيها بصمت، كنتُ أكتب أفضل ما عندي.. كنتِ تتركني وحيدًا مع الجنون، فأصنع منه أدبًا.

سكت لحظة، وكأن نفسه خانته، ثم قال:

- لا أطلب عفوًا، ولا ألقي اللوم. لكن إن كنتِ ستغادرين حياتي.. فارحلي وأنتِ تعلمين من أنا.

تقدم (أدهم) خطوة، ثم توقّف، كأن الكلمات أثقل من خطاه. تطلّع إلى (نادية) بعينين أنهكتهما الليالي، وصوتٍ متهدّج من الداخل، لكنه ثابت:

- كنتِ في كليةٍ غير كليتي.. عالمان لا يلتقيان، وسماءان لا تتجاوران. لكنّكِ اخترتِ أن تنظري نحوي، رغم الفارق، رغم العيون التي تلاحقكِ بأسئلة لم تنطقي بها. رأيتِني حين لم يرَني أحد، وسمعتِني وأنا أصمت، وآمنتِ بي قبل أن أؤمن بنفسي.

سكت قليلًا، كأنه يغوص في قاع ذاكرةٍ لم تَخبُ نيرانها بعد، ثم تابع:

- أتعلمين متى أحببتكِ؟ لم يكن حين ضحكتِ أوّل مرة.. ولا حين همستِ لي باسمك في المطر.. بل أحببتكِ يوم دافعتِ عني في صمت، أمام كل شيء: أهلكِ، زميلاتكِ، حتى نفسكِ. أحببتكِ لأنكِ وقفتِ أمام حياتكِ واخترتِني، لا لأنني الأفضل، بل لأنكِ صدّقتِ أن هناك ما يستحق.

اقترب أكثر، وصوته يحمل رجفة صادقة، كشخصٍ يقترب

من هاوية حافة قلبه:

- كل ما أنا عليه اليوم.. كل شهرةٍ، كل سطرٍ كُتب، كل وجعٍ قرأه الناس وصفّقوا له، كان ثمرة ما منحتِني إيّاه. قصصي عن المرضى النفسيين.. عن المتألمين الذين لا صوت لهم، من أين ظننتِ أني عرفتهم؟ ألم تكوني أنتِ من فتح لي هذا الباب؟ ألم تأتني بكل حكايةٍ، بكل صمتٍ موجع من داخل جدران المستشفى؟ أنتِ كنتِ عيناي على عالمٍ لا يُرى، وقلبي حين تبلّد قلبي.

خفض عينيه لحظة، ثم رفعهما بثقل، وهو يقول:

- وها أنا ذا.. أقف أمامكِ، كغريبٍ يطرق بابَ ماضٍ لا يريد أن يُفتح. تطلبين النهاية؟ فلتكن إذن. لكن اعلمي.. أنكِ كنتِ بدايتي، وستظلين في كل سطرٍ أكتبه، وفي كل وجعٍ أنقله إلى العالم.. حتى وإن رحلتِ.

ردّت (نادية) بصوتٍ هادئ، لكنه يحمل طيّاتٍ من وجع السنين:

- ما أقسى أن يأتي الحبّ متأخرًا، كزهرةٍ تتفتح في الخريف.. جميلة، نعم، لكن لا أحد يراها. كل ما تقول.. سمعته في قلبي ألف مرة، وانتظرته بصبرٍ يُميت، لكنك لم تأتِ. كنتَ هناك.. في صخب قصصك، في ضجيج حكاياتك، في ظلال أشباحك.. وكنتُ هنا.. امرأة تتقشّر من الداخل كلّ يومٍ، ولا أحد يراها.

أخذت نَفَسًا عميقًا، كأنها تحبس دمعًا لا تريد له أن يسقط:

- تعرفُ ما وجعي الحقيقي؟ ليس أنك تغيّرت.. بل أنك

عدتَ الآن، تحاول أن تُرمّم شيئًا تهدّم داخلي منذ زمن، تحاول أن تُنقذ ما لم تسأل يومًا إن كان يحتضر. والآن.. تقول لي إنني كنتُ البداية؟ لكن البدايات لا تكفي حين تُهمل منتصف الحكاية.. وحين تنسى النهايات.

حدّقت في عينيه، بعينين متعبتين، دامعتين، لكن ثابتتين:

- (أدهم)، أنا لستُ تلك الفتاة التي انتظرتك أمام مدرّجٍ في الجامعة، ولا تلك الزوجة التي ظنّت أن الحب وحده يكفي.. أنا امرأةٌ خذلتها أحلامها، وكسرتها الأيام.. ولم تجدك. وكل ما أريده الآن.. هو السلام. لا أريد حربًا جديدة.. ولا محاولة إنعاشٍ لحبٍ مات دون جنازة.

ثم بصوتٍ أكثر هدوءًا.. أكثر حسمًا:

- جئتَ الآن؟ جميلٌ أنك جئت. لكنني.. رحلتُ منذ وقتٍ طويل، ولم أترك خلفي شيئًا لأنتظره.

نظر (أدهم) إليها مطولًا.. يتنفس ببطء، ثم يردّ:

- ما أشد قسوة أن يُحبّ الرجل امرأةً لا يعرف كيف يعبّر لها عن وجعه، فيتحوّل وجعه إلى جدارٍ يفصلها عنه. أعرف.. أعرف أنني لم أكن رجلًا سهلًا.. ولا شريكًا مثاليًا.. لكنكِ.. أنتِ كنتِ الشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم المشوّه.

تنفّس من صدره كمن يحاول أن يطرد الرماد من رئتيه:

- إن كنتِ تطلبين السلام.. فلن أقاتلك، لكنني فقط.. أردت أن تعلمي أنني، في كل مرآة نظرتُ إليها، لم أرَ نفسي.. بل رأيتُ امرأة تُدعى (نادية)، تختفي يومًا بعد يوم، حتى اختفت.

سكت لحظة، وكأنه ينتظر منها شيئًا.. أي شيء، لكنه لا يجد سوى الصمت. فمال برأسه قليلًا، ثم قال:

- حسنًا.. سأرحل، لكن إن خطر لكِ يومًا أن الماضي لا يموت.. فتذكّري أنني، رغم كل شيء.. لم أزل هناك.

وقف (أدهم) صامتًا، عيناه على (نادية)، لكن قلبه.. على شفير الانهيار. ملامحها لم تعد كما كانت.. كانت جميلةً دائمًا، نعم، لكنها الآن جميلةٌ بطعم الغياب.. جميلةٌ كذكرى لا تُمس.

تحرّك نحو الباب، خطواته ثقيلة، كأنّه يسحب وراءه سنينًا من الأسف، لكن قبل أن يلمس المقبض..

صوتٌ صغير، مألوف.. مزّق الصمت:

- بابا؟

استدار ببطء، وهناك، على عتبة الممر.. كان «(علاء)» يقف، بوجهٍ صغير مرسومٍ فيه كل وجوه الأبوة التي ضيّعها. ركض الطفل إليه، لم يتردد لحظة. فتح (أدهم) ذراعيه واحتضنه. كان الحضنُ طويلًا، صامتًا، لكن فيه كل الكلمات التي لم تُقل.

ثم نزل على وجنته الصغيرة قبلةً مرتعشة، كأنّه يعتذر، كأنّه يوعد. رفع رأسه نحو (نادية)، وعيناه تغرقان في دموعها الصامتة، ابتسم لها بحزن، ثم تابع، والطفل ما زال بين ذراعيه:

- سأمضي الآن، وسأترك لكِ المساحة التي تريدينها، لكنني أرجوكِ.. فكّري.. لا بي، بل بنا.. بما كان، وبما يمكن أن يكون.

ثم قبّل جبين (علاء)، وأوقفه برفق، وابتسم رغم انكساره. خرج (أدهم) من بيت «عزت الليثي» كأنّه يخرج من نفسه..

كل خطوة يخطوها كانت تنهش من قلبه. الهواء في الخارج لم يكن هواءً.. بل سكاكين صامتة تمرّ على صدره بلا رحمة.

لم يلتفت خلفه، ليس لأنّه لا يريد.. بل لأنه لو فعل، سيسقط. كان يشعر كأنّ البيت خلفه ينغلق على جزءٍ منه.. جزءٍ لم يعد يخصّه. السماء فوقه ملبّدة، والهواء محمّل برائحة المساء.. رائحة الحنين.

فتح باب سيارته ببطء، جلس خلف المقود. المقعد صار قبرًا مفتوحًا. كل شيء ساكن، إلا قلبه.. ينبض بصوتٍ لا يسمعه أحدٌ سواه. نظر إلى المرآة.. فرأى وجهًا لم يعد يعرفه، وجهًا أثقلته الهزائم، ولم تترك له الفصول لونًا يُشبه الحياة.

همس لنفسه بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

- كم مرة نخسر من نُحب.. ونحن نظن أننا نحميهم؟

ثم أغلق عينيه للحظة.. كأنّه يبحث عن دفءٍ اختفى، عن صوتها حين كانت تضحك، عن نظرتها يوم قال لها: «سنصنع عالمنا بيدينا». لكن العالم تهشّم.. وتبقّى منه هو، يسير الآن على الطرقات، حاملًا روحه كندبة لا تلتئم، وشوقًا لا يعرف له بيتًا.

أدار المحرّك، وانطلقت السيارة كأنها تهرب من نفسها، من الحب الذي لم يُقتل.. لكنه نزف حتى خمد.

الفصل السادس

دار المحرّك بصوتٍ خافت، وتنهد (أدهم) تنهيدةً ثقيلة من صدرٍ أنهكته الأيام. جلس خلف المقود، لا يقود سيارة، بل يسوق بقايا رجلٍ خرج لتوّه من معركةٍ لم ينتصر فيها أحد. عيناه مسمّرتان في الزجاج الأمامي، لا تنظران إلى الطريق، بل إلى داخله، حيث الجروح القديمة تنزف في صمتٍ نبيل.

تحرّكت السيارة، ولم يتحرّك شيءٌ فيه، جسده فقط هو الذي غادر، أمّا روحه فقد ظلّت هناك، معلّقة في العيون الباكية، في كلماتٍ لم تُكتمل، في حضن (علاء)، وفي صمت (نادية) الذي كان أبلغ من أي وداع. المدينة حوله صامتة، تشبه تابوتًا كبيرًا يحمل داخله أشلاء أحلامٍ قديمة. أضواء الشوارع المتناثرة كانت تمرّ على وجهه كمقاطع من فيلمٍ خافت، كل ضوءٍ يُنير لحظة.. ثم يطفئها إلى الأبد.

لم يكن يقود، بل يفرّ، من عيني (نادية)، من صوته المرتعش، من الإجابة التي لم تخرج، ومن السؤال الذي لا يجرؤ على نطقه:

«هل انتهى كل شيء؟ أم أن النهاية بدأت الآن؟»

وصل إلى فيلته، ذلك البيت الذي شُيّد بأحلام الصحافة، وبُني على عظام الحكايات، لكنه الآن لا يبدو إلا كفوقعةٍ خاوية، صدى لا يُجاب. توقّف وحمل الكتب، ثم ترجل من السيارة، فتح باب البيت، لا كمن يدخل منزله، بل كمن يعود إلى ساحة دفن فيها شيئًا من نفسه، ثم دخل.

الظلمة استقبلته بأذرعٍ باردة، والهدوء ساد. وضع الكتب

على الطاولة، وحدّق فيها طويلًا.

«الغيلان السود».. العنوان ينبض أمامه، شعر أنّه ليس كلمات، بل نبوءةٌ سُطّرت منذ زمن.

ثم جلس وأغمض عينيه، لكن النوم لم يأتِ.. رفض النوم أن يُغلق جفنيه. ظلّ جسده ساكنًا على الفراش، لكن ذهنه كان يعوي، الأفكار تتحوّل داخله إلى كلابٍ ضالّة، تنبح في العتمة، تنهش أطراف السكون. الساعة عبرت منتصف الليل، والغرفة تغرق في صمتٍ لا يقطعه إلا صوت عقارب الساعة، تحصي له ما تبقّى من سلامه العقلي.

جلس ببطء، ظهره مُثقّل، يحمل على أكتافه تاريخًا بأكمله. أدار عينيه نحو الركن، حيث وُضعت الكتب.. وها هو، «الغيلان السود»، يتوسّد العتمة. مدّ يده، أصابعه لم تلمسه، بل استشعرته.. حرارة غريبة تنبعث من الورق.

وضعه في حجره، تأمّل الغلاف مجددًا، تلك النقوش الداكنة التي بدت تتغيّر كلما أمعن النظر. فتح الكتاب صفحةً بعد صفحة، الكلمات بدأت تُشبه التمائم، شعر أنّها لا تُقرأ.. بل تُتلى، كأنّ كل حرفٍ يطرق على ذاكرته، يدقّ على أبوابٍ منسيّة، من الطفولة، من الرعب، من (يحيى).

قرأ عن «تحوّل النفس»، عن «تآكل الوعي»، عن المُبدّلين، أولئك الذين لا يموتون، بل يتكاثرون في عيون من عرفهم، عن ظلالٍ إذا سكنت إنسانًا، لا تتركه إلا بعد أن تترك أثرًا لا يمحوه عقلٌ ولا زمن.

بين الصفحات طلاسم ورسوم، واحدةٌ منها تحديدًا شدّت نظره: دائرة، يتوسّطها قناعٌ أسود بلا ملامح، محاط بسبع

أعين مفتوحة. كُتب أسفل الرسم:

«من نظر في وجهي، رآني في كل وجهٍ بعد ذلك!»

الكتاب ممدود أمامه ككائنٍ غافٍ، ينتظر أن يُوقَظ. الغلاف ما زال يبعث شعورًا بالريبة. تنفّس بعمق، وفتح الصفحة الأولى.

لم تكن هناك مقدّمة تقليدية، بل سطورٌ وحيدة، كُتبت بلغةٍ عربية فصيحة، لكنها تحمل نغمة العصور الغابرة، كما لو أنّها نُقشت على جدار معبدٍ نسيت الشمس أن تلمسه:

«الغيلان السود.. »

«الغيلان.. كائنات لا تُصنّف، خرجت من بقعةٍ في الوجود لا يصلها النور. هي ليست أبناء العالم الذي نعرفه، بل طارئون عليه، طارئون بقدرٍ كافٍ ليربكوا قوانينه ويشوّهوا ما يسمّيه البشر بالهوية».

«تسلب الضحية ما يميّزه، صوته أولًا، ثم طريقة انفعاله، ثم ما تبقّى من ملامحه، وفي كل مرةٍ يفقد جزءًا من ذاته، يكتب الغول جزءًا آخر، حتى يكتمل فيه شكلٌ كاذب يشبه الإنسان أكثر مما يشبه نفسه».

«وعندما تكتمل السرقة، يظهر كأنّه كان موجودًا منذ البداية، يقف أمامك بوجهٍ تعرفه جيدًا، ويخاطبك بصوتٍ يشبهك، لكن عيناه لا تحملان شيئًا من الحياة».

«الغيلان لا تقتل، القتل رحمة، الغيلان تُبقي الجسد وتنزع صاحبه، ليصبح جسدًا قائمًا وروحًا غائبة».

ابتلع (أدهم) ريقه بصعوبة، ونظر إلى الصفحة التالية..

لكن الضوء في الغرفة خفت للحظة، والهواء من حوله أصبح أثقل، أحسّ أنّ الكلمات التي قرأها لم تكن للقرّاء..

«أمّا عن أصولهم، فمن تحت طبقاتٍ من الصخر والرماد، من الكهوف المنسيّة، ومن بطون الأرض، بدأت عيونٌ غير مرئيّة تفتح جفونها. كانت هناك كائنات قد نُسيت، نُفيت، نُبذت، لم تكن جنًّا، ولم تكن بشرًا. تلك هي الغيلان».

«خرجوا أوّل مرة لا ليُحاربوا.. بل ليتقمّصوا، اتخذوا ملامح من ماتوا، ساروا بين الناس دون أن يُكشفوا، كانوا يتغذّون على الألم، ولا يظهرون إلا في البيوت التي غادرها الأمان».

«الغيلان السود.. لا تُشبه بعضها، ولا تثق ببعضها، ولا تعرف الرحمة. من يُمسّه أحدهم، تتسرّب روحه ببطءٍ حتى تصير هشّة، ضعيفة، قابلة لأن يُسكنها آخر».

«قيل إن أولى ضحاياهم كانت امرأةً فقدت زوجها، فظهر لها على عتبة الدار، بوجهه، وصوته، ورائحته.. لكنها حين احتضنته، لم تعد تتكلّم».

قلّب (أدهم) الصفحة التالية، وإذا بعنوانٍ عريض يتصدّرها، بوابة إلى فصلٍ منسيّ في كتاب الخليقة:

«بعد رحيل الملك، وغياب الخاتم، هُزّت الأرض، وتسرّب أوّلهم من الصدع الأوّل».

«كان اسمه.. زَخرائيل، اسمه لا يُنطق دون رجفة، ولا يُكتب دون أن ينطفئ شيءٌ من الضوء».

«زَخرائيل لم يكن من الجنّ وحدهم، بل من نسلٍ هجّنته الكراهية، خُلِق لا ليأكل.. بل لينسف الوجود. ذاكرة الكائنات

كانت طعامه؛ ملامحهم، أصواتهم، مشاعرهم.. كل ما يجعل الإنسان إنسانًا.. يُنتزع بهدوء، حتى لا يصرخ أحد».

«وما زاد من رعبه أنّه وُلِد مشوّهًا، جسمه قبيح لا يُطاق، وقد تبرّأ منه الشيطان نفسه، رافضًا أن يُعيره شرّه، فصار زَخَرائيل منبوذًا منذ اللحظة الأولى، مُخلّدًا في ظلامٍ لا يراه سوى من يستحقّه.. أو من يُستدرج إليه بالخطيئة».

تخشّبت يد (أدهم) على الصفحة، الاسم وحده أثقل من الحبر، يشبه الحجارة حين تُسقط على الماء الراكد، يحرّك في العقل دوائر لا تتوقف.

قلّب في الصفحة التالية.. فإذا بسردٍ عن ظهوره الأوّل:

«رآه أوّل من رآه على هيئة رجلٍ أعرج، يحمل في عينيه رمادًا، وفي يده مرآة، لا يرى فيها الناس أنفسهم.. بل يرون ما اختُطف منهم، فإن بكى أحدهم، ابتسم زَخَرائيل.. وابتلعه».

تراجع (أدهم) في جلسته، والغرفة تضيق، والجدران تهمس بأشياء لا تُقال..

«زَخَرائيل؟»

الاسم لا يُشبه شيئًا.. لكنّه مألوف، كأنّ روحًا قديمة تنبّهت فيه. قلّب (أدهم) الصفحة الثانية، فتطاير غبارٌ رقيق من بين الأوراق كأنّها تئنّ من طول الصمت. كانت الكلمات محفورة، لا مكتوبة، نُزفت على الصفحة بدلًا من أن تُسطّر:

«في البدء لم يكن نورٌ ولا ظلمة.. بل سكونٌ كامل، لا يعرف الحركة، لا يطيق الصدى، ومن بين شقوق هذا السكون.. تنفّس زَخَرائيل. لم يولد من رحم، ولا خرج من فكر، بل تشكّل

من كراهيةٍ دفينة، تجمّعت عبر العصور، حتى خلقت وعيًا لا يُشبه الوعي.. بل يُنافيه. هو ليس ظلًا.. الظلّ ابن الضوء، وهو لا ينتمي للعتمة.. لأن العتمة صمت، أمّا هو، فصرخة. زَخَرائيل لم يكن يبحث عن تابعين، بل عن أشباه.. أرواحٌ ممزّقة، عقولٌ شاردة، أجسادٌ سئمت ذاتها، ناداهم دون صوت، فلبّوا النداء دون وعي.

ومنهم خُلِقت العشيرة: الغيلان السود».

«يتخذون ملامح من يفقدون أنفسهم، ويتغذّون على الكُره المُوجّه للذات، لا يقتلون ضحاياهم.. بل يحلّون مكانهم. كوّن عشيرته في عوالم لا تُقاس بالمكان، ولا تُحصى بالزمن. هناك، حيث تُنسى الأسماء وتُخلَق الصيحات».

«زَخَرائيل.. ليس قائدهم، بل مرآتهم، هو أوّلهم، وآخِر من يُنسى».

لم تُختَم الصفحة بكلمات.. بل برسمٍ باهت لوجهٍ بلا ملامح، تنبعث منه خطوط سوداء تتفرّع كجذور، كل واحدة تنتهي بكلمة واحدة:

قلّب (أدهم) الصفحة التالية، وإذا بالحبر يثقل كأنّه دمٌ أسود يسيل من الكلمات، لا يُكتب بل يُسكَب سكبًا. وفي الهامش الأعلى، بخطٍّ مائل كالنصل، ارتسمت الجملة:

«زَخَرائيل المشوّه.. ابنُ عزازيل».

ثم انسابت السطور كأنّها لعنات، تقول:

«الغيلان الأوائل.. ليسوا كالجنّ الذين ذكرتهم الكتب، لا دخانٌ يتشكّل، ولا أطيافٌ هائمة؛ بل مسوخٌ لحمية، خليطٌ

بين هيئة الإنسان وما لا ينبغي أن يُرى. أذرعهم أطولُ ممّا تسمح به الخِلقة، وأطرافهم صُنعت للزحف لا للمشي. وجوههم خاوية من الملامح.. إلا عينًا واحدة في وسط الجبهة، عينًا أسكنها الليلُ نفسه؛ لا جفن لها، ولا دمعة، بل اتّساعٌ أبديّ يحدّق ولا يطرف».

«جلودهم رماديّة، خشنة كأكفان الموتى، تفوح منهم رائحة لا تُوصَف.. ليست نتنَ فسادٍ طبيعي، بل عفونةٌ كأنّها تعفّن ما فُقِد منهم، يلتصق بكيانهم إلى الأبد. بعضهم يمشي على أربع، وبعضهم يزحف بلا أطراف، وآخرون يعلّقون أنفسهم في زوايا البيوت.. كعناكب جاثمة، لكن بلا خيوط».

«لا يتكلّمون.. لكنك تسمعهم، أصواتهم تأتيك في عقلك.. لا في أذنك. جملةٌ واحدة يُكرّرونها دومًا، في كل حضرة، في كل اقتراب:

أنت لن ترَنا.. لكننا نراك».

في أعلى الورقة التالية، كُتب العنوان بخطٍّ أكبر من المعتاد، بلونٍ أسود مائل إلى الأخضر:

«مرسوم زَخرائيل الأوّل».

ثم جاء النصّ، مشبّعًا بلغةٍ غريبة، ترجمها المُدوّن أسفلها:

«أقسم زَخرائيل على أتباعه، أن لا يُقيموا بين القوم، بل يسكنوا الوديان المنسيّة، والكهوف التي لفظها الزمان، يُعشّشوا في البيوت التي انقطع عنها النّفَس، وفي الأماكن التي مات فيها الدعاء».

ثم تابع:

«اختار لهم أطراف الخرائب، وسقوف الحمّامات، وما بين بلاطات الأرض، وفوق مواقد لم تُشعل، اختار لهم الهواء، ذلك الذي يدور في الزوايا دون أن يلاحظه أحد».

قلّب (أدهم) الصفحة ببطء، وصوت الورق يُحدث خشخشة تشبه أنينًا خافتًا. شعر أنّ الكتاب نفسه يتنفّس من الحروف، يتألّم بما يخفي. الصفحة التالية بدت أقدم، يكسوها اصفرار.

في أعلاها كُتبت الجملة الأولى:

«طقس التأسيس: يوم ارتعشت الأرض تحت أنفاس زَخرائيل».

ثم تبعتها كلمات محفورة بلغةٍ تحمل وحشيّةً مقنّعة بالحكمة:

«في الليلة التي غرب فيها القمر ثلاثة أيّام، ونطق فيها الهواء باسم سيّده، أمر زَخرائيل أتباعه أن يتجمّعوا عند فُوّهة الكهف الأوّل، حيث لا يصل نور، ولا يعود الصوت».

«وقف على صخرةٍ سوداء، جسده محاطٌ بظلالٍ لا تتبع قوانين الضوء، وعيناه تشعّان بلونٍ لا اسم له.

ثم قال:

(لتُمحى آثاركم من الرمل، وتبقى أصواتكم في العظام.. من الليلة، أنتم عشيرتي، أنتم الغيلان.)»

«أمرهم أن يُحضروا من كل وادٍ حجارةً طُليت بالدم، ومن كل بيتٍ مهجور، عظامًا لُفت بخُصل شعر، ثم وضعهم حوله في دائرة، وبدأ الترديد بلغةٍ لا يتحمّلها الهواء».

«ومع كل ترديدة، تغيّر شكلهم، تقوّست ظهورهم، تآكلت

ملامحهم، حتى لم يبقَ منهم إلا المسوخ، مُفرغي الوجوه، مشقوقي الأفواه، لا يُشبهون الإنس، ولا يتمّهم الجنّ».

«ثم بسط كفّه، وقال:

(من لم يسمعني، فليُمحَ من الوجود، ومن عصاني، فليُختزل في صدى لا يسمعه أحد..)».

«انشقّت الأرض تحتهم، وابتلعت نور الليلة كلّها، وأولد الطقس الأوّل لعشيرة الغيلان السود».

على الهامش، وُضعت ملحوظة بخطٍّ مختلف:

«ويُقال إنّ الكهف الأوّل ما زال قائمًا، من وجده.. لا يُكمل حكايته».

تكوّم (أدهم) في ركن الغرفة، والكتاب ممدود أمامه ككائنٍ يزحف ببطء داخل روحه. لم تكن الصفحات أوراقًا.. بل شظايا من زمنٍ غامض، كأنّ الحبر كُتب بدمٍ منسي، أو بلعنةٍ نسجها الهواء نفسه في كهوف لا تعرف الشمس طريقًا إليها.

عينا (أدهم) لم تعودا تقرآن، بل تُبتلعان في كل سطر، كأنّ الكلمات تهمس إليه بأصوات لا يسمعها سواه. نَفَسه ثقيل، وعقله يتمايل كزورقٍ صغير في محيطٍ من الظلال. كل سطر.. كل نقش.. يفتح أمامه بابًا لا يعرف إن كان خلفه معرفة أم هلاك.

ظهر رسم غريب على الصفحة التالية، دوائر تتشابك كأفعى تلتهم ذيلها، وفي مركزها اسم محفور بلغة لم يرها من قبل، لكن روحه.. تعرفه: «زُخَرائيل».

انتفض قلبه، وارتجّ جسده. شيء ما في الصفحة لا يتحرّك،

لكنّه ينبض.. كأنّها ترمقه. مدّ يده ليقلّب الصفحة.. ثم توقّف. رعشة خفيفة بدأت من كتفه، تسلّلت إلى أصابعه، وكأنّ الكتاب يرفض أن يُمسّ أكثر.

في صدره، شيء أشبه بصرخةٍ مكتومة، لا تصدر من فمه، بل من روحه. أغلق الكتاب فجأة، دفعةً واحدة. الصوت الذي صدر كان مكتومًا.. لكنّه دوّى في أعماقه كجملةٍ لم تُنطق بعد:

«لقد بدأت، شئت أم أبيت».

حدّق في الغلاف، والعنوان المحفور كجرحٍ قديم: «الغيلان السود». ثم نهض، دون أن يشعر إن كان يسير على قدميه.. أم على ظلٍّ امتدّ من داخله. وضع الكتاب في حقيبةٍ جلديّة صغيرة، أحكم إغلاقها.

ترجّل (أدهم) عن مقعده كما لو جسده يُسحب من بئرٍ عميق، بئر امتلأ بأصواتٍ لا تُسمع، وخيالاتٍ لا تُرى. غادر الغرفة بخطى تتأرجح بين تعب الفكر وثقل المعرفة. عيناه لا تزالان معلّقتين بظلّ الغيلان، لكن روحه تبحث عن منفذٍ يُضيء هذا الظلام الداخلي، ولو بوهمٍ مؤقّت.

سار عبر الردهة الخافتة، حتى بلغ باب المكتب، غرفته القديمة، التي شهدت أكثر من ولادةٍ لفكرة، وأكثر من قبرٍ لحقيقة. دفع الباب بيده، فانفتح على سكونٍ مألوف. رائحة الورق المحترق، ووهج الضوء الأبيض المنبعث من المصباح المكتبي. كلّما دخل هذه الغرفة شعر أنّ الزمن يتوقّف، لا يشيخ.

جلس على الكرسي الجلدي، ويده امتدّت تلقائيًا نحو الحاسوب، كما اعتادت لسنوات، لكن هذه المرّة كانت يده أكثر

ترددًا، كأنها تسأل قبل أن تلمس. ضغط على زرّ التشغيل.. فأضاءت الشاشة تدريجيًا، كشمسٍ كئيبة تشرق في كوكبٍ خالٍ من الحياة.

ظهر الشعار «العين الثالثة»، اسمه.. صنيعة يديه، ومرآة هوسه. ذلك الموقع الذي كتب به عن كل ما لا يُفسّر، وراح يقتفي أثر الأشباح، والجنّ، والقرى الملعونة، والأبواب المغلقة في ذاكرة الناس. هو سبب شهرته، وصوته الذي وصل إلى آلافٍ يبحثون عن المعنى في العتمة.

لكن الآن، وهو ينظر إليه، لم يشعر بفخر، بل بشيءٍ يشبه الندم، كأنّ الحكايات التي بثّها للعالم، تجمّعت كلّها على هيئة وحشٍ يعيد التحديق إليه.

لم يكن يفتح موقعه.. بل يفتح بوابةً على ذاته.

الفصل السابع

ظلّ أمام شاشة جهازه، والضوء يتراقص على وجهه المتعب، يسخر من هدوئه المصطنع. الغرفة حوله غارقة في سكونٍ موحش، لا يقطعه سوى أزيز الكهرباء الخافت. يتصفّح موقع «العين الثالثة»، منصّته التي جعلته نجمًا في عالم الظواهر الغامضة، وغذّت فضوله الذي لم يخفت يومًا. الرسائل تتقاطر أمامه، مئات من الأصوات المذعورة تطلب الفهم، النجاة، أو مجرّد الإصغاء. قرأ بعينٍ متعبة، وقلبٍ اعتاد الغرابة حتى كادت تفقد دهشتها.

لكن رسالة واحدة استوقفته، ليست أكثرهم رعبًا، ولا أكثرهم زخرفة.. مجرّد عنوان وحيد، مختصر، كصفعة:

«ساعدني».

المرسل: (ياسين) الحرازي.

فتح الرسالة، شيءٌ في جسده يتهيّأ لنبأ لن يسرّه. وقرأ:

«أستاذ (أدهم)، أنا من وادي الحرازية.. كل شيء في قريتنا انهار، الأرض ترفض أن تنبت، الناس تختفي، والليل لم يعد آمنًا. يقولون إنها الغيلان.. لكني لا أظن، الأمر أعمق، أعتق، وأخطر. إن لم تأتِ، سينتهي كل شيء. وأنا.. لا أستطيع الصمت أكثر من ذلك. إذا قرأت هذه الرسالة، تواصل معنا».

ظلّ يُحدق في الشاشة، والرسالة تطفو أمامه كطُعمٍ أُلقي في ماءٍ راكد. لم يحرّك ساكنًا، فقط عيناه تتنقّلان بين الكلمات، وكأنّها تُعيد تشكيل نفسها، كأنّها تُناديه بصوتٍ خفيّ، لا يسمعه سواه.

«الغيلان»..

نفس الكلمة التي كانت تملأ صفحات الكتاب الذي قرأه للتو. نفس الاسم، نفس الرعب، كأنّهما خرجا من مصدر واحد، من فمٍ قديم نفث الظلال في هذا العالم، ثم صمت إلى حين.

«هل يُعقل؟»

فكّر، وعيناه تنتقلان من العنوان إلى كُتب الغبار بجواره.

- هل ما قرأته منذ لحظات.. مجرّد صدفة؟

أم أنّ الكلمات خرجت من الكتاب لتتجسّد على الشاشة، تناديه باسمٍ جديد، ومكانٍ لا يعرفه؟

وادي الحرازية؟!

لم يسمع عنه من قبل، لكن الاسم نفسه بدا مألوفًا بطريقة لا يستطيع فهمها. شيئًا في صدره يعرفه، حتى لو لم يسبق له رؤيته.

غمره شعورٌ غير مريح.. أدرك أن الصفحات التي تصف عشائر الغيلان، وطقوسهم، ومواطنهم القديمة، لم تُكتب عبثًا، بل وُضعت هناك في انتظاره، ليقرأ.. ثم يتلقّى الدعوة.

أيعقل أن يكون هذا الكتاب.. مفتاحًا؟

وهذه الرسالة.. الباب؟

ارتفع صوته الداخلي، منخفضًا ومتشظّيًا، عقله يحاول الهروب من فكرة بدت خطيرة:

- هل تمت مراقبتي؟ هل أحدهم يعرف أنني وجدت الكتاب؟

تكاثرت التساؤلات داخل عقله، الصدفة أصبحت هشّة، والزمن كما لو أنّه يدور في دائرة مغلقة، تبدأ من الحبر وتنتهي بالدم.

لم يردّ على الرسالة، لم يقرّر بعد، لكنه علم أن الأمر أكبر من مجرّد فضولٍ صحفي. ثمّة شيء ينتظر أن يُكشف، وثمّة آخر.. لا يريد له أن يقترب.

ظلّ (أدهم) يحدّق في الشاشة، والرسالة لا تزال حيّة في ذاكرته، تُنبت ألف سؤال في صدره.

رفع يده إلى لوحة المفاتيح، كتب ببطء، كل حرف يُقصّ من قطعة من روحه:

- مساء الخير.. معك أدهم شكري. وصلتني رسالتك الآن. هل يمكنك أن تخبرني بما يحدث بالتفصيل؟

لم تكد تمرّ دقائق، حتى انبثق الردّ، وكأنّ الآخر كان في حالة ترقّبٍ يائس:

- أستاذ (أدهم)... كنتُ قد يئست من أن تصل رسالتي إليك، لكنك قرأتها! قرأتها أخيرًا! قريتنا.. وادي الحرازية، أصبحت تحت وطأة شيء لا أفهمه.. شيء يسمّيه شيوخنا (الغيلان السود).

توقّف (أدهم) لحظة، وأعاد قراءة الاسم..

- الغيلان السود؟! من هم؟ وماذا تعني بهذه التسمية؟

جاء الردّ سريعًا، ومذعورًا. لم تمضِ دقائق طويلة حتى ارتجفت الشاشة بإشعارٍ جديد. رسالةٌ طويلة هذه المرّة، كُتبت بعجلة، كما لو أنّ كاتبها يخشى أن ينقطع نفسه قبل أن يُتمّها.

فتحها (أدهم)، فاندفع الكلام كالسيل أمامه:

- أستاذ (أدهم).. لن أخفي عنك شيئًا. ما يجري عندنا ليس وهمًا ولا أضغاث أحلام. الخراب بدأ منذ عشرات السنين تقريبًا، يوم سقط مُدثِّر الغريب قتيلًا عند أطراف المقابر. كانوا يقولون إنه يمارس طقوسًا لا يعرفها أحد، وأنه يملك كتبًا ما كان ينبغي أن تُفتح. بعد موته تغيّر كل شيء، الأرض جفّت فجأة، المواشي نفقت بلا مرض، والبيوت صار يزورها صدى خطواتٍ ليليّة لا يجرؤ أحد على تعقّبها.

توقّف (أدهم) لحظة، ثم أكمل القراءة:

- ذهبنا إلى المركز القريب نستغيث. ضحكوا في وجوهنا، قالوا: اتركوها، اتركوا القرية لمن فيها. كأنهم يُسلّموننا إلى مصيرٍ مجهول. لم يعد أمامي إلا أن أكتب إليك، أنت آخر من يمكن أن يفهم ما نعيشه. أستاذ (أدهم)، إن لم تأتِ.. فلن يبقى منّا أحد.

توقّف (أدهم)، وساد الصمت. شيءٌ في داخله أيقن أنّ هذه الرسالة ليست كبقية الاستغاثات.. بل بوابة تُدخله إلى قلب الظلام.

أسند ظهره إلى مقعده، وعيناه لا تفارقان الكلمات الأخيرة التي سُمّرت في ذهنه. شعر للحظة أنّ الغرفة ضاقت، وأنّ الظلام حوله اتّخذ هيئة جدارٍ يقترب شيئًا فشيئًا.

مدّ يده المرتجفة إلى الطاولة، وأغلق شاشة الجهاز، لكن الحروف بقيت تحفر في داخله:

«إن لم تأتِ.. فلن يبقى منّا أحد».

لم يكن هذا مجرّد نداء استغاثة، كان أقرب إلى حكمٍ يُلقى في وجهه، يجرّه إلى مواجهة لم يخترها. ورغم ذلك، وجد قلبه يُصغي، كما لو أنّ ما في الرسالة صدى غامض يخصّه وحده.

في ذهنه، عنوان الكتاب: «الغيلان السود».

لم يستطع منع نفسه من التساؤل:

أهي صدفة أن يقرأ عنهم، ثم يرد ذكرهم في رسالةٍ غريبة، في ذات الليلة؟

أم أنّ الخيط خُطّ بعناية ليقوده إلى طريقٍ لا عودة منه؟

لم يطق (أدهم) صبرًا طويلًا. عاد وفتح الحاسوب. شيءٌ لا يعرفه يسوقه سوقًا لا مهرب منه. أعاد فتح الرسالة، ثم كتب إلى (ياسين) يطلب رقم هاتفه.

جاءه الردّ بعد لحظات:

- لا هاتف في بيتنا يا أستاذ (أدهم)، لكن جارنا ما يزال يملك خطًّا أرضيًا، سأستعيره. اتصل بعد عشر دقائق، وستجدني في الانتظار هناك.

دوّن الرقم في ورقةٍ إلى جواره، وأخذ يرقب عقارب الساعة وهي تزحف ببطءٍ يثير أعصابه. وحين انقضت المهلة، رفع السماعة واتصل.

لم يطل الرنين، وإذا بصوت شابٍّ يجيبه. كان الصوت مضطربًا، لكن الاضطراب لم يكن ارتعاشة خوف، بل ارتعاشة رهبة.. رهبة الحديث مع رجلٍ كان بالنسبة له أكثر من كاتب، بل نافذةً إلى عالمٍ ظلّ معتمًا على غيره.

اندفع (ياسين) بالكلام، يتلعثم بين الحماسة والانفعال. أثنى على مقالاته، وقال إنها كانت عزاءه في ليالٍ طويلة من الوحدة والقلق. اعترف أنه كان مولعًا بالقراءة منذ صغره، وأنه التهم كتابيه كما يُلتهم الخبز الجائع، حتى حفظ بعض عباراتهما.

ثم أضاف بصوتٍ يقترب من الرجاء:

- حين وقعت عيناي على بريدك الإلكتروني على غلاف الكتاب، لم أجد مفرًا.. شعرت أنّي وجدت الرجل الوحيد القادر على الإصغاء لما نعيشه.

تركه يسكب إعجابه، لكن داخله لم يكن يستجيب إلا بشيءٍ من الحذر. ظلّ صامتًا لحظة، ثم قال بنبرةٍ متماسكة لا تخلو من حدّة:

- (ياسين).. دع المدائح جانبًا. أخبرني، ما الذي يجري في قريتكم؟ ولماذا أنا تحديدًا؟

صمت (ياسين) لحظة عند سؤال (أدهم)، وكأنّ الكلمات عالقة في صدره تنتظر أن تنفجر. لكن (أدهم)، في تلك الثواني، لم يكن مشغولًا بما سيُقال بقدر ما كان مشغولًا بما يشعره هو نفسه.

كان في داخله صراعٌ غريب، بين غرورٍ يوقظه إعجاب الفتى بكتاباته، وبين قلقٍ حادّ ينبّهه أن ما يُروى ليس مجرّد خيال قارئٍ مهووس.

عيناه كانتا مثبتتين على الورقة التي كتب فيها الرقم، صارت جسرًا بين عالمه المألوف وعالمٍ آخر يوشك أن ينفتح.

لم يسمح لنفسه أن يبتلع طُعم الثناء كاملًا، فالتجارب علّمته أن المديح ستارٌ يخفي وراءه عادةً نداء استغاثة. لذا شدّد صوته وأعاد:

- (ياسين).. أجبني. ماذا يحدث عندكم؟ ولماذا اخترتني أنا؟

هنا فقط، جاءه الردّ من الطرف الآخر، بصوتٍ خافت، لكنه مشبع برعشة خوفٍ حقيقي:

- لأنك الوحيد الذي سيُصدّق.. والوحيد الذي قد يجرؤ على المجيء.

سكت (أدهم) لحظة، يحاول أن يُمسك بتلابيب الكلمات قبل أن تتفلّت منه، لكن صوت (ياسين) عاد ينساب في الأثير، كأنما يفتح له بابًا على عالمٍ آخر:

- منذ سنين يا أستاذ (أدهم).. لم تعد قريتنا كما كانت. الأرض تلفظ بذورها، كأنها تضيق بنا. المواشي تموت واحدًا تلو الآخر، والماء صار مالحًا مُرًّا لا يُشرب. أمّا الليل.. آه، الليل صار لعنة. لم يعد ساترًا للسكينة، بل ستارًا لأصواتٍ غريبة، همهمات، صرخات بعيدة، وخُطى لا نجرؤ أن نتبعها.

ثم بدأ الناس يختفون. رجل خرج في فجرٍ ليحلب بقرته.. فلم يعد. امرأة ذهبت تسقي الزرع.. تلاشت كأنّ الأرض ابتلعتها.

أكمل (ياسين) بصوتٍ مضطرب:

- يقولون إنها الغيلان السود.. هكذا يسمّيها الشيوخ. يقولون إنهم مسوخٌ لا يرحمون، أُطلقت علينا لعنةً من أزمان بعيدة.

أنا لا أعلم ما هم، لكنني أعلم شيئًا واحدًا.. نحن نموت ببطء. ولم يبقَ لنا أحد نلجأ إليه.

أغمض (أدهم) عينيه لحظة، يحاول أن يصدّق أنه يسمع رواية حيّة لا سطورًا من كتاب «الغيلان السود» الذي أغلقه قبل قليل. أخذ (أدهم) نفسًا عميقًا، وأرخى نبرة صوته ليتجاوز حماسة (ياسين) وانفعاله، ثم قال بثباتٍ محسوب:

– «اهدأ يا (ياسين)، أريد أن أفهم بدقّة. حين تقول (غيلان سود)، هل تراهم بعينك؟ أم مجرّد حكايات يتناقلها الناس؟»

تردّد (ياسين)، وكأن السؤال أثقل عليه، ثم أجاب بارتباك:

– «لم أرهم بوضوح.. لكنني سمعتهم، ورأيت آثارهم. رجال أقوياء في قريتنا تحوّلوا إلى أشباح مذعورة، وأقسم بعضهم أن عيونًا تتوهّج في العتمة، تترصّدهم من بين الأشجار. أمّا أنا.. فكل ليلة أسمع الطرق على باب بيتي، طرقًا لا يجرؤ أحد من أهل القرية على فعله في تلك الساعة».

صمت (أدهم) لبرهة، ثم أضاف بصوتٍ أشبه بالاختبار:

– «ولماذا أنا؟ ما الذي جعلك تختار أن تراسلني من بين كل البشر؟»

جاءه الردّ على الفور، صادقًا إلى حدّ الإيلام:

– «لأنك الوحيد الذي لا يهرب من المجهول.. أنت الذي جعلتني أؤمن أن وراء كل ظلام حكاية. إن لم تأتِ أنت يا أستاذ (أدهم).. فلن يأتي أحد».

ارتجف شيء خفي داخل (أدهم)، بين خوفٍ قديم ورغبة جامحة في التورّط. بدا له وكأن القدر قد رمى أمامه خيطًا لا

سبيل إلا أن يتبعه.

قال (أدهم) بحدّة ممزوجة بالاستفهام:

- «لكن يا (ياسين).. لقد كتبتَ إليّ رسالة، ورددتُ عليك عبر البريد، ثم طلبتَ أن أهاتفك من هاتف جارك. لِمَ كل هذا الالتفاف؟ لماذا لم تكلّمني مباشرة من منزلك؟»

ساد الصمت لحظة، قبل أن يأتيه صوت الشاب مرتجفًا، ولكن مفعمًا باليقين:

- «لأن بيتي مُراقَب يا أستاذ (أدهم).. الغيلان تترصّدنا. لو التقطوا همسًا أو علموا أنني أستعين بأحدٍ من خارج الوادي، لأفسدوا كل شيء. بيت الشيخ (محفوظ) وحده مأمن لنا، هو أقدم أهل القرية وأشدّهم هيبة، ولا تقترب تلك الكائنات من داره. لذلك طلبتُ منك أن تتصل بي هناك».

أمال (أدهم) رأسه، كأنما يزن كلمات الشاب، ثم سأل بصوتٍ أبطأ وأثقل:

- «حسنًا.. كرّر لي الاسم بدقّة. أي وادٍ تسكنونه؟»

جاءه الردّ واضحًا:

- «وادي الحرازية، يا أستاذ (أدهم).. »

حينها طلب (أدهم) أن يُكلِّم الشيخ (محفوظ). ساد صمتٌ قصير على الخط، ثم جاءه صوت حركةٍ بعيدة، أعقبها خشخشة السماعة، تردّد صدى أنفاسٍ منهكة، قبل أن يخرج صوتٌ أجشّ، متقطع بالسعال، يشي بثقل السنين والعلل:

- «أنا.. (محفوظ)».

قدّم نفسه بصرامةٍ مقتضبة، ثم قال (أدهم):

– «بلغني ما رواه (ياسين).. لكنّي أريد منك أنت أن تُفصِّل. ما الذي يحدث حقًّا في واديكم؟»

ساد صمتٌ قصير، تلاه صوت الكهل، كأنّه يصارع صدره لانتزاع الكلمات:

– «ما قاله الغلام هو عين الحقيقة.. الغيلان السود يا أستاذ (أدهم)، سكنونا، أحاطوا بنا. البلاء يحاصر القرية من كل ناحية، وكل يوم يزداد وطأةً. نحن نعيش على حافة الهلاك».

شعر (أدهم) بأن الكلام يُقال على استحياء، وكأنّ الشيخ يُداري عنه شيئًا، فشدّد نبرته قائلًا:

– «هذا لا يكفيني.. إن كنتُ سأغامر بالمجيء، فلا بدّ أن أعرف إلى أين أتّجه. صِف لي الوادي».

تنحنح الشيخ طويلًا، وسمع صوته يختنق بين الكحّة والأنين، ثم انخفضت نبرته حتى بدت أقرب إلى همسٍ. وصف الطريق لـ(أدهم)، ثم انقطع الصوت.

أمسك (أدهم) بالسماعة لحظةً، ثم ألقاها ببطءٍ على مقعدها، وبقي للحظةٍ صامتًا، ينصت لدقّات قلبه أكثر مما ينصت لما حوله. العنوان الذي دوّنه ما زال يلمع أمامه على الورقة. شعر أن كل كلمة نطق بها الشيخ (محفوظ) لم تكن إجابة، بل بابًا آخر يُفضي إلى هاوية من الغموض.

مال إلى الوراء في مقعده، ومرّر كفّه على وجهه المتعب، ثم تنفّس بعمقٍ كمن يحاول إخماد العاصفة التي تضج في صدره. حدّث نفسه:

«لن أحسم شيئًا الآن.. الليل لا يصلح لاتخاذ القرارات. غدًا، عند الصباح، سأتوجّه إلى المكتب.. أضع الخيوط بين يديّ، وأرسم أوّل الطريق».

أغلق الحاسوب، فخفت بريق الشاشة كمن أُطفئت عين تراقبه، وغرقت الغرفة في نصف ظلام يثقل الأجواء. وقف متثاقلًا، واتجه إلى غرفته، تمدّد على سريره، ورغم أن النوم كان أبعد ما يكون عن جفونه، أجبر عينيه على الانطباق. كان يعرف أنّ الغد سيحمل إليه بداية الرحلة، وأن عليه أن يحشد ما بقي من طاقته، قبل أن يخطو خطوةً قد تُغيّر مسار حياته إلى الأبد.

الفصل الثامن

أطلّ الصبح على المدينة متباطئًا، يسحب خلفه ما تبقّى من ليلٍ لم يرحل تمامًا. في غرفته، استيقظ (أدهم) من نومٍ متقطّع، نومٍ أثقله القلق أكثر مما أراحه؛ عيناه غائرتان، جبهته مشدودة بالأسئلة، غير أن بريقًا جديدًا أخذ يلمع في العمق؛ بريق الباحث الذي يقترب من حافة اكتشافٍ قد يقلب موازين اليقين. في المطبخ، غلَت القهوة على النار، وارتفع بخارها يملأ المكان برائحة مُرّة، أيقظت شيئًا في ذاكرته أكثر مما أيقظت جسده. صبّها في فنجان أسود صغير، جلس إلى مكتبه، أشعل سيجارة، وترك عينيه تتبعان خيوط الدخان وهي تتصاعد متكسّرة، ثم تختفي في فضاء الغرفة كما تختفي أفكاره قبل أن يلتقطها. ارتشف رشفة أولى؛ لم توقظه المرارة، بل زادت شعوره بثقلٍ يسكن حلقه وصدره معًا. أشعل سيجارة ثانية قبل أن يطفئ الأولى، كأن يده سبقت وعيه، في حركةٍ تشي بقلقٍ متأصّل لا يعرف السكون.

نهض بعدها بخطوات محسوبة، مدّ يده إلى معطفه الثقيل المعلّق بعناية، ارتداه بإحكام، وأخذ حقيبته الجلدية التي التصقت بكفّه. فتح الباب الداخلي، فانسكب ضوء الصبح الشاحب إلى الردهة. رنين خطواته فوق الرخام البارد بدا أوضح من أي صوت آخر، يذكّره بالثقل الذي يحمله. عند عتبة الباب الخارجي توقّف، رفع عينيه نحو السماء الرمادية الملبّدة، والتي تُنذر بيومٍ أثقل مما يحتمل. زفر نفسًا طويلًا، ثم دفع البوابة الحديدية. اندفع هواء الصباح البارد إلى وجهه؛ لم يكن نسيمًا منعشًا بل صفعة يقظة، إعلانًا أن اليوم

قد بدأ.. وأن لا عودة للخلف بعد الآن. في الممر المرصوف بالأحجار، انتظرته السيارة السوداء. اقترب بخطوات ثابتة، أخرج المفاتيح من جيبه، فتح الباب وجلس خلف المقود. أصابعه لامست الجلد البارد للحظة، ثم أدار المحرّك، فانطلق هديره العميق يمزّق سكون الفجر. بوجه جامد وعقل مثقل بالأسئلة، خرج من بوابة الفيلا متجهًا إلى مبنى الجريدة. توقّفت السيارة أمام المبنى القديم، فأطفأ المحرّك، التقط حقيبته، ونزل بخطوة حاسمة وهو يعدّل معطفه على كتفه. رفع عينيه إلى الواجهة العالية، دخل عبر الباب الرئيسي، وعبر الردهة الواسعة بخطوات سريعة لا تعترف بالتوقّف. لم يلتفت إلى التحايا العابرة، عيناه مستقرتان على المصعد. ضغط الزر وانتظر في صمتٍ قصير، ثم ارتفعت الأبواب المعدنية وابتلعته.

حين وصل إلى الطابق الرابع، تقدّم مباشرة نحو مكتبه. عند المدخل، كان (فريد) يجلس خلف مكتبه الصغير، ما إن لمحه حتى انتصب واقفًا وقال على عجل:

ـ صباح الخير يا أستاذ (أدهم).

لم يتوقّف، واكتفى بإيماءة مقتضبة وهو يفتح باب مكتبه ويدخل. ظلّ (فريد) واقفًا يتابعه بعينٍ مترقّبة، قبل أن يعود إلى مقعده. في الداخل، خلع معطفه وعلّقه على الحامل قرب الباب، ثم جلس خلف مكتبه العريض. ضغط على الجرس الموضوع أمامه، فدخل (فريد) بعد لحظات وهو يحمل دفتر الملاحظات. رفع نظره إليه، وصوته يخرج بصرامة قصيرة:

ـ (فريد).. أين (ليلى)؟

ابتسم (فريد) ابتسامة سريعة وقال:

ـ في مكتبها يا أستاذ، جاءت منذ الصباح الباكر وتعمل على بعض الملفات.

أسند ظهره قليلًا، مدّ يده فأنزل معطفه على مسند الكرسي، ثم رفع بصره نحوه قائلًا:

ـ (فريد).. استدعِ الآنسة (ليلى) إلى هنا، أريدها حالًا في هذا الاجتماع.

أومأ دون تردّد وخرج. أمّا هو، فأخرج سيجارة، أشعلها ببطء، وسحب منها نفسًا عميقًا، ثم ترك الدخان يتصاعد في الغرفة حتى بدا وكأنه يفرض إيقاع اللحظة. لم يطل الانتظار، إذ انفتح الباب بخفوت، ودخل (فريد) بخطوات سريعة عملية، وتبعته (ليلى) متأنّية، ملامحها محمّلة ببرودٍ متعمّد. جلست على الكرسي المقابل دون أن تنبس بكلمة، بينما بقي (فريد) واقفًا بجانبها ينتظر إشارة.

أطفأ السيجارة في الطفّاية المعدنية، شبك أصابعه فوق سطح المكتب، ثم نظر إليهما بتركيز قائلًا:

ـ لدينا أمر يستحق أن يُطرح الآن.

صوته كان ثابتًا، لكن خلفه ارتجاج خفي يكشف جسامة ما يحمل.

ـ بالأمس وصلتني رسالة من شاب يُدعى (ياسين)، من قرية نائية تُدعى الحرازية. لم يطلب مساعدة عابرة، بل أطلق استغاثة. يقول إن أرضهم توقّفت عن العطاء، وإن أهل القرية يختفون واحدًا تلو الآخر، وإن شيئًا مظلمًا سماه الغيلان

يسكن لياليهم.

توقّف لحظة، ثم أشعل سيجارة جديدة، وأطلق دخانها ببطء، لتثقل الجو أكثر. التفت إليهما بنبرة عميقة:

ـ استمعا جيدًا.. ما بين أيدينا ليس حكاية عادية من شاب خائف. إن صحّت كلماته، فنحن أمام قضية قادرة على أن تهزّ الرأي العام بأسره.

مال بجسده قليلًا إلى الأمام، نبرته صارت أكثر حزمًا:

ـ الناس تبحث عمّا يوقظ خوفها، عن القصص التي تعيد إشعال خيالها بين الأسطورة والواقع. إن أحسنّا عرض ما يحدث في الحرازية، فلن يكون مجرّد مقال.. سيكون صاعقة، ضجّة تسبقنا إلى كل بيت.

ثم ضرب بيده بخفّة على سطح المكتب، صوتها ارتطم بالجوّ المحموم كجرس إعلان:

ـ هذه ليست فرصة عابرة، هذا التحقيق قد يكون المنعطف الذي يخرجكم من صفوف المغمورين إلى موقع تُصاغ فيه أسماؤكم مع كل حديث، ويصبح حضوركم في الصفوف الأولى أمرًا مفروغًا منه.

سكت فجأة، فاستقرّ الصمت في الغرفة كقرار نهائي، والهواء المثقل بدخان السجائر حمل ثِقل كلماته، حتى بدت اللحظة كنداءٍ حاسم لا يقبل الرجوع.

كان (فريد) أوّل من مزّق حجاب الصمت، عيناه تشتعلان ببريقٍ لا يهدأ، وصوته اندفع متسارعًا يحمل داخله قلقًا من أن يبتلعه السكون:

ـ صدقتَ يا أستاذ (أدهم).. هذا التحقيق، حين يُكشف للعلن، لن يكون مجرّد سبقٍ صحفي، بل صاعقة تهزّ الإعلام من جذوره!

مال بجسده إلى الأمام، يده ترتجف قليلًا فوق الطاولة، وكلماته تتلاحق كأنها تتدافع للخروج:

ـ أستاذ (أدهم).. هذه فرصتي أنا قبل أيّ أحد. إذا نشرنا هذا التحقيق، سأتجاوز صفّ المساعدين.. سيثبت اسمي، ستعرفني القنوات، وسيتردّد صوتي في كل صحيفة. لن أسمح أن تضيع مني، فهي لحظة واحدة.. ولن تتكرّر. وأعتقد من يهرب منها الليلة.. لن ينجو غدًا!

ساد المكتب صمت جديد، لكنّه كان مشبعًا بتوتّرٍ خفي. رفع عينيه نحو (فريد)، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة لم تكشف عمّا يخفيه عقله؛ مزيج من رضا مكتوم، وحسابات لا يراها أحد سواه. التفت بعدها نحو (ليلى)، منتظرًا كلمتها التي بدت كالسيف في وضوحها:

ـ نعم، الفرصة عظيمة، لكن الحماسة وحدها لا تكفي. كل خطوة محسوبة، وكل كلمة تُكتب ستُسجّل علينا. أيّ خطأ سيترك أثرًا لا يُمحى، والخطر هذه المرة لا يرحم. هذه أوّل مرة لواقعة خارج المدينة.

عادت أنظار الفريق إليه. رفع يده بثبات فوق سطح المكتب، صوته خرج بطيئًا، حادّ النبرة، يحمل ثِقل القرار:

ـ بعد يومين، نغادر إلى الوادي. ما ينتظرنا هناك يتجاوز حدود الصحافة، ويتجاوز حدود الفضول. ستكون رحلة اختبار.. لنا جميعًا. لا مجال للتردّد، ولا عذر للغفلة. حضّروا

أنفسكم.

تساقطت كلماته في أرجاء المكتب بوقعٍ ثقيل، لم يعلُ أي صوت بعدها، سوى تنفّسٍ بطيء متوتّر.. إعلان صامت بأن ما بعد هذه اللحظة لن يشبه ما قبلها.

رفع رأسه نحو (فريد)، صوته هادئ لكنه يحمل ثِقل القرار:

- «(فريد).. أريد بضع دقائق مع (ليلى) وحدنا».

لم يعترض، فقط تباطأ للحظة ثم غادر الغرفة بخطوات قصيرة، تاركًا وراءه صرير الباب وهو يُغلق، صوتًا حادًا لكنه كفى ليغمر المكان بسكونٍ جديد.

بقي واقفًا لحظة يتأمّل (ليلى)، قبل أن يجلس في المقعد المقابل لها. كانت ساكنة تمامًا، نظرتها ثابتة على سطح الطاولة، لا حركة ولا انفعال، الجوّ بينهما مشحون بما لم يُقل بعد.

تنفّس ببطء، حاول أن يضبط نبرته:

- «أعتذر عن البارحة، لم يكن صحيحًا أن أتركك وحدك. كان ذهني منشغلًا أكثر مما يجب.. ولم أستطع أن أتصرف كما ينبغي».

لم تُجب في الحال، اكتفت بأن رفعت عينيها نحوه، نظرة قصيرة أعادت فيها كل شيء إلى ميزانها الخاص. لم تكن باردة تمامًا، ولم تكن حنونة؛ كانت نظرة تزن كلماته أكثر مما تزن اعتذاره.

تردّد للحظة، ثم قال بصوت أخف:

- «ما أردت قوله.. أن الأمر لن يتكرّر. أتأسّف بشدّة».

حرّكت الكرسي قليلًا، وكأنها تقطع المسافة بين الصمت والكلام. ردّت بوضوح:

- «لا داعي للاعتذار، يا (أدهم). ما فات انتهى، لدينا ما يكفينا الآن. لنترك الأمس وراءنا، ولنلتفت لما ينتظرنا».

سادت لحظة قصيرة من الصمت بعدها، لكنها لم تكن ثقيلة كالأولى. جلس (أدهم) مستقيمًا، يكتفي بمتابعة ملامحها التي استعادت هدوءها، مدركًا أن الحوار انتهى عند هذا الحد. وقف (أدهم) للحظة، عيناه تلمعان بالتركيز، واستنشق نفسًا عميقًا كمن يستجمع كل قوة صامتة داخله، ثم قال بصوت هادئ لكنه حازم:

- أنتِ على حق، الأمس قد مضى، وما نملكه الآن هو اللحظة الحالية، وما تحمله من مسؤولية. لذلك.. أريدكِ أن تكوني جاهزة، بعد يومين سنغادر، وسنواجه ما ينتظرنا في الوادي، كل شيء يجب أن يكون محسوبًا بدقة، لا مجال للارتجال».

خرجت من المكتب، فأطبق الصمت على المكان من جديد، يخيّم على الجدران ويثقل الهواء. بقي وحيدًا، يحدّق في الفراغ لحظةً، ثم نهض بخطوات بطيئة محسوبة، وكأن الأرض نفسها تنتظر ما سيضعه عليها من ثِقل. توجّه إلى الخزانة، فتحها ببطء، وبدأ يسحب أدواته واحدة تلو الأخرى، كل أداة خرجت من مكانها بوعي كامل، كأنها قطعة من مشهد طويل ظلّ يكتمل في ذهنه منذ زمن. عاد إلى مكتبه، جلس بثبات، وبدأ يرصّ المعدّات أمامه: أوراق، أقلام، أجهزة، كلّها تصطف في هدوء صارم. عيناه تلمعان بتركيز لا ينقطع، ويداه

تتحرّكان بحذر وصرامة، كمن يعرف أن كل تفصيلة صغيرة قد تحدّد مصير الأيام القادمة.

فتح الحقيبة الجلدية، فوضع فيها ما اختاره بعناية. أوّل ما لفت نظره كان الكتاب القديم، أوراقه البالية تحمل أثر أزمنة غابرة. أمسكه لثوانٍ، نظرة عميقة انغرست في صفحاته، ثم أرجعه جانبًا بهدوء، وأكمل ما بدأه. الكاميرا الرقمية تبعها مباشرة، عدساتها صافية، وبطارياتها الاحتياطية جاهزة، ثم جهاز التسجيل الصوتي، جهّز أزراره ليكون مستعدًا لالتقاط كل همسة، كل نفس، كل صوت قد يخرج من عتمة لا يراها أحد. بعدها أخرج المصباح اليدوي، اختبره، فرسم ضوءه خطًا حادًا على المكتب قبل أن يخمده ويعيده إلى الحقيبة. تلاه جهاز الرصد والسماعات الحسّاسة، ثم جهاز الـ **GPS** الذي استعرض خرائطه بلمحة مركّزة.

الإسعافات الأوّلية أخذت مكانها، القفازات والأحذية المقاومة رتّبها بجانبها، طبقة حماية إضافية بينه وبين المجهول. وأخيرًا، وضع دفتر الملاحظات، أوراقه بيضاء تنتظر ما سيكتبه من حقائق، بجواره الأقلام والهاتف المحمول مشحونًا بالكامل، مع بطاريات احتياطية. حين أغلق الحقيبة أخيرًا، كان المشهد قد اكتمل: ترتيب صارم، صمت يثقل اللحظة، وشعور واضح بأن ما أمامه ليس مجرّد مهمة صحفية، بل عبور نحو منطقة لا عودة منها.

وقف ساكنًا للحظة، أنفاسه بطيئة، وعيناه تتنقّلان بين الحقيبة والكتاب القديم، في ملامحه مزيج من الترقّب والإصرار، إدراك عميق بأن يومين فقط يفصلانه عن الوادي،

عن العتمة التي تنتظره، عن لحظة قد تغيّر كل شيء. جلس أمام الحاسوب، وبدأت أصابعه تنقر على لوحة المفاتيح بإيقاع متسارع، إيقاع أقرب إلى نبض قلب يتهيّأ للمواجهة. على الشاشة، انفتحت الخرائط القديمة، صور باهتة لمناطق منسيّة، ووديان لا يطرقها البشر. الشاشة أضاءت وجهه بضوء بارد، راح يتنقّل بين الصور، يربط التفاصيل الصغيرة، انعطافات الطرق الضيّقة، جذوع الأشجار الكثيفة، الأحجار المبعثرة عند الممرّات. كل ملاحظة يسجّلها على دفتره كانت جزءًا من خطة، وكل دائرة يرسمها على الخريطة كانت سطرًا في قصة الغموض المقبلة.

انحنى على الطاولة، سجّل بخط متماسك كل ما رآه ضروريًا، علامات حمراء لمناطق خطرة، وخضراء لمسارات يمكن المرور منها. ذهنه يحاكي المشهد خطوة بخطوة، يسمع صدى خطوات لم تبدأ بعد، ويرى ظلالًا تسبق الوصول. غرفة المكتب امتلأت بدخان سيجارته الذي صعد ببطء، يتشابك مع الضوء الأبيض للشاشة في لوحة صامتة. صرامة ملامحه لم تتغيّر، والتركيز لم ينكسر. كل نقرة على الفأرة، كل خط على الورق، لم تكن مجرّد تحضيرات، بل أحجار شطرنج يضعها على رقعة القدر. الرهبة لم تضعفه، بل صارت وقوده؛ وكلما ازداد الليل عمقًا، ازداد يقينه أن المواجهة قريبة، وأن الوادي لن يبقى مجرّد خريطة على شاشة.

مدّ يده إلى الهاتف ببطء، يده لم ترتجف، لكن أنفاسه ثقلت للحظة قصيرة. الرقم لم يغب عن ذاكرته، ضغط الأزرار واحدًا تلو الآخر، حتى وصل صوته إلى الطرف الآخر.

حين ردّت، لم يتلعثم، بل قال بصوتٍ هادئ، جادّ، يحمل ثقل القرار:

- (نادية).. أريد أن أراك الليلة.. حتى لو كانت هذه المرّة هي الأخيرة، أو الطلب الأخير.

توقّف لحظة، ثم أضاف:

- لن أطيل، لكن عليّ أن ألقاك، مهما كان ما بيننا.

صمت طويلًا في الخط، حتى خُيّل أن الزمن توقّف عند تلك اللحظة. (أدهم) ظلّ ثابتًا، عيناه معلّقتان في الفراغ، قلبه يترقّب الكلمة التالية، ثم انبعث الصوت أخيرًا؛ خافتًا في بدايته، لكنه محمّل بثقل جرح قديم، صوت امرأة تتكلّم من حافة الصراع مع ذاتها:

- ظننتُ أنّك حسمت أمر طلاقنا..

لم يتنفّس إلا بعد أن أنهت عبارتها، صوته خرج متماسكًا، لكنه يخفي وراءه زلزلة داخلية:

- سأفعل ما تريدين.. لكن هناك سرّ ظللتُ أحمله وحدي.

توقّفت عند كلماته، كأنها تقرأ ما وراءها، ثم جاء ردّها بعد وقفة طويلة، نبرتها أكثر عمقًا، أقرب إلى قرار نهائي:

- سأراك الليلة. مهما كان بيننا، لن أمنع نفسي من هذا اللقاء.. أعلم أنّه الأخير.

في داخله تحرّك شيء كان مدفونًا، جرح لم يلتئم، لكن وجهه بقي صلبًا. شدّ على سماعة الهاتف بقوّة، وأجاب ببرودٍ محسوب، يحمل عزيمة أكثر مما يحمل عاطفة:

- الليلة.. لن يؤجّلها شيء.

ثم انقطع الخط فجأة، ترك وراءه هواءً مثقلاً بإحساس لا يخطئ: أن الليل المقبل لن يكون مجرّد ساعات تمضي، بل ليلة فاصلة، تُفتح فيها أبواب لم تُمسّ منذ زمن بعيد. ارتدى معطفه بهدوء، أغلق باب المكتب وراءه، وانطلق بخطواته نحو سيارته المركونة عند الرصيف. جلس خلف المقود، أداره، فامتلأ الجو بصوت المحرّك الواثق. مدّ يده إلى الهاتف، وضغط الرقم.

جاءه صوتها على الطرف الآخر، دافئًا وحيًا بالسؤال:

- أين سنلتقي الليلة؟

أجاب بلهجة حاسمة، تحمل نبرة اعتياد وشيئًا من الاطمئنان:

- في المطعم الذي نلتقي فيه دائمًا.

انتهت المكالمة، وبقي صوته يتردّد في داخله كقرارٍ بسيط لكنه ثابت، فيما السيارة اندفعت إلى الأمام، حاملةً معه ما ينتظره من لحظات لم تُكتب بعد. جلس في المطعم وحيدًا، يحدّق في الفراغ، عقارب الساعة بدت بطيئة على غير عادتها، كما لو أنّها تتعمّد إطالة الانتظار، لتثقل عليه اللحظة أكثر. كل نفس يتردّد في صدره كان أقرب إلى صراع داخلي، محاولة للتماسك أمام النهاية التي يعرفها مسبقًا.

مرّت نصف ساعة كاملة، ثم ظهرت. خطواتها كانت واثقة، لكن ملامحها مثقلة بما لا يُقال. جلست في المقعد المقابل، عيناها لا تهربان منه ولا تقتربان. لم تُطِل الكلمات، ولم تُظهر

أي محاولة للتجمّل، جلست لتسمع، فقط لتمنحه تلك المساحة الأخيرة التي تسبق الصمت الأبدي. أمّا هو، فكان يعلم أن اللحظة أثقل من أي كلام، وأن صوته مهما ارتفع لن يهزّ جدار القرار الذي اتخذته.

المكان من حولهما امتلأ بالحركة، أصوات ضحكات، وقع أطباق، نغمات موسيقى هادئة، لكن كل شيء بدا بعيدًا عن الطاولة التي جمعت بينهما هناك. الزمن توقّف، لا مطعم، لا ضجيج، لا أحد.. فقط رجل يواجه حطام قلبه، وامرأة جاءت لتسمع النهاية، ثم ترحل.

لم يكن (أدهم) يتحدّث إليها بقدر ما كان يواجه نفسه، كأن الكلمات خرجت من أعماق لم يمسّها أحد من قبل. صوته انخفض، لكنه كان يقطع سكون اللحظة كالسيف:

- كان لي أخ.. اسمه (يحيى). لم يكن مجرّد قريب، كان كل ما أستند إليه. ثم، في يومٍ واحد، تلاشى أثره، لا غياب ولا سفر.. اختفاء كامل. بعده بأيام، وجدتُ والدي معلّقًا في سقف البيت، والدمعة الأخيرة لم تجفّ في عينيه. وأمّي.. لم تحتمل. عقلها تحطّم إلى شظايا، وبقيت تائهة بين الجدران حتى لفظت روحها.

سكت لحظة، شدّت يداه على الطاولة، وعيناه غامرتان بصلابة لم تُخفِ ما تحته من جرحٍ قديم:

- الندبة التي ترينها في وجهي.. ليست إلا أثرًا من يد (يحيى) نفسه. لم تكن عراكًا عابرًا، كانت بداية انهيار كل شيء.

تنفّس بعمق، وكأن صدره يضيق بما يحمله:

- عرفتُ لاحقًا أنّه انجرف إلى جماعة مظلمة.. منحوه كتبًا لم أرَ مثلها من قبل. ابتعدتُ عنها سنين، لم أجرؤ أن ألمس شيئًا منها. لكنني عدت قبل أيام إلى البيت.. وعدت لأن الماضي لم يعد يقبل الصمت.

صوته أصبح متقطّعًا، لكنه ازداد ثِقلاً:

- وجدتُ بينهم كتابًا واحدًا، غريبًا، أشبه بباب مغلق.. لكن وجوده يثقل أنفاسي. عنوانه «الغيلان السود». منذ أن أحضرته، أشعر بـ(يحيى) في زوايا الليل، واقفًا، يراقب، لا يقول شيئًا، ولا يرحل.

ضحكة قصيرة خرجت منه، ممزوجة بالمرارة:

- يتحدّثون عنّي كرجل لا يعرف الخوف.. والحقيقة أنّني أسيره. أخاف من الماضي أكثر ممّا أخاف من أي مستقبل، وأخاف من وجهٍ لم يعد وجه أخي، ومن كتبٍ لم يكتبها بشر.

تطلّعت إليه (نادية)، نظرتها حادّة والدهشة تملأ ملامحها، صوتها مشوب بالتوتّر:

- ولماذا لم تقل هذا من قبل؟ ولماذا تفصح به الآن تحديدًا؟

أشعل السيجارة بيد ثابتة، وترك دخانها يتصاعد ببطء، ثم قال بصوت عميق:

- لا أعلم.. لكن ما إن وضعتُ يدي على الكتاب حتى وصلتني رسالة على منصّتي، من فتى يُدعى (ياسين)، يسكن قرية بعيدة في قلب وادٍ معزول. قصّته لم تُشبه أي قصة قرأتها من قبل.. وكان يتحدّث عن شيء يُسمّيه «الغيلان السود».

شهقت (نادية)، وارتجف صوتها وهي تقول:

- بالاسم نفسه.. نفس عنوان الكتاب الذي وجدته في البيت قبل يومين؟

أومأ (أدهم)، وعيناه تتسعان بالتصميم.

- نعم.. وعدث الفتى أن أصل إليه خلال يومين. صدّقيني، لا أجد تفسيرًا، لكن هناك قوة تدفعني للمضي. أشعر أنني على وشك أن أعثر على القطعة الناقصة.. أن ألتقي (يحيى). أنتِ تعلمين أنني لا أؤمن بالصدفة؛ ليس مصادفة أن أعثر في بيتنا القديم على كتاب يحمل العنوان ذاته الذي يصلني في رسالة من مجهول..

عينا (نادية) ارتجفتا بالقلق، بينما ازدادت ملامح (أدهم) صلابة، كأن قرار الرحلة قد تحوّل في تلك اللحظة من احتمال إلى قدرٍ محتوم. قالت بصوت متوتر، حادّ كالسؤال الذي لا يحتمل الانتظار:

- هه.. (يحيى) مرة أخرى؟ (أدهم).. أرجوك أخبرني، هل تأخذ المهدّئات؟

رفع عينيه إليها وهو يسحب نفسًا من سيجارته، وكأن الكلمات تثقل صدره أكثر من الدخان. ابتسم ابتسامة باهتة، وخرج صوته خافتًا، مترددًا بين الاعتراف والمرارة:

- (نادية)، لن أهرب مرة أخرى، ولن آخذ المهدّئات. طالما كنت أهرب.. أهرب من ماضٍ لم يتوقّف عن ملاحقتي. حاولت دفنه، لكن في كل مرة يعود ويفتح أبوابه من جديد. لا تسأليني لماذا اخترت أن أتكلّم معكِ الآن.. ربما لأنني لم أعد

أجد حولي مكانًا أضع فيه خوفي غير عندكِ.

أنهى كلماته بصوتٍ متردّد، يحمل في طيّاته ثِقَل ما أخفاه طويلًا:

- على أي حال.. أنا لم أطلب رؤيتكِ اليوم إلا لأفرغ ما أثقل صدري، لأقول ما لم أستطع قوله من قبل. بعد أن أعود من تلك القرية.. سأترك لكِ القرار الأخير، يا (نادية).

ساد بينهما سكون لم يكن عاديًا، بل صمت يضغط على اللحظة حتى كادت تنفجر. لم يحاول أن يضيف كلمة أخرى، فقط نظر إليها نظرة عميقة، ثم استدار وغادر، خطواته تحمل في طيّاتها تصميمًا يعرف أنه لا عودة بعده.

بقيت (نادية) في مكانها، عيناها تتبعانه، تتأرجح بين الدهشة والقلق، بين شيء يربطها به وشيء يدفعها للخوف مما ينتظره. لم ترفع صوتها لتناديه، ولم تتحرّك نحوه، فقط تركت نظراتها معلّقة على ظهره وهو يبتعد، وكأنها تعيش بين احتمال أن يكون هذا آخر وداع..

الفصل التاسع

مرّ يومان من الاستعداد المضني، يومان غاص فيهما بين الخرائط والدفاتر، يتنقّل ببصره بين شاشات الحاسوب وصفحات الأوراق، يربط الخيوط المتناثرة، ويعيد وزن الاحتمالات كما لو كان يختبر مصيرًا لا يقبل الخطأ. كل تفصيلة وُضعت بعناية، كل ملاحظة تحوّلت إلى خطوة في طريق مجهول. وفي صباح اليوم الثالث، وقف أمام نافذة الفيلا، والشارع الخالي ينام تحت ستار البرد. استنشق نفسًا عميقًا كما لو أنّه يبتلع أوّل نذرٍ من نذر المعركة القادمة. خلفه كانت حقيبته مرتّبة على المكتب، أجهزة لامعة كأنها جنود صامتة، والكتاب القديم يحتل مكانه المهيب، شاهدًا على سرّ لم يُفك بعد. ارتدى معطفه، تفحّص تجهيزاته للمرة الأخيرة بعين لا تعرف التردّد، ثم هبط إلى سيارته. دوّى صوت المحرّك في الصمت كجرس إعلان، إعلان بأن الطريق الذي ينتظره لن يكون كالطرق السابقة. ترك المدينة خلفه كصفحة طُويت، وفتح أمامه دربًا يقوده نحو وادٍ غامض، يختلط فيه الخطر بالأساطير، والليل بظلال لا تعرف الانقضاء.

حين وصل إلى مقرّ الجريدة، ارتفع ثِقل اللحظة أكثر. الطابق الرابع بدا كمسرح صغير، والفريق في انتظاره. (فريد) واقف بجانبه، عيناه تشتعلان بلمعة الحماسة، و(ليلى) جلست أمام الطاولة، ساكنة الظاهر، لكن عينيها كانتا تترصّدان كل حركة، كل كلمة، تستشفّ من السكون ما لا يُقال. ألقى (أدهم) نظرة على الاثنين، نظرة حملت ثقة وصرامة، ثم قال بصوت متّزن، يتردّد صداه في جدران القاعة الضيّقة:

- يومان قضيناهما في التحضير.. واليوم تبدأ الرحلة في الوادي. لن يكون هناك مجال للخطأ، كل خطوة سنخطوها قد تفتح بابًا على المجهول، وكل زاوية قد تُخفي أكثر مما تُظهر.

ارتسمت على وجه (فريد) ابتسامة عريضة، وعلت نبرته بحماسة لم تُخفَ:

- هذه فرصتنا.. لنثبت للجميع أن الحقيقة لا تُخفى، وأننا قادرون على كشفها مهما كلّف الأمر.

أمّا (ليلى)، فقد اكتفت برفع عينيها نحوه، صامتة، لكن في صمتها كان هناك يقين خفي، بأن ما ينتظرهم سيتجاوز كل حساب.

خرج الفريق من مبنى الجريدة، والمدينة خلفهم تنبض بوجهين متناقضين: ضجيج الحياة العادي، وصمت عميق يسبق ما يشبه العاصفة. جلس (أدهم) خلف المقود، عيناه مثبتتان على الطريق، تلتقطان أدقّ تفصيلة، يقرآن كل منعطف وكل إشارة، وكأن الأرض تخبّئ له ما لا يريد أن يُكشف. إلى جواره جلس (فريد)، يراجع بحدّة في ذهنه كل المعدّات والاحتمالات، يكرّر أسماء الأدوات ويُلقّن نفسه وعدًا بالجاهزية. أمّا (ليلى)، فقد اتخذت مكانها في المقعد الخلفي، ساكنة الملامح، لكن عينيها المتأهّبتين تتنقّلان بين تفاصيل الطريق وصوت الريح، تترصّدان ما لم يظهر بعد.

كلما ابتعدوا عن قلب المدينة، تغيّر المشهد تدريجيًا. المباني المتفرّقة تحوّلت إلى بيوت مهجورة، النوافذ الزجاجية انطفأ بريقها حتى بدت كأعين عمياء ترقبهم من بعيد. الطرق صارت أضيق وأكثر وعورة، والأفق غطّته غلالة داكنة تزداد

ثِقلاً كلما توغّلوا أكثر. ثم دخلوا الممرّ الضيّق بين الأشجار، عجلات السيارة ارتطمت بحُفرٍ وصخور صغيرة، كما لو أنّ الأرض نفسها تعترض طريقهم. الضباب انسدل بلا إنذار، أحاط بالسيارة من كل اتجاه، حتى بدا الطريق كتتابع غامض. الأشجار العملاقة اصطفت على الجانبين كجنود صامتين، جذوعها مظلمة، وأغصانها العالية تتمايل ببطء مع الريح، تلوّح بإنذار خفي. الأوراق اليابسة تساقطت متكسّرة تحت تأثير الهواء، فاختلط خشخشتها بصوت المحرّك الذي صار أشبه بنبضٍ ثقيل، يعلن حضورهم في أرض لا ترحّب بالغرباء.

من حين لآخر، كان خيطٌ من ضوء الشمس يتسلّل بين الأغصان الكثيفة، لا ليمنحهم وضوحًا، بل ليزيد من قسوة التباين بين العتمة والضياء، فتتعمّق الظلال أكثر. الصخور المائلة على جانبي الممرّ ضيّقت المسافة، وجعلت التقدّم بطيئًا. أمسك بعجلة القيادة بثبات، عيناه مسمّرتان على الطريق الضيّق، يترقّب أدنى حركة في الفراغ الملبّد بجواره. غاص (فريد) في الخريطة، محاولًا أن يجد خيطًا يقوده إلى إجابة، فيما (ليلى) لم تُهمل تفصيلة واحدة من الغابة المحيطة، عينان حادّتان تلتقطان كل وميض، كل أثر خفي بين الأشجار.

الصمت في السيارة لم يكن سكونًا عاديًا، بل عزلة مكتملة، امتدادًا شعوريًا بأنهم يُساقون بعيدًا عن العالم المألوف، نحو قلب أرضٍ تحتفظ بأسرار لا تبوح بها. وبعد مسافة بدت أطول من حقيقتها، انفتح أمامهم ممرّ موحش، على جانبيه انتصبت صفوف من المقابر الحجرية، نقوشها الغامضة لا تزال

واضحة رغم تآكل السنين، كأنها رسائل لم تُقرأ بعد. بين تلك المقابر ظهرت بيوت مهجورة، جدرانها المشقّقة شاهدة على زمنٍ اندثر، نوافذها السوداء خالية من الحياة، أشبه بعيون مطفأة تتابع خطواتهم بصمت.

خفّ صوت المحرّك، والريح تسلّلت بين الأحجار والجدران البالية لتضاعف من وطأة المشهد، وكل متر تقدّموا فيه جعل الإحساس بالرهبة أكثر وضوحًا. بعد مسافة قاربت الثلاثين كيلومترًا على الطريق المتعرّج بين المقابر والبيوت الخربة، برزت أمامهم يافطة صدئة، حروفها السوداء المتآكلة لا تزال تصرخ باسمٍ لم يغب عن ذاكرة المكان: «طريق وادي الحرازية».

أوقف السيارة ببطء، عيناه تتأمّلان اليافطة بتركيز حاد، بينما الهواء المحيط ازداد ثِقلاً، كأن الوادي يستشعر قدومهم ويُحكم قبضته على أنفاسهم. (فريد) انحنى قليلًا يحاول قراءة تفاصيل باهتة على اللوحة، و(ليلى) التزمت الصمت، نظراتها غائرة في الطريق الممتدّ أمامهم، طريقٌ بدا وكأنه بوابة إلى غياهب المجهول. لحظة صمت انعكست داخل السيارة، قبل أن يقطعها (أدهم) بنبرة هادئة، لكنها محمّلة بالثِقل:

- من هنا يبدأ كل شيء.

ضغط على دواسة الوقود، وعاد المحرّك ليدوي في المكان، فيقودهم إلى الطريق الضيّق الذي لم يعرف وطء الأقدام منذ زمن بعيد. على جانبيه المقابر تنحني بأحجارها الرمادية، والبيوت المتداعية تتراصّ بصمت، كحراس من زمن آخر،

يراقبون الداخلين إلى أرض لا تسمح بالخروج منها بسهولة. الهواء ازداد برودة، ورائحة التراب الرطب تسلّلت إلى داخل السيارة، تحمل معها طعم الرهبة. ومع كل متر يقطعونه، بدت الطبيعة أقلّ طبيعية؛ الأشجار العارية تمايلت فجأة بلا ريح، أوراقها الجافة انحدرت ببطء، كأنها تسقط عمدًا لتسدّ الطريق أمامهم. ومن بين البيوت المظلمة تسلّبت أصوات خافتة، أشبه بالهمسات المقطوعة، ترتفع فجأة ثم تتلاشى بلا أثر، تترك خلفها فراغًا يثقل القلوب ويضاعف الترقّب.

الطريق نفسه يعلن لهم أنهم لم يعودوا ضيوفًا عابرين، بل شهودًا على لغزٍ ينهض من تحت أنقاض السنين. بقع غامضة من الظلال كانت تتحرّك عند أطراف الطريق، لا هي ثابتة ولا مجرّد انعكاسات، شيء خفيّ يتسلّل بين العتمة، يحمل في حركته حياة لا تفسير لها.

التفت إلى رفيقيه، عيناه مشتعلة باليقظة، صوته حادّ:

- راقبوا كل تفصيلة.. لا تُهملوا شيئًا.

رفع (فريد) الكاميرا بثبات، يقتنص الصور كأنه يصطاد أدلّة من هواءٍ ثقيل، فيما شدّت (ليلى) حزام مقعدها، عيناها تمسحان الطريق بعناية. كلما تعمقوا أكثر، صار الطريق أكثر صمتًا، وأكثر امتلاءً بالعلامات. خمس ساعات من السير المتواصل، والطريق يقودهم إلى الغروب. السماء أصبحت بلون داكن، تداخلت فيه أطراف الجبال مع آخر خيوط الشمس، فيما الرياح الباردة حملت معها صرير الأوراق اليابسة. أخيرًا ظهرت اليافطة الأخيرة، خشبة مهترئة تتحدّى الزمن بحروف واضحة:

«قرية الحزارية».

توقّفت السيارة، نزل الثلاثة إلى الطريق الترابي الممتد نحو قلب القرية. الممرّ كان فسيحًا لكن موحشًا، محاطًا بأراضٍ صفراء جافة لا تنبض بالحياة، تتناثر وسطها قطعان ماعز هزيلة تبحث عبثًا عن عشب أخضر. وهناك، عند طرف الحقل، جلس فلاح وحيد فوق الأرض المتشقّقة، فأسه بجواره، عيناه معلّقتان بالسماء، يتأمّل النجوم بجمود غريب.

اقتربت خطوات (أدهم) ورفيقيه ببطء، محكومة بالحذر، لكن الرجل ظلّ ساكنًا، لم يلتفت، لم يُبدِ أي ردّ فعل. اقترب الفريق من الفلاح الجالس على طرف الأرض الجرداء، خطواتهم بطيئة محسوبة، ووجوههم مشدودة بتوجّس لم يجرؤ أحدهم على إخفائه. رفع (أدهم) صوته بهدوءٍ متماسك:

- هل هذه هي قرية الحزارية؟

أجاب الرجل بصوتٍ خفيض، متثاقل النبرة:

- نعم.

تابع (أدهم):

- أهذا هو المدخل؟

- نعم.

أومأ (أدهم) قليلًا، وقال:

- شكرًا لك.

غير أن الفلاح قطع خطواتهم بنبرة مختلفة، حادّة، خرجت

من فمه كتحذير لا يحتمل التجاهل:

- أنصحك.. ألّا تدخل.

توقّف فجأة، استدار نحوه، نظراته تنفذ إلى ملامحه، يبحث في طيّاتها عن سبب ذلك التحذير:

- ولماذا؟

ارتسمت على وجه الفلاح ابتسامة باهتة، لكنها كانت أقسى من أي تهديد، ابتسامة يختلط فيها اليقين بالخبرة الطويلة:

- الغيلان.. لن يتركوكم.

غاص المكان في سكونٍ أعظم، بدا أثقل من وقع أي كلمة. الهواء نفسه صار مشبعًا برهبةٍ لم يعتادوها، والظلال على جانبي الطريق تماوجت كأنها تراقبهم.

لم يتراجع، بل ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة، لم تحمل سخرية، بل إقرارًا داخليًا بصدق ما سمع. كلمات الفلاح جاءت لتؤكّد ما آمن به منذ البداية: أن الفتى (ياسين) لم يكن يهذي، وأن الحقيقة هناك تنتظره.

أخرج (أدهم) هاتفه، اتصل بالرقم الذي زوّده به (ياسين). بعد لحظات ردّ الشيخ (محفوظ) العجوز، فطلب منه أن يُخبر الفتى بوصوله إلى مدخل القرية. دقائق قليلة مرّت، ثم جاء صوت (ياسين) عبر السماعة. قال (ياسين) متحمّسًا:

- انتظر مكانك، سأكون عندك خلال لحظات، فقط انتظر.

لم يطل انتظارهم حتى اندفع من عمق الطريق فتى نحيل، لم يتجاوز الثانية عشرة، يحمل في عينيه بريقًا يسبق خطواته. ملامحه الطفولية غمرها شعور عارم بالفرح، وحين

وصل إليهم، رمى بنفسه في حضن (أدهم)، كأن اللقاء لم يكن غريبًا بل موعدًا مكتوبًا منذ زمن بعيد. صوته خرج متقطّعًا بين الفرح واللهفة:

- كنت واثقًا من مجيئك.. لم يصدّقني أحد، وها أنت هنا!

كلماته سقطت على قلب (أدهم) كوقع ناقوس يذكّره بثِقَل المهمة، وبأن هذه الأرض لا تمنح القادم إليها سوى طريق واحد: إمّا أن يواجه حتى النهاية، أو يُبتلع مع أسرارها.

تابع الفريق خطى الفتى، والهواء من حولهم مثقل بجفاف الأرض وصوت الماعز الضعيفة وهي تبحث في التراب عن حياة ضاعت. الحقول على الجانبين بدت مُرهَقة، نباتاتها الشاحبة تنحني نحو الأرض، أشبه بأرضٍ أنهكها الصمت أكثر مما أنهكها العطش.

وما هي إلا دقائق حتى انكشف الممر المؤدي إلى قلب القرية، كان الفتى الصغير يتقدم بخطوات ثابتة، عارفًا طريقه بين الأزقة الضيقة والبيوت المتهالكة، يجر خلفه (أدهم) وفريقه نحو قلب القرية، في عينيه لم يكن الطريق مجرّد ممر من حجارة وتراب، بل بداية مواجهة مع سرّ مطمور، وعبور نحو تاريخ ظلّ مطبقًا على نفسه دهورًا.

القرية انكشفت أمامهم شيئًا فشيئًا، متعبة، متشققة، يغلفها زمن طويل من العزلة، بيوت متصدعة جدرانها تنطق بالخراب، نوافذها مفتوحة على فراغ، وأبوابها تصدّ الريح أكثر مما تصدّ الزائرين، أمّا الوجوه التي أطلت من خلف العتبات فقد حملت آثار الحرمان، أجساد ضعيفة، عيون غائرة، نظرات تختلط فيها الريبة بالفضول، لم يكن فيهم من

يبتسم، بل كانوا يحدقون في الغرباء بعيون طويلة الصمت، كأنهم يحصون أنفاسهم وعدد خطواتهم، ويراقبون ما قد يجرّه حضورهم إلى هذا الركود المديد، تحرك الفريق في الأزقة الضيقة وسط أنفاس الناس الثقيلة، وبين كل التفاتة كان يشعر أن المكان لا يراقبهم فقط، بل يختبر قدرتهم على الثبات، وحين وصلوا إلى البيت الذي دلّهم إليه الفتى، انفتح المشهد على مفارقة لافتة باب خشبي قديم استقبلهم بدفء لم يتوقعوه، خرج والد (ياسين)، رجل نحيل القسمات لكنه ثابت النظرة، وزوجته بوجهها المرهق الذي أضاءته لحظة الترحيب، وبجوارهما الابن الآخر ((زياد)) كلمات الترحيب البسيطة التي نطقت بها الأسرة بدّدت ثقل اللحظة لبرهة، في تلك اللحظة، شعر (أدهم) أن هذه الأسرة ليست مجرّد مضيفين عابرين، بل بوابة نحو أعماق الحكاية التي جاء يبحث عنها، وأن كل ابتسامة منهم تخفي خلفها سرّا سيُروى في الساعات القادمة

الفصل العاشر

ظلّ (أدهم) يتفحّص أركان البيت بعين دقيقة، يتنقّل بنظره بين الجدران والسقف والأرضية. كان البناء بسيطًا، جدرانه طينية متشقّقة، تعكس أثر السنين بلا حاجة إلى تفسير. الأبواب الخشبية قديمة، حوافها متآكلة، تحمل بصمة أيادٍ أنهكها الاستعمال. في الداخل، الغرف ضيّقة، أرضيتها مفروشة بسجاد بالٍ، ألوانه باهتة انطفأت مع الزمن. الموقد الحجري في أحد الأركان بدا خامدًا منذ فترة طويلة، ورائحة الدخان العالق في الجدران تحكي عن ليالٍ بردها قاسٍ. نافذة صغيرة سمحت بمرور ضوءٍ خافت، ضوءٌ لم يبدّد العتمة بقدر ما كشف خشونة المكان وفقر تفاصيله. لم يلتفت إلى البساطة فقط، بل إلى الهدوء الغريب الذي يسيطر على البيت، هدوءٌ لا يشبه راحة البيوت المأهولة، بل فراغًا ثقيلاً.

قال الأب بصوت مفعم بالامتنان:

- لقد أنرتم ديارنا بقدومكم، وما كنتُ أتصوّر أن أحدًا قد يلتفت إلى أحوالنا أو يحمل صوتنا إلى مسامع المسؤولين، غير أنّ (ياسين) وحده ظلّ على يقين بأنكم ستشرّفوننا بزيارتكم.

ابتسم بهدوء، وردّ بكلمات قصيرة لكنها مشبعة بالاحترام، فأومأ الأب برأسه وتقدّم بخطوات ثابتة، يفتح الطريق نحو الغرفة المعدّة لاستضافة (أدهم) و(فريد). كان صوته منخفضًا، يحمل ما بين نبراته مزيجًا من الترحيب والتحفّظ، وكل كلمة منه محسوبة بعناية.

في تلك الأثناء، تحرّكت الأم نحو (ليلى)، لم تكتفِ بالابتسام، بل فتحت معها حديثًا قصيرًا، بسيطًا في عباراته، دافئًا في معناه. همست لها أن تنزل ضيفًا على غرفتها الخاصة، أرادت أن تمنحها شعورًا بالانتماء لا بمجرد الضيافة.

فتح الأب الباب، وتقدّم (أدهم) و(فريد) بخطوات حذرة إلى الداخل. الغرفة ضيّقة، جدرانها مشروخة، تغطّيها طبقات رطوبة متحجّرة. الطلاء تفتّت حتى صار لونها مزيجًا من العتمة والرماد، يبتلع ما تبقّى من ضوء. النافذة الوحيدة مكسورة، ألواحها الخشبية متداعية، تدفع الريح عبرها صفيرًا متقطّعًا يقطع الصمت كجرسٍ غريب. الأرضية الخشبية تئنّ تحت الأقدام، صوتها خافت لكنه يوحي باحتجاج مكتوم يملأ المكان. في أقصى الركن، طاولة غارقة في الغبار، فوقها فانوس صدئ مطفأ منذ زمن بعيد. الأسِرّة في الغرفة عبارة عن هياكل خشبية داكنة، متآكلة الأطراف، عليها آثار شقوقٍ وحفر صغيرة نحتتها السنين. الفُرُش باهتة اللون، قماشها خشن ممزّق عند الزوايا، والقطن متناثر منها.

تركهم الأب ليستبدلوا ثيابهم ويضعوا ما معهم من أغراض، وصوته يتردّد بثقة وهو يقول:

- لا تتأخروا.. أم (زياد) أعدّت الغداء في انتظاركم.

قاطع (فريد) الصمت فجأة، صوته يحمل خليطًا من الدهشة والاستنكار:

- حقًا؟ هل سنبيت هنا؟

ابتسم (أدهم) ابتسامة قصيرة لا تحمل سخرية بقدر ما تحمل يقينًا:

- وهل جئنا لننام؟

تحرّك بخطوات هادئة داخل الغرفة، عيناه تتفحّصان الجدران بعناية، فيما (فريد) يتبعه بنظرات متوتّرة. لم يكد يخطو خطوات قليلة حتى توقّف، عيناه ثبتتا على ما ارتسم فوق الجدار. كلمات مبعثرة، محفورة بخط خشن يثير القشعريرة، حروف غريبة تتقاطع مع أرقام متناثرة بلا معنى ظاهر، نجوم سداسية غامضة، ورؤوس مرسومة بخطوط حادّة توحي بقسوة اليد التي كتبتها. التحذيرات تملأ الحائط، لا لتُقرأ، بل لتُشعر الداخل بثقل ما كُتب.

عين (أدهم) ضاقت وهو يتأمّل الخط، فقد كان مألوفًا، مألوفًا حدّ الوجع. لم يكن مجرّد خربشة على جدار مهجور، بل نسخة مشوّهة مما رآه ذات ليلة في غرفة أخيه (يحيى). نفس الترتيب المبعثر، نفس الاضطراب المليء بالمعنى المستتر. في تلك اللحظة، لم يعد الأمر مجرّد جدران قديمة تحمل رسومات، بل صار دليلًا حيًا يربط بين الوادي وهذا الغياب الذي لم يجد له جوابًا بعد.

قال (أدهم) وهو يثبّت نظره على النقوش الغائرة في الجدار:

- التقط صورة لكل هذا يا (فريد).. كل خطّ، كل تفصيلة.

تحرّك (فريد) بخطوات متردّدة، أخرج الكاميرا، وبدأ يقترب من الحائط بينما يده ترتجف قليلًا. التقط الصور في صمت، وصوت الآلة الخافت يقطّع سكون الغرفة. أمّا (أدهم)، فقد تركه منشغلًا، وأخذ يجول بنظره في الأركان. تقدّم ببطء، يتأمّل السقف الخفيض، الخزانة المتهالكة في الزاوية، بقايا

أشياء متناثرة. مرّر يده فوق الطاولة العتيقة، رفع بعض الأوراق الممزّقة، وانحنى ليلمس أرضًا بدت غير مستوية. توقّف لحظة والتفت نحو (فريد) وقال بصوت خافت:

- لا تُهمل شيئًا.. قد يكون في التفاصيل ما يغيّر كل شيء.

ثم عاد إلى تفحّصه الدقيق. الغرفة كلّها تحوّلت إلى لغز لا يسمح له أن يغفل عن أي أثر. ارتجفت العدسة بين أصابع (فريد) المرتعشة، والعرق يثقل قبضته حتى خُيّل أن الكاميرا ستفلت من يده. عيناه متشبثتان بالنقوش، لا تراهما إلا مسمّرتين في حروف تنزف غموضًا. خطوته بطيئة، متردّدة، كل حركة فيه تُفضح ارتجافًا يحاول ستره، وملامحه لا تهدأ؛ حاجب مشدود، فم مزموم، نظرات تائهة تفضح الصراع المستعر بين الرغبة في الفهم والخوف من الاقتراب. كلما التقط صورة، ازداد اضطرابه، كأن عدسته لا تحفظ مشهدًا على جدار، بل تقتنص أثرًا يجرّه إلى هوّةٍ أعمق من احتمال.

حتى اخترق الغرفة صوت طرقات ثلاث متتابعة على الباب، حادّة، كأنها صفعات تُعيد الأنفاس المعلّقة إلى صدورهم. ارتجف (فريد) للحظة، والتفت بعينين مذعورتين نحو المصدر، فيما ظلّ (أدهم) واقفًا بثبات، يرمق الباب بعين متحفّزة. تحرّك المقبض ببطء، واندفع الباب كاشفًا عن وجه والد (ياسين)، صوته خرج ساكنًا:

- الطعام جاهز.. تعالوا قبل أن يبرد.

سكنت الغرفة على وقع صوته، كأن الباب لم يُفتح ليدعوهم إلى المائدة، بل ليكسر ثِقَل اللحظة ويعيدهم إلى واقعٍ كانوا يوشكون على نسيانه. حين انفتحت أبواب غرفة المعيشة،

اندلق عليهم ضوء دافئ كأنه عالم آخر يرفض ما خلّفوه وراءهم. الرائحة سبقت أعينهم؛ بخار الحساء يعلو في الهواء، وخبز طازج تفوح منه حرارة الأفران. كل شيء يوحي بالراحة. المائدة وُضعت بعناية لا تخلو من فقر، لكنها مشبعة بصدقٍ لا يُشترى؛ أطباق مرتّبة في نظام حريص، قدر صغير يتوسّطها، وحولها أكواب الماء الزجاجية اللامعة رغم عتقها. جلس والد (ياسين) في صدر الطاولة، كتفاه مشدودتان أكثر مما ينبغي، ونبرته حين قال:

ـ تفضلوا.. البيت بيتكم.

جاءت رخيمة، لكنها مثقلة بارتباك لا تخطئه الأذن. اتخذ (أدهم) مكانه أولًا، يده على الطاولة وعينه لا تفلت أي تفصيلة؛ لا الطعام، بل اليد التي ترتجف وهي توزّع، ولا الملاعق التي تُطرق بصوت خافت يشي بتوتّر لم يستطع دفنه. (فريد) جلس بجانبه، يلتهم اللقمة تلو الأخرى كمن يريد أن يُخمد جوعًا أعمق من المعدة، يحشو فمه ليكتم ما يود قوله، وعيناه بين الحين والآخر تقفزان إلى الجدار. أمّا (ليلى)، فاختارت مقعدًا قرب الأم، جلست بوقار هادئ، ذراعاها مطويتان على حجرها في أوّل الأمر، ثم راحت تُعين المرأة في تقديم الصحون بابتسامة خافتة، تُراقب أكثر مما تشارك. في المقابل جلس (ياسين)، صمته يثقل الطاولة أكثر من الصحون نفسها، عيناه تتنقّلان بين أبيه وضيوفه، كمن يزن شيئًا أكبر من الحكاية، شيء لم يُكشف بعد.

انفرط الصمت على المائدة حين مالت (ليلى) قليلًا، صوتها خرج رقيقًا لكنه محمّل بفضول لم تُخفه:

- وأين (زياد)؟ لم أره بينكم.

ارتبك (ياسين) للحظة، ثم أجاب بصوت خفيض، تتعثر كلماته وكأنها خارجة من صدر مثقل:

- (زياد).. لم يذق الطعام منذ ثلاثة أيام، بسبب..

لكن صوته انكسر فجأة، إذ قاطعته الأم بحدّة مباغتة. التفتت إليه بعينين مشدودتين، نظرة واحدة كانت كافية لتخرسه. ارتسمت بعدها على شفتيها ابتسامة واهنة، لا تحمل من الطمأنينة إلا قناعًا هشًا:

- (زياد) مريض قليلًا.. سيستعيد عافيته قريبًا.

سكن الجميع لبرهة، وكأن الكلمات التي لم تكتمل تركت جرحًا مفتوحًا في الجو. (ليلى) لم تُجب، واكتفت بأن تنقل بصرها بين (أدهم) و(فريد)، نظرات متعجّبة تتساءل بلا صوت، تبحث في عيونهم عن اعتراف لم يُقال. أمّا (ياسين)، فقد أطرق رأسه، يعبث برغيف الخبز أمامه دون أن يمدّ يده إلى الطعام.

السكينة التي خيّمت لم تكن سكينة طعام، بل ثِقَل غامض، شيئًا غائبًا يجلس بينهم على الطاولة، يُراقب بصمت أقوى من كل الكلمات. رفع (أدهم) عينيه نحو الأب الجالس في صدر المائدة، حدّق فيه لحظةً طويلة كأنه يفتّش خلف تجاعيد وجهه عن تاريخٍ خفي، ثم قال بصوت هادئ يحمل حدّة مستترة:

- منذ متى وأنت تقيم هنا؟

ارتفع رأس الأب قليلًا، وكأن السؤال نبش غبارًا راكدًا في

صدره، ثم أجاب بنبرة ثابتة تسلّلت منها رائحة السنين:

- وُلدتُ هنا، كما وُلد أبي، وأجدادي من قبله. دمنا في هذه الأرض منذ مئات السنين، ولم نغادرها قط.

لم تمضِ لحظة حتى اندفع صوت (فريد)، متوتّرًا وقد ارتعشت الكلمات على لسانه:

- وماذا عن النقوش.. تلك الأرقام التي تغطّي جدران الغرفة؟ ما معناها؟

سرت نظرة خاطفة بين الأم و(ياسين)، كأنها ومضة سرّ عبر في الهواء، أثقل من الكلام وأسرع من التفسير. أمّا الأب فظلّ يحدّق في الطبق أمامه، قبل أن يرفع عينيه إلى (أدهم) و(فريد)، قائلًا ببطءٍ أشبه بالوعد المعلّق:

- ستعرفون كل شيء.. ليس هنا.. حين تطأون بيت الشيخ (محفوظ)، سيتّضح ما غاب، ويُقال ما ظلّ مكتومًا.

كلماته أطبقت على المجلس بثِقَل غير مرئي، وأحسّ الجميع أن ما ينتظرهم خارج هذا البيت أخطر بكثير مما تحمله الجدران الصامتة.

الفصل الحادي عشر

خرجوا من بيت (ياسين)، والليل قد أحكم قبضته على القرية. قمرٌ مائل يسكب خيطًا من نورٍ ينكسر على الأزقة الملتوية، والريح تدور بين الجدران الحجرية، تفتّش عن سرٍّ ضائع. تقدّم الأب بخطواتٍ ثابتة، يعرف الطريق كمن يعبر أرضًا تحمل أثر قدميه منذ زمن بعيد، بينما تبعته المجموعة في صمتٍ مقيّد، لا يقطعه إلا ارتجاف النوافذ المغلقة وصوت أنفاسٍ متحفّزة.

قال (فريد) بصوتٍ متردّد، محاولًا أن يكسو ارتعاشه ببرودٍ مصطنع:

- هل بيت الشيخ (محفوظ) بعيد؟

أجابه الأب، وعيناه إلى الأمام، صوته يحمل ثِقلاً لا يشبه المسافة:

- في هذه القرية.. لا بُعد ولا قرب، كل الدروب تُفضي إلى ما كُتب.

ارتسمت نظرة عابرة بين (فريد) و(ليلى)، قصيرة لكنها مشحونة بما يكفي لتزيد ثِقَل الخطى. أمّا (أدهم)، فكان يشعر بأن الأزقة تلتف، والبيوت المظلمة تترقّب بصمتٍ متراكم. اسم «الشيخ (محفوظ)» لم يعد في ذهنه مجرّد رجل ينتظر عند نهاية الطريق، بل مفتاحٌ مقلق، لا يفتح بابًا واحدًا بل أبوابًا مجهولة، وربما هاوية لم يكن مستعدًا للنظر في قاعها.

بدأ الطريق يفتح عن ملامح بيتٍ يختلف عن سائر بيوت القرية؛ جدارٌ عالٍ ينهض في وجه الليل، وباب خشبي ضخم

يلمع مسماره تحت الضوء الباهت كعينٍ شاخصة. النوافذ مسدلة بستائر سميكة لا تسمح بخرقٍ للنظر، والهدوء المطبق حوله يوحي بأن المكان لا يجاوره بشر، بل يترك له القرية بأكملها كي يبتلع صمته وحده.

توقّف الأب عند العتبة، التفت إليهم لحظةً قصيرة، ثم رفع يده نحو الباب بخطى وئيدة، قبل أن يطرق ثلاث طرقات متباعدة. ترددت الطرقات لحظةً، ثم انفتح الباب ببطءٍ، المفاصل الخشبية تُقاوم الفتح بعد صمتٍ طويل.

ظهر في العتبة رجل طاعن في العمر، جسده منحني قليلًا، لكن حضوره أثقل من جدارٍ صلد. لحيته البيضاء تنسدل على صدره، وعيناه الغائرتان تحملان بريقًا لا يشي بالضعف، بل بعمقٍ يوحي أن ما يراه لا يراه غيره. كان صوته أوّل ما كسر السكون، هادئًا، لكنه خرج بثِقَلٍ يجرّ وراءه أسئلة لا تُحصى:

- تأخّرتم.. والليل لا يرحم هنا!

تبادل (أدهم) و(فريد) و(ليلى) نظرات سريعة، فيما انحنى الأب برأسه في احترامٍ صامت. أدركوا أن هذا الرجل لم يكن مجرّد شيخ القرية، بل الحارس الذي يقف بين أسرارها وبين كل غريب يجرؤ على السؤال.

خطوا خلف الشيخ إلى الداخل، فإذا بالبيت يفتح لهم صدره. الجدران مكسوّة بطبقة باهتة من الطين، تفوح منها رائحة قديمة، والمصابيح الزيتية المعلّقة تبعث ضوءًا خافتًا يراقبهم أكثر مما ينير لهم الطريق. أرض الغرفة مفروشة بِبُسُطٍ بالية أكلتها السنين، لكنها ما زالت تصرّ على البقاء.

جلس الشيخ في صدر المكان على مقعد خشبي عريض،

ثم أشار بيده إلى مقاعد بسيطة متفرّقة. لم يتكلّم لحظة دخولهم، بل ترك أعينهم تجوب المكان حتى يستوعبوا أنهم في بيتٍ لا يُشبه بيوت القرية، بيتٍ له رهبة تخصّه وحده.

ما إن جلسوا حتى رفع الشيخ رأسه ببطء، عيناه غائرتان لكنهما تلمعان ببصيرةٍ توشك أن تكشف المستور. صوته خرج واطئًا، متماسكًا، كأن الكلمات تخرج بميزان لا يُخطئ:

- مرحبًا بكم في بيتي..

لم يكد الشيخ يُتمّ كلماته حتى ارتفع صوتٌ رقيق من طرف المجلس، صوت (ياسين) وقد جلس على حافة المقعد، عيناه تلمعان ببراءةٍ يختلط بها اعتداد طفولي. قال بصفاءٍ اخترق ثِقَل الصمت:

- هذا هو الأستاذ (أدهم).. هو من كلّمته في الهاتف، وهو الذي حضر من أجلي.

ارتسمت في عيني الشيخ لمعة خاطفة، ثم ثبّت بصره طويلًا في وجه (أدهم)، بصرٌ نافذ لم يقف عند الملامح، بل تسلّل إلى ما وراءها، يبحث في أغوارٍ لم يطأها سواه. مال الشيخ برأسه قليلًا، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واهنة، تلاها صوتٌ خافت تمتم به كأنه حديثٌ مع الغيب:

- إذن.. قد جاء الطائر الذي طال انتظاره.

انعقد حاجبا (أدهم) للحظة، وشعر بانقباضٍ غامض في صدره. شعر أن الجملة لم تُلقَ جزافًا، بل وُجّهت إليه وحده. لم يُجب، لكن نظراته ثبتت في الشيخ، عينان متحفّزتان تقيسان الكلمات كما لو كانت أفخاخًا مخبّأة في ثوب حكيم.

إلى جواره كان (فريد) يتململ في مقعده، يرمق الشيخ بعينين لا تعرفان أين تستقرّان؛ تارةً على وجهه الغامض، وتارةً على يدي (أدهم) المتشابكتين فوق ركبتيه. حاول أن يرسم ابتسامة متردّدة، لكنها انطفأت سريعًا.

أمّا (ليلى)، فقد جلست ساكنة، ظهرها مشدود، كانت تتابع ما يجري بعينين متّسعتين، لا تفلتان لا رفيقها ولا الشيخ. شيء في ملامحها كان أقرب إلى الحذر منه إلى الفضول، تستشعر أن الحوار لا يتعلّق بهم جميعًا، بل بـ(أدهم) وحده، وأن ما قيل للتوّ لم يكن إلا بداية ما ينتظرهم.

تنحنح والد (ياسين) وهو يجلس إلى جوار الشيخ، نظر إلى (أدهم) ومن معه بنظرة ثابتة، ثم قال بصوت خفيض لكنه نافذ:

- أنتم الآن في بيت الشيخ (محفوظ)، وهو البيت الوحيد الذي يأمن فيه الغريب قبل أهل القرية أنفسهم. لا جدار يحميكم هنا بقدر ما تحميكم كلمته، ولا سرّ يظلّ مستورًا إلا وعنده علم به.

التفت نحو الشيخ بخطوة واثقة، ثم تابع:

- ما يخفى على الآخرين لا يخفى عليه، يعرف خبايا البيوت، وأسرار الطرق، وما يُدار في الصمت قبل العلن. فلا تسألوا عن أمانٍ خارج هذا البيت.. هنا فقط تُقال الحقائق، ويُكشف المستور.

تكلّم الشيخ، صوته هادئ كمن اعتاد أن يزن كلماته قبل أن يطلقها:

- أنا خادمٌ لدار الله، وما أنا إلا واحدٌ منكم، يعرف ما مرّ بكم ويحمل همّ القرية كما تحمله صدوركم.

اقترب والد (ياسين)، وقد ارتسم على ملامحه مزيج من الاحترام واليقين:

- يا شيخ (محفوظ)، دارك هي الملجأ الوحيد الباقي لنا، فهي موضع الطمأنينة في هذه القرية، وأنت وحدك من يعرف أسرارها وأوجاعها، وما من بيت إلا وكنتَ حاضرًا في محنته.

رفع (أدهم) بصره إلى الشيخ، متأمّلًا وقاره وصمته الذي يحوي ما لا يُقال، وارتسم في داخله سؤال لم يجد له جوابًا بعد: «ما الذي يخفيه هذا الرجل عن الجميع؟». تقدّم بسؤاله نحو والد (ياسين)، عيناه مشدودتان كمن يطالب بحقيقة مؤجّلة، وقال بنبرة حادّة يغلّفها ضبط النفس:

- قلتَ لنا إن الحديث سيكتمل في بيت الشيخ (محفوظ). ها نحن في حضرته، فليكن الكلام واضحًا الآن، ولا مجال لمزيد من الصمت.

حدّق والد (ياسين) في الشيخ لحظةً، كأنه يستأذن منه بغير كلام، ثم مال بجسده إلى الأمام، وصوته خرج متهدّجًا، لكنه مشحون بما أثقل صدره لسنوات:

- كانوا يقولون قديمًا إن هذه القرية عامرة، تُخرج من الأرض ما يسدّ الحاجة ويزيد، وأن أهلها ما عرفوا الفقر ولا الضياع. لكن.. كل ذلك تبدّد يوم دخلها رجل يُدعى (مُدثر). لم يكن كسائر الناس، حمل معه ضربًا من السحر الغريب، أسموه «الفودو». يومها اجتمع أهل القرية، وقرّروا أن يقطعوا شرّه من الجذور.. فقتلوه.

توقّف لحظة، وعيناه تلمعان بمرارةٍ مكبوتة، ثم أكمل بنبرة أشدّ وقعًا:

- ظنّوا أنهم أراحوا أنفسهم منه.. لكن منذ مقتله انقلبت حياتنا. لم يعد الليل ليلًا ولا النهار نهارًا. صرنا نرى موتانا يعودون من التراب؛ الآباء والأجداد يطرقون الأبواب، يطلبون شيئًا واحدًا: غادروا هذه القرية أو القوا مصيركم معهم. كثيرون رحلوا، تخلّوا عن أرضهم وبيوتهم، أمّا نحن.. فأين نذهب؟ إلى من نلجأ؟ الحكومة؟ تلك التي لا تسمع إلا ما يطيب لها، وترفض حتى أن تعترف بأن هذه القرية صارت جُبًّا مظلمًا ابتلع أبناءه.

اشتدّ صوته، وكأن الكلمات تنزف من جرح لا يندمل:

- صرنا نعيش على حافة الوهم والواقع، حتى لم نعد نعرف أين نقف. لا أحد يستغرب أن يرى وجهًا ميتًا منذ عقود يحدّثه في الطريق، ولا يستنكر الأصوات التي تنهش سكون الليل، ولا يندهش حين يقابل كلبًا برأس إنسان! كل شيء صار مباحًا هنا يا أستاذ (أدهم).. كل شيء.

ثم أسند كفّيه إلى ركبتيه، وصمت فجأة. ساد الصمت المجلس بعد كلماته، صمت لم يكن راحة، بل كالسياط، يجلد الأسماع أكثر مما يرحمها. ارتجفت الشموع على أطراف الغرفة، و(أدهم) يثبت نظره في والد (ياسين)، محاولًا أن يلتقط من نبراته ما وراء الحكاية.

انحنى قليلًا إلى الأمام، عيناه تلمعان بصرامةٍ مكتومة، ثم قال بصوت حادّ لكن محسوب:

- أخبرني، أأنت تصف أسطورةً يتداولها الناس في الخفاء؟ أم واقعًا تعيشونه ليلًا ونهارًا؟

تأمّل الشيخ (محفوظ) ملامح (أدهم) برهة، ثم مدّ يده ببطء، وقال بصوت هادئ، خفيض لكنه نافذ:

- ليس في القرية أسطورة يا بني.. ما يُقال هنا حقيقة، وما عجز عن وصفه الناس، تكفّل الليل أن يشرحه بلسانه. أنتم لم تروا بعدُ إلا أطراف الظل، وما ينتظركم أبعد من أن يُصدّق أو يُكذَّب.

تبدّلت وجوه الحاضرين؛ (فريد) ابتلع ريقه بصعوبة، و(ليلى) ضغطت كفّيها في حجرها لتكتم ارتجافها. أمّا (أدهم) فظلّ صامتًا، عيناه مشدودتان نحو الشيخ، تبحثان في عتمة صوته عن المفتاح المفقود.

أطرق الشيخ (محفوظ) برأسه لحظة، ثم رفع عينيه، يستحضر من ظلام القرية تاريخًا لم يُكتب. صوته خرج متدرّجًا، بطيئًا، كأن كل كلمة تُنتزع من بئرٍ قديم:

- ذلك الذي سمّي «مُدثّر».. لم يكن من بيننا، ولا حمل يومًا دمًا من دم هذه الأرض. جاء غريبًا، لا يُعرف له أصل ولا نسب، ظهر كما يظهر الطيف في فجرٍ غائم. لم يكن في ملامحه ما يشي بالشر، لكن عينيه.. عينيه كانتا أعمق من أن تُقرأ، كأنهما تُخبّئان سطورًا لا يملك أحد مفاتيحها.

توقّف الشيخ لحظة، وكأن الهواء في صدره أثقل من أن يندفع، ثم أكمل:

- تحدّث عن علوم لم نسمع بها من قبل، طقوس لا يجرؤ

العقل على الإحاطة بها. سمّاها «ڤودو»، وبعضهم قال إنها سحر الأجساد والأرواح، يُحرّك بها الجماد كما يُحرّك الحي، ويربط الحاضر بما دُفن في القبور. في البداية، لم يُصدّقه أحد، حتى بدأ الناس يرون أثره بأعينهم.. ماشية تسقط فجأة، ..

صبيٌ يضحك في النهار ويصرخ كالمذبوح في الليل، رجال يتهامسون أنهم رأوا وجوه موتاهم بين النوافذ. ارتجفت يد الأب وهو يستعيد شيئًا من تلك الأيام، بينما أكمل الشيخ بصوت أشدّ عمقًا:

- لم نطق احتماله.. اجتمع أهل القرية، وقالوا إن موته سيعيد لنا النور، فدفنوه بأيديهم، وظنّوا أنهم أراحوا الأرض من رجسه. لكن منذ تلك الليلة، بدأنا نرى وجوه آبائنا وأجدادنا، الموتى يعودون، لا ليباركوا نسلهم.. بل ليطردوهم.

سكت الشيخ، ثم نظر مباشرة إلى (أدهم):

- نحن هنا منذ ذلك الحين عالقون بين موتٍ لا يرحل، وحياةٍ لم تعد لنا.

ارتسمت على وجه (أدهم) صرامة صامتة، عيناه مثبّتتان على الشيخ، يدرسه كما يُدرّس نصٌ غامض، دون أن ينبس بكلمة. (ليلى) تماسكت على كرسيها، لكن يدها انزلقت على الطاولة في ارتجافة خفيفة، فيما اكتفت الأم بخفض بصرها إلى حجرها، وهي تسمع للمرة الألف ما لم تستطع احتماله بعد.

فجأة انطلق صوت (ليلى)، حادًا على غير عادته، يحمل ارتجافًا لم تُخفِه:

- وإن كان ما تقولونه صحيحًا.. فلماذا أنتم باقون هنا؟ لماذا لم تغادروا مثل الآخرين؟

ترددت كلماتها في الغرفة كارتداد الحجارة في بئرٍ فارغ، وأحسّ الجميع أنها لم تسأل سؤالًا بريئًا، بل كسرت جدارًا من المحظور لم يجرؤ أحد على لمسه. تأمّل الشيخ (محفوظ) وجه (ليلى) طويلًا، حتى خُيّل للحاضرين أن الصمت نفسه صار جوابًا، ثم حرّك شفتيه ببطء وقال:

- من يغادر، يترك ظلّه خلفه.. والظل لا يغفر. كثيرون هربوا، لكنهم لم يسلموا؛ بعضهم عاد محمولًا، وبعضهم ظلّ تائهًا لا يُذكر اسمه بعد اليوم. نحن لم نبقَ لأننا لم نجد ملجأ، بل لأن الرحيل لا ينهي ما بدأ.. القرية ليست حدودها جدران الطين، بل حدودها ما يسكن الدم والعين.

مال قليلًا إلى الأمام، وصوته ازداد انخفاضًا حتى صار أقرب إلى همسٍ نافذ:

- من يخرج، يظن أنه نجا.. لكن النداء يتبعه، يزوره في نومه، يطارده في صحوه، حتى يعود أو يهلك. البقاء هنا موتٌ بطيء.. والرحيل موتٌ أدهى.

ارتفع رأس (أدهم) قليلًا، عيناه تضيقان، تتأمّلان المعنى من بين الكلمات، ثم قال بصوت قاطع لا يعرف المداراة:

- إن كان الرحيل موتًا، والبقاء موتًا آخر.. فأي حياة هذه التي تتحدثون عنها؟ أهو قدرٌ مكتوب على القرية، أم لعنة صنعها بشر مثلكم؟

ساد الصمت لحظة، والأنظار كلّها اتجهت إلى الشيخ، كأنهم

ينتظرون منه جوابًا يفصل بين اليأس والنجاة. أومأ الشيخ (محفوظ) برأسه، وصوته خرج ببطء:

- ليست لعنة يا بُني.. ولا هي قدرٌ كُتب علينا من السماء. ما ينهش هذه القرية ليس إلا أثرًا من فعل البشر، فعلٌ أطلق ما لا ينبغي أن يُطلق، حتى تكوّن ظلٌ أثقل من احتماله.

رفع عينيه، يمرّرهما على وجوههم واحدًا واحدًا، ثم أضاف بصوت انخفض كما لو أنه سرّ لا يُقال إلا مرة:

- ما ترونه في الليل.. ما تسمعونه في الصمت.. هي الغيلان السود، بقايا أرواح لم تجد سكينة، انقلبت إلى أجسادٍ مشوّهة، تطالب بما لم يُمنح لها في الحياة.

سكت لحظة، وأردف:

- الموت هنا لم يعد غيابًا، بل حضورًا أعمى لما دُفن بلا راحة.. حضورًا يزداد كلما بقينا.

تشنّج وجه (أدهم)، وارتجف داخله ارتجافًا مكتومًا؛ الكلمة اخترقت ذاكرته كالسكين، وأعادته في لحظة إلى حقيبته، إلى ذلك الكتاب. شعر أن الماضي يمدّ يده ليحاصر حاضره. قبل أن يغرق (أدهم) في دوّامة الذكريات، شقّ الصمت صوت (فريد) بنبرة متوتّرة، محاولًا كسر ثِقَل اللحظة:

- ماذا تعني بالغيلان السود يا شيخ (محفوظ)؟

رفع الشيخ رأسه ببطء، وعيناه تشعّان بظلٍّ غامض، ثم أجاب بصوت خافت يحمل في طيّاته ثِقَل أجيالٍ مضت:

- الغيلان السود.. ليسوا من البشر، ولا من الجن، إنهم لعنة قديمة، وُجدت هنا قبل أن تُزرع أوّل نخلة في الوادي.

يتغذّون على الخوف، ويتنفّسون من قلوب المذعورين.

ارتعش صوته وهو يُكمل، الكلمات تنزلق من بين شفتيه محمّلة بوزنٍ ثقيل:

- نعم.. الغيلان السود لم يهبطوا على هذه القرية التي بجانب الوادي اعتباطًا. كانوا يجوبون الظلال البعيدة، يقتاتون على أرواح عابرة، حتى جاء من فتح لهم الباب.. مدثّر. ذلك الرجل هو أوّل من لفت أنظارهم إلى قريتنا.

تبدّلت ملامح الوجوه، وتابع الشيخ (محفوظ) وهو يطرق بعصاه أرض الغرفة، وكل ضربة توقظ صدى خفيًا:

- كان يظن أنه قادر على السيطرة عليهم، يستدعيهم ليخدموه، لكن ما لا يعلمه أن الغيلان لا تُخدم إلا نفسها. لقد صار لهم أثرٌ في كل بيت، وكل نفس، منذ أن تجرّأ مدثّر وفتح لهم الطريق.

تنهد الشيخ (محفوظ)، وانحنى قليلًا إلى الأمام، وصوته يهبط أكثر فأكثر:

- مدثّر لم يكن مجرّد ساحر عابر.. لقد عقد عهدًا، وأسال دمًا، وأقام طقوسًا لم يجرؤ عليها أحد قبله. ومنذ تلك الليلة، لم يعد أهل القرية يرون الدنيا كما كانت. الجدران نفسها صارت تهمس، والطرقات تئنّ، وأرواح موتانا عادت تُحاصرنا، تُطالبنا بالرحيل، وكأن الأرض لفظتنا.

توقّف قليلًا، عيناه تلمعان تحت ضوء السراج:

- أمّا الغيلان السود.. فقد وجدوا في القرية مرتعًا. كل ليلة تزداد قوّتهم، يختبئون في الظلال، ويتجسّدون في صورٍ

مريعة.. كلب برأس إنسان، أو جسدٍ ميت يعود لينادي على اسمه. ما يحدث ليس أوهامًا، بل عهدٌ ما زال نافذًا.. وعهده كان مفتاح البلاء.

ارتجف والد (ياسين) وهو يطرق الأرض بكفّه، بينما بقي الصمت مسيطرًا على الغرفة، إلا من أنفاس متقطّعة وأزيز الريح خلف الجدران. انحنى الشيخ (محفوظ) برأسه إلى الأمام، وصوته خرج مبحوحًا لكنه نافذًا كالسهم:

- أنتم.. لا بُدّ أنكم رأيتموه. نعم.. مدثّر. رأيتموه في هيئة فلاحٍ اعترض طريقكم عند مدخل القرية، وحذّركم أن تعودوا أدراجكم.. أليس كذلك؟

سقطت الكلمات في الغرفة كالحجر في بئرٍ عميق.

تجمّدت ملامح (أدهم)، عيناه اتّسعتا، شعر أن ذكرى ذلك الرجل انغرست في أعماقه فجأة. دقّات قلبه تسارعت، والعرق تسلّل إلى جبينه. قبض على معطفه بقوّة، محاولًا أن يسيطر على اضطراب داخلي أشعل نيران الشك في عقله. أمّا (فريد)، فقد اندفع للخلف في جلسته، شاحب الوجه، يبلع ريقه بصعوبة، ويداه ترتعشان وهو يهمس:

- كيف.. كيف عرفت؟

بينما جلست (ليلى) متماسكة في ظاهرها، لكنها عضّت على شفتها السفلى بقوّة حتى سال الدم الخفيف، محاولةً أن تُخفي ارتجافة يدها تحت الطاولة، وعيناها معلّقتان بالشيخ تبحثان عن ثغرة أو تفسير.

عاد صوت الشيخ (محفوظ) يخترق الصمت، أبطأ وأعمق،

حتى بدا كما لو أنه يقرأ من كتاب غير مرئي:

- لم يكن مجرّد رجلٍ عادي حتى بعد موته. مدثّر لا يختفي.. إنه يختار من يراه، ليبذر في قلبه بذرة الرعب. وما دمتم قد صادفتموه، فاعلموا أنكم صرتم داخل دائرته.. ولن يكون خروجكم منها أمرًا يسيرًا.

ارتعشت أنفاس (أدهم)، وضاق صدره عن استيعاب الصدمة. انحنى بجسده إلى الأمام، وضرب بكفّه على الطاولة فارتجّت أوانيها، وانفجر صوته حادًا، يتصاعد مع كل كلمة:

- كفاك ألغازًا يا شيخ (محفوظ)! من يكون هذا الرجل حقًا؟ ولماذا يظهر لنا نحن بالذات؟! ماذا يريد؟! ولماذا تتحدّثون عنه وكأنه ما زال حيًا يسكن طرقات القرية؟!

ارتفع صوته أكثر، عيناه متّقدتان بغضبٍ لا يخلو من ذعرٍ مكتوم:

- هل هو شبح؟ كابوس؟ أم أنكم جميعًا تتواطؤون على خداعنا؟! قل الحقيقة كاملة، الآن، قبل أن نغرق جميعًا في هذا الوهم!

تسمّرت العيون عليه. ازداد (فريد) شحوبًا، يزحف بظهره أكثر إلى الخلف، بينما لم تُزِح (ليلى) بصرها عن (أدهم)، يداها مشدودتان فوق حجرها، وصوت أنفاسها يتسارع رغم هدوء ملامحها. الشيخ (محفوظ) ظلّ ساكنًا، يرقبه بعينين غائرتين، لم يتزحزح له جفن. وبعد صمتٍ أثقل المكان، قال بصوت هادئ لكنه اخترق صخب الانفعال كحدّ السيف:

- مدثّر.. لم يمت بالمعنى الفعلي.

ساد وجوم ثقيل بعد كلمات الشيخ، وانحبس الهواء في صدورهم. ظلّ (أدهم) شاخصًا بعينين متّقدتين، بينما أعاد الشيخ صمته كأن شيئًا لم يكن. هنا لم يتحمّل (فريد) أكثر، اندفع واقفًا، صوته مبحوح ومختنق:

- لم يمت؟! أتعني أن ذاك الفلاح الذي رأيناه.. كان هو؟! نحن جالسون هنا نستمع وكأن الأمر حكاية قديمة، بينما نتعامل مع شبح يسير بيننا؟!

ارتجف صوته وهو يتابع:

- لا.. لا، هذا جنون! لو كان حيًا لَمَا تركوه.. ولو كان ميتًا فكيف.. كيف يعود ويحادثنا؟!

خرجت كلماته مرتعشة، عيناه تتقافزان بين الشيخ و(أدهم) بحثًا عن تكذيب ينقذه. أمّا (ليلى)، فشدّت على كفّيها بقوّة حتى غاصت أظافرها في جلدها، وجهها متماسك لكن عينيها فضحتا قلقًا عميقًا، تُصارع نفسها لتظلّ ساكنة أمام الحقيقة التي تُنتزع من أعماقها.

أطرق الشيخ برأسه لحظة، ثم رفع بصره، وصوته خرج ثابتًا، هادئًا، لكنه يحمل وقع الصاعقة:

- نعم.. قد رأيتموه بأعينكم، ولم يكن وهمًا. ذاك الذي اعترض طريقكم لم يعد بشرًا منذ زمن.. لقد صار من الغيلان السود.

هوى (فريد) إلى مقعده، جسده يرتجف، يحدّق في الشيخ بملامح تائهة، كطفل ضاع من يد أبيه وسط غابة. تمتم بكلمات متقطّعة لم تتضح معالمها، أقرب إلى الدعاء منها إلى

الاعتراض.

عاد صوت الشيخ، كمن يعلن حقيقة لا تقبل جدالًا:

- مدثّر لم يُقتل كما ظننّا.. لقد التهمته الظلمة، وجعلته عبدًا لها، ومنذ ذلك اليوم لم يعد بيننا بشرًا، بل صار من حرس الغيلان السود، وأصبح وجوده لعنةً علينا، وسببًا في أن تعود الأرواح لتطرق أبواب الأحياء.

الجملة الأخيرة لم تترك مجالًا للتنفّس، بل غرست في كل قلب شوكةً من رعبٍ متجدّد.

ظلّ (أدهم) جالسًا، لم يتحرّك. عيناه مثبّتتان على الشيخ، لا رمشة تفلت منهما. بدا وجهه جامدًا كالصخر، لكن خلف الجمود كانت دوّامة تعصف في داخله. قبض أصابعه ببطء فوق ركبته. لم يتكلّم، ولم يصرخ كما فعل (فريد)، ولم يتجمّد كما فعلت (ليلى)؛ بل ظلّ يزن الموقف بعينين لا تُفصحان عمّا يجول في صدره، يترك ثقله يملأ الفراغ أكثر من أي كلمة.

على النقيض، ارتجف (فريد) كمن مسّه برد مفاجئ، زاغت عيناه في الغرفة، تمتم: «غيلان.. سود.. !»، ثم بلع ريقه بصعوبة، لا يدري أين يضع نظره.

حاولت (ليلى) أن تحافظ على صلابتها، لكن ارتجاف وجنتيها فضحها. شدّت على يديها في حجرها، تُخفي ارتعاش أصابعها، وأجبرت نفسها أن تبقى متماسكة، ترفض الانهيار أمام الآخرين.

أمّا الشيخ، فقد ظلّ يتأمّلهم واحدًا تلو الآخر، ثم عاد ببصره إلى (أدهم) وحده:

- وأنت، يا (أدهم).. تعرف أني لا أقول إلا ما كان، وما سيجيء. الغيلان السود لا يُخطئون طريقهم.. وقد وضعوك في طريقهم لسببٍ لم ينكشف بعد!

ظلّ (أدهم) متسمّرًا في مقعده، عيناه تشتعلان باضطرابٍ مكبوت، وعضلات فكه تنقبض في صراعٍ بين الصدمة والرفض. كان يُدرك أن الشيخ لم يطلق كلماته عبثًا، لكن عقله يأبى أن يسلّم بها.

قال والد (ياسين) وهو يوجّه بصره نحو (أدهم) ومن معه، نبرته متشبّثة بالرجاء:

- المبيت هنا هو الخير لكم، فبيت الشيخ (محفوظ) وحده مأمن في هذه القرية.

تحرّك (أدهم) في مقعده، عيناه تلمعان بحدّة، وصوته خرج قاطعًا لا يعرف مداراة:

- مأمن؟! لم آتِ إلى هنا لألوذ بحمى أو أبحث عن طمأنينة بين جدران! أنا لم أقطع الطريق مع رفاقي لنصير ضيوفًا على الخوف، بل جئت لأرى ما تخفونه، لأشهد واقعكم كما هو، وأكتب ما يفضح عجز المسؤولين عنكم. جئت لأسطّر الحقيقة، لا لأتوارى عنها.

تشنّج وجه (فريد) للحظة، يرمق (أدهم) في فزعٍ مكتوم، بينما أمالت (ليلى) رأسها قليلًا، حاولت أن تحبس ارتعاشة تسري في أطرافها. الشيخ لم يتحرّك، لكن عينيه ظلّتا ثابتتين على (أدهم)، ثباتًا يشي بأن كلماته قد بلغت موضعًا لا يبلغه غيره.

ما إن فرغ (أدهم) من كلماته حتى انزاحت على وجه (ياسين) ابتسامة خفيفة، ابتسامة لم تكن للتسلية، بل أقرب إلى ومضة سرّ تهمس: «لقد كان اختياري صائبًا منذ البداية». ظلّ صامتًا، لكن عينيه فضحتا فرحًا مكتومًا، وجد في نبرة (أدهم) تأكيدًا لما كان يصدّقه في أعماقه وحده.

أحسّ (أدهم) بثِقَل اللحظة، فخفّف من حدّة صوته، وقال وهو يرسم شيئًا من الدعابة على ملامحه:

- أنا جئت إلى هذه القرية من أجل (ياسين).. ورفيقنا هنا هو (ياسين) نفسه، بعد إذنكم جميعًا. سأنزل في بيته، فهو دليلي، وصاحب الدرب الذي سنسلكه بين أسرار هذه الأرض.

ارتعشت ملامح (ياسين) فرحًا، عيناه اتّسعتا كمن حظي بما لم يكن يجرؤ على طلبه. لم يكن يصدّق أن الرجل الذي انتظره سيعلن أمام الجميع أنه اختاره دليلًا وصاحبًا في معركة الخوف والظلال. كان قلبه يخفق بعنف، كأن اللحظة صنعت له مقامًا لم يعرفه من قبل.

وقبل أن ينهضوا من مجلس الشيخ (محفوظ)، تسلّل صوت (ياسين)، صافيًا رغم صغر سنّه، لكنه يحمل توقًا جادًّا:

- لا تنسَ.. سنتحدّث في البيت، حديثًا لا يسمعه سوانا، أو عن طريق البريد الإلكتروني عبر هواتفنا الجوّالة.

بقي صوته معلّقًا بينهم، وعدًا مؤجّلًا ينتظر ليلًا آخر ليكشف ما لم يُقل بعد.

الفصل الثاني عشر

نهض القوم واحدًا تلو الآخر، أصوات المقاعد وهي تُسحب على الأرض بدت كإعلان عن نهاية حديثٍ لم يكتمل بعد. مدّ الشيخ (محفوظ) يده مصافحًا (أدهم) ومن معه، عيناه ظلّتا ثابتتين، تتركان في كل واحدٍ منهم أثرًا أثقل من الكلمات. لم يكن وداعًا عابرًا، بل نظرات رجلٍ يعرف أن الليل القادم سيحمل لهم أكثر مما يطيقونه.

خرجوا من الدار بخطى متباينة؛ (أدهم) يمضي ثابتًا، فيما تبعه (فريد) بملامح شاحبة، ينظر وراءه كل بضع خطوات. (ليلى) سارت بينهم صامتة، تُخفي ارتباكها في صرامة وجهها، لكن عينيها كانتا مشدودتين إلى الظلال الممتدة على جدران الأزقة. أما (ياسين) فكان يتقدّم بخفة، يمشي كمن استعاد شيئًا من مكانته، كطفلٍ عثر على اسمه مكتوبًا بين الكبار.

القرية بدت أكثر صمتًا مما كانت عليه، الأزقة غارقة في عتمةٍ تقطّعها ومضات قمرٍ محجوب بالغيوم، والبيوت الموصدة تراقب عودة الغرباء إلى قلبها. الريح تلفح الوجوه برائحة رطوبة عتيقة، تذكّرهم أنهم لم يغادروا دائرة الأسرار بعد، بل عادوا إلى داخلها من بابٍ آخر.

وحين بلغوا بيت والد (ياسين)، وقف الرجل عند بابه، فتحه ببطء كما لو أنه يفتح صدره لهم، وقال بصوتٍ غلبته الجدية:

- هنا تبدأ ليلتكم.. وما بعدها أعتقد أنه لن يشبه ما مضى

لكم.

دخلوا الدار، وكلٌ منهم يحمل في صدره ثِقَلًا مختلفًا، لكنهم اشتركوا في يقينٍ واحد: أن ما قيل عند الشيخ لم يكن سوى عتبةٍ أولى، وأن البيت الذي عادوا إليه لن يكون مأوى، بل مسرحًا لأسرارٍ تتربّص في الظلال.

ما إن انفتح باب الدار حتى لفحهم هواء بارد، محمّل برائحة كريهة لاذعة، كأن الدم ما زال يسيل في الداخل. تردّدوا لحظة على العتبة، ثم خطوا إلى الصالة، فتوقّفوا دفعةً واحدة.

كان (زياد) جالسًا على الأرض، ثيابه ملطّخة، ويداه مضرّجتان بالدم. أمامه جسد قطّ ممزّق، ما زال يتلوّى في رمقٍ أخير، وسكين صدئة تنغرس في عنقه. لم يرفع الطفل رأسه مباشرة، بل ظلّ منحنياً فوق فريسته، يتلذّذ ببطء نزفها.

ثم، بحركة بطيئة ثقيلة، رفع وجهه. عينان غريبتان، واسعتان على غير اتساعهما، تحدّقان فيهم بثباتٍ بارد. لم يكن فيهما أي أثر لطفولة؛ لا خوف، لا دهشة، لا حتى حياة. فقط سكون قاتم يبتلع كل شيء.

ترك السكين تنزلق من يده، فارتطم صوتها بالأرض ارتطامًا حادًا شقّ السكون. بعدها انفلتت من شفتيه جملة قصيرة، بصوتٍ أجشّ لا يليق بجسد طفل:

- تأخرتم.. كنا ننتظر.

لم يتحرّك، لم يبتسم، فقط ظلّ ينظر. عيناه تسافران بين

وجوههم، تفتّشان عن أضعفهم.

انقبض صدر (فريد) حتى كاد يتقيّأ، تراجع خطوة وظهره يلتصق بالحائط. (ليلى) وضعت يدها على فمها، لكن ارتعاشة جسدها فضحتها. (أدهم) وحده ظلّ واقفًا، ساقاه مشدودتان، يتابع الصمت العالق بينه وبين ذلك الصبي. الدم المنساب على البلاط وصل إلى حذائه، لكنه لم يتحرّك.

ظلّ (زياد) ساكنًا في موضعه، حضوره وحده يكفي ليمتلئ البيت بالهول. ثم وقف، وبخطوات متثاقلة، يجرّ قدميه على البلاط الملطّخ بالدم، متجهًا نحوهم. الأرض تُصدر صريرًا رطبًا تحت حركته، والخطوط الحمراء تتمدّد خلفه كأنها تتبعه.

في تلك اللحظة ارتفع صوت والد (ياسين) من خلفهم حادًا، محاولًا طرد شيء غير مرئي:

- الله أكبر.. الله أكبر..

كان صوته يرتجف رغم شدّته، يردّد الأذان من صدرٍ متشنّج، الكلمات تندفع منه أكثر من كونها اختيارًا.

وعلى الجانب الآخر، عند باب الغرفة الموارب، وقفت أم (ياسين)، شاحبة، تراقب ما يجري بعينين متّسعتين. لم تتقدّم، فقط قبضت على حافة الباب بيديها المرتجفتين.

توقّف الطفل لحظة، جسده ارتعش بعنف، عيناه اتّسعتا كنارٍ اشتعلت خلفهما. صرخة مكتومة خرجت من صدره، تلتها حركة فجائية جعلت الجميع يتراجعون إلى الخلف. تشنّجت أطرافه، أصابعه تقبض وتفلت كمن يحارب قيدًا لا يُرى. سقط

على ركبتيه، ضرب الأرض بيديه، ثم رفع رأسه إلى السماء وهو يطلق صوتًا حادًا، متقطّعًا، أقرب إلى عواءٍ ممزّق منه إلى صراخ طفل.

الدم المتناثر على البلاط ارتجّ مع حركته، ثم فجأة نهض بعنف، ركض بخطوات متسارعة نحو غرفته. الباب ارتطم خلفه بقوة كأن يدًا جبّارة أغلقته من الداخل.

ساد الصمت بعدها. فقط صوت والد (ياسين) ما زال يتردّد بالأذان، لكنه صار أضعف، متقطّعًا بين أنفاسه الملهوفة. أما الأم، فكانت ما تزال عند باب غرفتها، تضع يدها على فمها تكتم شهقة، وعيناها مشدودتان إلى باب غرفة (زياد) المغلق.

ظلّ الباب المغلق يلفظ صداه في أرجاء الدار للحظات. تنفّس والد (ياسين) ببطء، يحاول أن يستعيد صوته الذي تكسّر مع الأذان، مسح العرق عن جبينه بكفٍّ مرتجفة، ثم رفع رأسه نحو ضيوفه وقال بصوتٍ محمّل بالإرهاق، لكنه جاهد ليبدو ثابتًا:

- هذا يكفي الليلة.. تفضّلوا إلى غرفتكم رجاءً.

كانت الكلمات أثقل من أن تمرّ مرورًا عابرًا، بدت كمحاولة لتغطية فاجعة انكشفت أمام أعينهم.

(فريد) أوّل من خانته ملامحه؛ وجهه شاحب حتى بدت عروقه زرقاء بارزة، عيناه تدوران في جنون، يلتفت يمنة ويسرة كمن ينتظر أن ينقضّ عليه شيء من الظلال. جسده كلّه يرتعش، وصوته انحبس في حلقه، فلم يخرج منه سوى أنفاس متقطّعة.

على النقيض، جلس (أدهم) صامتًا، ظهره مشدود وعيناه ثابتتان على الباب المغلق. لم يجزع، ولم يحاول أن يبتعد؛ كانت في ملامحه صلابة غامضة، توحي بأنه لم يتفاجأ حقًّا، بل كأنه كان ينتظر لحظة كهذه منذ زمن بعيد.

بقيت كلمات الرجل معلّقة في الهواء، بينما الباب المغلق خلف (زياد) بدا وكأنه يخبّئ وراءه سرًّا أثقل من قدرتهم جميعًا على الاحتمال.

تقدّمت (ليلى) أولًا، وقد وضعت يدها المرتجفة في يد أم (ياسين)، وكأنها تبحث عن حضنٍ أنثوي يقيها رهبة الموقف. فسارت الاثنتان نحو الغرفة في صمتٍ ثقيل، والخوف يتدلّى في الهواء كسكينٍ معلّق فوق الرقاب.

خلفها تبعها (فريد)، يجرّ خطواته المتردّدة وهو يُلقي نظرات سريعة على زوايا البيت كمن يخشى أن ينهض منها شيء مظلم، حتى دخل الغرفة المخصّصة له.

أما (أدهم) فبقي آخر من تحرّك، ثابتًا، متفحّصًا تفاصيل المكان بعينيه الباردتين. لم ينطق بكلمة، لكن ثباته وسط ذلك الاضطراب أصبح أشبه بحائطٍ صلد يحتمي خلفه الآخرون. خطا ببطء إلى الغرفة، بينما ظلّ والد (ياسين) واقفًا في الصالة مع (ياسين)، يراقبهم بعينين غائرتين وقد أطبق عليه الإنهاك.

أُغلِق باب الغرفة خلفهم.. ليبتلع الصمت كل ما تبقّى من الليل.

في تلك الغرفة الضيّقة، كان القمر قد بسط خيوطه المرتجفة عبر نافذة محطّمة الزجاج، لتخطّ على الجدار

ظلالًا متكسّرة، كما لو أنها شقوقٌ في ليلِ حالك. الهواء مشبع برائحة العتق، وكل شيء في المكان يوحي بأن الغرفة لم تُفتح لتستضيف بشرًا، بل لتُخفي أسرارًا أثقل من أن تُقال.

جلس (فريد) على حافة السرير، منكّس الرأس، يداه معقودتان بشدّة حتى ابيضّت مفاصله، وأنفاسه متلاحقة، صدره ضاق بما رآه. عيناه الزائغتان تهربان من الظلام ومن صاحبه، وكأن النظر إلى (أدهم) قد يجرّ عليه مواجهةً لا طاقة له بها.

أما (أدهم)، فكان ممدّدًا على السرير المقابل، ذراعاه خلف رأسه، وعيناه معلّقتان بالسقف المظلم. لم يزحزحه المشهد عن صلابته، بل بدا كمن أيقن منذ البداية أن هذه القرية لم تجلبهم إلا ليشهدوا ما لا يُحتمل.

انفلت من فم (فريد) همسٌ واهن، مكسور الإيقاع، لكنه أثقل من الصراخ:

- ما رأيناه.. لم يكن طبيعيًا، ذلك الطفل.. عيناه لم تكونا عيني بشر.

أدار (أدهم) رأسه قليلًا، وفي عينيه ثبات يشبه السيف، وقال بصوت هادئ، لكنه قاطع كالنصل:

- كل ما في هذا المكان خرج من حدود البشر يا (فريد). لم نأتِ هنا لنحتمي، بل لنرى الحقيقة، مهما بلغت وحشيتها.

ارتجف (فريد)، ثِقَل الكلمات شعره كمن شكبت نارًا في أذنيه، ثم ردّ بصوتٍ مرتعش:

- الحقيقة؟ إن كانت هذه هي الحقيقة.. فالهروب منها أهون

من السعي إليها.

ابتسم (أدهم) ابتسامة ضيّقة، لا دفء فيها، وقال وهو يعيد عينيه إلى السقف:

- من يهرب الليلة.. لن ينجو غدًا.. وأظنّ أنك صاحب هذه المقولة.

ثم خيّم الصمت مرة أخرى، لكنه لم يكن صمتًا مريحًا؛ بل صمتًا يزحف من زوايا الغرفة كالدخان، يثقل صدورهم، ويهمس بأن الليل لم يكشف بعد إلا عن أوّل خيطٍ من نسيجه الأسود.

ساد الغرفة هدوء ثقيل. كان (فريد) يتقلّب على الفراش بلا راحة، بينما (أدهم) مستلقٍ، عيناه مفتوحتان في الظلام، تراقبان سقفًا لا يحمل سوى العتمة والشكوك.

فجأة، انقطع سكون الليل بوقع خطواتٍ بطيئة خلف الجدار، تتوقّف لحظة ثم تعود، أقرب هذه المرّة.

شهق (فريد)، جسده ارتعش وهو يهمس:

- هناك من يتحرّك بالخارج.. أقسم أني أسمع وقع أقدام! وظلّا عبر النافذة.

لم يلتفت (أدهم). ظلّ صوته هادئًا، لكن كلماته انغرست في صدر (فريد) كالسكّين:

- هذا الصوت لن يتركنا الليلة.. أخرج الكاميرا يا (فريد).

تردّد، ونظر حوله كأن الظلال نفسها تترصّده، ثم تمتم:

- الكاميرا؟! وماذا تُجدي الكاميرا أمام هذا الذي نسمعه؟

أدار (أدهم) رأسه نحوه، عيناه تشعّان في العتمة بثباتٍ غامض:

- نحتاج الدليل.. إن عبر هذا الظلّ بيننا وبين النافذة، أريد أن يظلّ أثره في الصورة، لا أن يضيع كالوهم.

لم يكد (فريد) يمدّ يده إلى حقيبته حتى انطفأ القمر خلف الغيوم، وغرقت النافذة في عتمةٍ كاملة. وفي اللحظة نفسها، جاء الطّرق على الباب ثلاث ضرباتٍ عميقة. ارتعدت يد (فريد)، فسقطت الحقيبة من بين أصابعه، بينما ظلّ (أدهم) جالسًا في مكانه، يثبّت نظره على الباب المغلق، وصوته يخرج همسًا:

- أسرِع يا (فريد).. قبل أن يفتح الباب من تلقاء نفسه.

مدّ (فريد) يده إلى الحقيبة بأصابع مرتجفة، سحب الكاميرا من الداخل، لكنها بدت له أثقل من المعتاد. وضعها بين كفّيه، والعرق يتصبّب من جبينه، يتساقط على زجاج العدسة فيلطّخ وضوحها بضباب قلقه. كانت يداه ترتعشان بلا انقطاع، حتى بدا أن الكاميرا ستنزلق من قبضته في أي لحظة. حاول أن يثبتها على ركبتيه، عيناه ظلّتا معلّقتين على الباب المغلق، يتنفّس بسرعة متقطّعة، وصدره يصدر صفيرًا مكتومًا مع كل شهيق.

رفع الكاميرا ببطء، العدسة تواجه العتمة، بينما صوته يتهدّج كمن يجرّ نفسه من هاوية:

- إن.. إن ظهر شيء.. هل تظن أن الصورة ستحتمل؟ أم أن الكاميرا نفسها ستنطفئ؟

لم يردّ عليه، بل بقي ينظر بثبات إلى الباب، كأن انتباهه وحده يكفي ليصدّ ما وراءه.

في تلك اللحظة، اهتزّت الكاميرا بين يدي (فريد) أكثر، حتى بدا وكأنها تُقاوم قبضته، لا ترتعش بها فقط. الضوء الأحمر الصغير عند زرّ التشغيل أضاء للحظة، ثم خبا، ثم عاد يتّقد، كعينٍ خبيثة تفتح وتغلق على إيقاع نبضه المضطرب. شعر (فريد) بأن أصابعه تتصلّب، وأن الكاميرا تنمو في كفّيه وتبتلع أعصابه. كاد يصرخ لولا أن (أدهم) همس فجأة، صوته يشقّ الصمت:

- ثبّت يديك.. لا تدع الخوف يسيطر عليك.

ارتجفت أنفاس (فريد) وهو يوجّه الكاميرا نحو الباب، أصابعه متصلّبة على الأزرار، والعرق يسيل من جبينه حتى التصق بملابسه. كل ثانية تمرّ كانت كأنها عمر، والهواء في الغرفة صار أثقل من أن يُحتمل. ظلّ الباب ساكنًا، يئنّ مع هبوب الريح من الخارج، حتى خُيّل ل(فريد) أن شيئًا خلفه يستعدّ للاندفاع، قلبه كاد أن يخرج من صدره، حين دوّى صوت بسيط للمقبض وهو يُدار ببطء.

شهق (فريد) كمن ابتلع خوفه دفعة واحدة، ورفع الكاميرا أكثر، العدسة تكاد تلتصق بعينه، ينتظر أن يرى كابوسًا جديدًا. لكن الباب انفتح.. وظهر (ياسين).

كان واقفًا بثبات، عيناه الواسعتان تلمعان بصفاءٍ غريب وسط العتمة. ابتسامة طفيفة ارتسمت على وجهه، وكأن دخوله كان هو الخيط الوحيد الذي أعاد للغرفة شيئًا من التنفّس.

في اللحظة ذاتها، هوت الكاميرا من يد (فريد) على الفراش، وهو يلهث بعمق، كأن صدره تحرّر من قيودٍ غير مرئية. رفع يده إلى جبينه، مسح العرق وهو يتمتم بصوتٍ متقطّع:

- يا.. الله.. كدتُ أقسم أن شيئًا آخر سيخرج من الباب..

لم يعلّق (أدهم)، لكنه ظلّ يرمق (ياسين) بنظرة طويلة، كمن يبحث في حضوره عن إجابة لم تُقال بعد.

اقترب (ياسين) بخطوات هادئة، لكن وقعها في أذن (أدهم) بدا كصوت طبولٍ خفيّة تقرع صدره. توقّف عند سريره، انحنى قليلًا، وحدّق في وجهه بنظراتٍ جادّة أكبر من عمره. ثم، بصوتٍ خفيض، كأنه يختبر ثِقَل الكلمة على مسامعه، قال:

- أستاذ (أدهم).. هل كان لك أخٌ يُدعى (يحيى)؟

تجمّدت الملامح على وجه (أدهم)، عيناه اتّسعتا فجأة، جفّ حلقه، ولم تخرج منه كلمة واحدة؛ فقط أنفاس متقطّعة، كأن قلبه انتزع من مكانه وأُعيد إليه بعنف.

على الفراش المقابل، رفع (فريد) رأسه في حيرة، عيناه تتنقّلان بين الاثنين، لا يفهم سرّ هذا السؤال ولا سبب الانفعال الذي اجتاح صديقه. تمتم متلعثمًا:

- من.. من (يحيى)؟ ماذا تقصد يا (ياسين)؟

لم يُجبه (ياسين)، بل ظلّ ناظرًا إلى (أدهم)، يترقّب منه جوابًا. ولما طال الصمت، أدار وجهه فجأة نحو (فريد)، ثم عاد بصوتٍ ثابت يحمل نبرة لم تُسمع من طفلٍ من قبل:

- (زياد) خرج من غرفته منذ قليل.. طرق باب غرفتنا، وقال

لي: معي ضيف.. (يحيى)، أخو (أدهم).

كلماته سقطت في الغرفة كحجرٍ أُلقي في بئرٍ عميقة. ارتجف (فريد) من رأسه حتى قدميه، وانكمش في مكانه. أمّا (أدهم)، فأحسّ بدمه يتجمّد في عروقه. خيّم على الغرفة صمتٌ مشحون، حتى صوت أنفاسهم صار أثقل من أن يُحتمل.

نهض (أدهم) فجأة، كمن لسعته نارٌ خفيّة. فراشه ارتجف تحت ثقل حركته المفاجئة، والعرق تجمّع على جبينه رغم برودة الليل. لم يعد يحتمل الصمت؛ الاسم الذي دوّى في الغرفة أعاد شقوق الماضي لتنـزف أمامه من جديد.

خطا نحو الباب بخطواتٍ حادّة، كل ضربةٍ من قدميه على الأرض كإعلان تحدٍّ لشيء لا يراه بعد. اتّسعت عينا (فريد)، ومدّ يده المرتجفة نحو صديقه محاولًا أن يوقفه:

- (أدهم).. إلى أين؟

لكن (أدهم) لم يلتفت. عيناه كانتا مشدودتين إلى الباب المغلق، كأن ما وراءه يجذبه بخيطٍ لا يراه أحد سواه. امتدّت يده ببطء إلى المقبض، أصابعه متصلّبة كأنها تُقاد لا تُحرّك. أنفاسه متقطّعة، لكنها تحمل إصرارًا من نوعٍ آخر؛ إصرار من يقف بينه وبين ماضيه شبحُ أخٍ يريد أن يواجهه.

في الخلف، ظلّ (ياسين) صامتًا، يراقب المشهد بعينين غامضتين، كأنه يعرف أن ما سيُفتح الآن ليس مجرّد باب غرفة.. بل بابًا على حقيقة لم يكن أحد مستعدًّا لها.

وما إن لامس المقبض، حتى خيّم على الغرفة ثِقَلٌ خانق،

كأن الجدران انكمشت عليهم، والهواء صار أسخن من أن يُستنشق.

انفتح الباب بصريرٍ بطيء، فولج (أدهم) بخطوةٍ حاسمة، يتبعه (ياسين) متردّدًا، عيناه تراقبان الظلال على الجدران. لم يكد (فريد) يتجاوز العتبة حتى انقبض صدره؛ المشهد أمامه شلّ أنفاسه.

كان (زياد) يجلس على السرير، ظهره مشدود ورقبته مائلة قليلًا، عيناه نصف مطفأتين تحدّقان إلى الأمام بجمودٍ مقلق. يداه مثبّتتان على جانبي السرير، كأن جسده محتجز في وضعٍ غريب. والهدوء الذي يلفّ الغرفة لم يكن طبيعيًا؛ لا حركة، لا صوت، سوى ثِقَل اللحظة التي ضغطت على الجميع.

شعورٌ مبهم تسلّل إلى صدر (فريد)، إحساس بأن ما يراه ليس مجرّد جلوسٍ عابر، بل شيء يتربّص في الصمت وينتظر أن ينكشف.

تحرّكت يد (زياد) ببطءٍ حاد، انزلقت إلى جانبه، ثم ارتفعت دفعة واحدة إلى الأعلى، متشنّجة الأصابع كأنها تنتزع شيئًا من الفراغ. صوت احتكاكٍ مفاجئ دوّى في الغرفة، كصرير معدنٍ يخدش زجاجًا، بلا مصدر واضح. عيناه انفتحتا على اتّساعهما، وابتسامة باردة انفرجت عن وجهه الجامد، قبل أن يميل برأسه جانبًا وينطق بصوتٍ مبحوح متقطّع:

- كان ينتظرك.

تجمّد الدم في عروق (فريد)، بينما التصق (ياسين) بظهر (أدهم). ارتجف صدى الكلمات في جدران الغرفة، وكأنها لم تصدر من فم طفل، بل من هاويةٍ سحيقة.

شدّ (أدهم) على قبضته، عيناه تتّقدان بالشك والقلق. تقدّم خطوة، وصوته خرج منخفضًا لكنه حاد، يخترق السكون:

- مَن الذي ينتظرني يا (زياد)؟

لم يتحرّك (زياد). رأسه ما زال مائلًا، وابتسامته تزداد اتّساعًا. تراجع (فريد) خطوة إلى الخلف، قلبه يكاد يقفز من صدره، بينما أمسك (ياسين) بذراع (أدهم) متشبّثًا به، يستمدّ الأمان من صلابته.

حرّك (زياد) شفتيه ببطء، وصوته خرج هذه المرّة أكثر وضوحًا، أشبه بوشوشة قادمة من بئرٍ عميق:

- (يحيى).. أخوك.

سقطت الكلمة كالصاعقة. اتّسعت عينا (أدهم) بذهول، والنور الخافت في الغرفة ارتجف للحظة. تقدّم خطوة، وصوته خرج ثابتًا لكنه مشحون بلهيبٍ مكتوم:

- أجبني.. من أين تعرف اسم (يحيى)؟!

لم يتحرّك (زياد). عيناه السوداوان تتعلّقان بوجه (أدهم)، والابتسامة الملتوية تزداد اتّساعًا. مرّت لحظة طويلة، ثم قال بصوتٍ خافتٍ متقطّع، يذيب الحروف في بعضها:

- هنا.. الأسماء لا تضيع.. هنا كلُّ من رحل.. ظلّ بيننا.

ارتجف (فريد)، ويده تمسح عرقًا غزيرًا على جبينه. لم يفهم شيئًا، لكنه أدرك أن الكلمات تنخر في صدر (أدهم) كالخناجر.

ازداد (أدهم) صرامة، اقترب أكثر، عيناه تضيقان:

- تتلاعب بي؟! هل هو أنت الذي تقول هذا.. أم أحدٌ يضع الكلمات في فمك؟

أمال (زياد) رأسه ببطء نحو النافذة الموصدة، ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- الذي تبحث عنه.. لم يغادر يومًا هذه الأرض.. هو يراكم الآن.. كما يراني.

ساد صمتٌ خانق. انكمش (ياسين) خلف (أدهم)، أمّا (فريد) فخطا إلى الوراء. لكن (أدهم) وحده ظلّ واقفًا، ملامحه تتجمّد بين الذهول والغضب، واليقين المرعب أخذ يتسلّل إلى داخله.. أن (يحيى) لم يكن مفقودًا كما ظنّ، بل كان حاضرًا هنا، في قلب القرية، في قلب الليل.

مدّ (زياد) يده الصغيرة نحو الفراغ بجوار السرير، عيناه بقيتا معلّقتين في النقطة ذاتها، وكأن كائنًا يقف هناك يبادله النظرات. ثم همس، دون أن يحوّل بصره عن الفراغ:

- إنه واقف هنا.. منذ دخلتم.

وقبل أن يتحرّك (أدهم) خطوة نحو الفراغ الذي أشار إليه (زياد)، انفتح الباب فجأة بعنف، فارتجّت الغرفة كلّها. ظهر والد (ياسين)، وجهه متصلّب، عيناه تقدحان شررًا، وصوته انفجر كالرعد:

- يكفي!

اندفع إلى الداخل بخطواتٍ حاسمة، قبض على كتف (أدهم) بقوّة، ثم أزاحه بعيدًا عن السرير. التفت نحو (فريد) و(ياسين)، وصاح بصرامة لا تحتمل نقاشًا:

- اخرجوا.. الآن!

تردّد (فريد) لحظة، عيناه معلّقتان ب(زياد) الذي لم يزل جالسًا على السرير يبتسم، لكن قبضة الرجل على ذراعه كانت كالصخر. سحبه بعنف حتى كاد يقع أرضًا. ارتبك (ياسين)، أراد أن يتكلّم، لكن الأب قطعه بنظرة واحدة كانت كافية لإخماد أي اعتراض.

دفعهم جميعًا نحو العتبة، ثم أُغلق الباب خلفهم بصرّةٍ مدوّية.

لحظة الصمت التي تلت كانت أثقل من الصراخ. صوت القفل وهو يُدار من الداخل بدا كحاجزٍ حديدي يفصلهم عن سرٍّ لا يحقّ لهم معرفته.

وقفوا في الممرّ المظلم، أنفاسهم متلاحقة؛ (فريد) يلهث كأنه نجا من موتٍ وشيك، (ياسين) مذهول، و(أدهم) واقف لا يتحرّك، عيناه معلّقتان بالباب المغلق. ثم استدار فجأة نحو والد (ياسين)، وصوته خرج حادًا، كأنه اقتُلع من صدره:

ـ «إلى متى ستُغلق الأبواب في وجوهنا؟! نحن لم نأتِ هنا لنُطرد كاللصوص. قل لي بوضوح.. ما الذي يحدث لـ(زياد)؟»

ظلّ الأب صامتًا لحظات، عيناه زائغتان، يتنفس بثِقَل، كمن يحمل صخرة على صدره. ثم انحنى قليلًا إلى الأمام، واقترب من (أدهم) حتى صارت أنفاسه الساخنة تلامس وجهه، وقال بنبرةٍ متكسّرة بين الغضب والخوف:

ـ «أنت لا تعرف أي باب فتحتَه بكلامك.. لا تتحدّث في هذه الأمور داخل البيت مرة أخرى، وإلا جررتَ علينا الخراب».

شدّ الأب قبضته على كتف (أدهم) بعنف، وصوته أصبح آمرًا كالسيف:

ـ «انتهى الكلام.. إلى غرفتكم الآن. لا تتركوا حدودها حتى يطلع الصبح».

ثم دفعه بخطوة غليظة إلى الخلف، وأدار ظهره، ممسكًا بذراع (ياسين)، الذي جذبه من بينهم بحركةٍ حاسمة، تاركًا الاثنين غارقين بين الذهول والغضب، فيما الباب المغلق خلفه بدا كأنه يُخفي وراءه أكثر مما يحتمل عقلهم.

تبادل (أدهم) و(فريد) نظرة صامتة عند الباب الموارب، كلاهما يثقل صدره شيءٌ لم يُستكمل. ظلّا لحظات يترقّبان الصمت الذي خيّم بعد خروج الأب، ثم دفع (أدهم) الباب ببطء، وعادا إلى غرفتهم.

جلس (فريد) بتردّد على حافة الفراش، يده ما زالت تمسح جبينه المبتل، وعيناه تدوران في أرجاء المكان:

- «هل.. هل رأيتَ عينيه؟ لم تكن عيون طفل.. لم تكن عيونًا أصلًا».

أما (أدهم)، فبقي واقفًا، كتفاه مشدودتان. لم يُجب مباشرة، بل أخرج من جيبه دفترًا صغيرًا، قلّب صفحاته ببطء، ثم أغلقه بعزمٍ، وكأن الفكرة التي وُلدت للتو لن تُترك حبيسة الورق.

قال بحدّة منخفضة:

- «ما جرى هنا ليس خيالًا.. نحن وسط شيءٍ أكبر من مجرّد أسطورة قرية. و(زياد).. لم يكن يتحدّث من فراغ».

تردّد صوت أنفاس (فريد)، فاقترب منه (أدهم)، وضع يده على كتفه، ثم همس بثباتٍ نافذ:

- «اسمع يا (فريد).. لن نسمح لما يحدث أن يضيع بين الصمت والظلال. سنُخرج الكاميرا في كل وقت، ونوثّق كل ما نراه ونسمعه. لا مجال للتراجع.. الكلمة التي تُكتب قد تُطمس، أمّا الصورة حين تُلتقط، فهي الشاهد الذي لا يُكذِّب».

ابتلع (فريد) ريقه، وارتجفت أصابعه للحظة، قبل أن يزفر ببطء ويهزّ رأسه في موافقة مرتبكة.

الفصل الثالث عشر

مع أوّل خيوط الفجر، تسلّلت أشعة الشمس الواهنة من خلال شقوق النافذة الخشبية، فبدت ذرات الغبار المعلّقة في الهواء تسبح ببطء في فضاء ساكن. استيقظ (أدهم) على وقع خطوات في الخارج، خطوات ثقيلة تطرق الأرض بإصرار، تنذر بقدوم يوم لا يقل رهبة عن ليلته أمس. جلس على حافة السرير، تناول معطفه بيد مرتجفة، ثم ألقى نظرة على (فريد) الذي كان لا يزال نصف غارق في النوم. تمطّى (فريد) وهو يفتح عينيه بتثاقل، وقال بصوت مبحوح:

- أشعر أن الليل لم ينتهِ بعد.. وكأن الفجر لم يبدّد ظلمته.

لم يلتفت إليه (أدهم)، بل مدّ يده إلى حقيبته، أخرج الكاميرا، ومسح عدستها بحذر شديد، ثم قال بصوت حاسم:

- اليوم نبدأ التوثيق.. لا بدّ أن تُسجّل كل لحظة، إن كان في هذه القرية لعنة أو سرّ، فالكاميرا ستكون الشاهد الوحيد.

من الخارج ارتفع صوت الأب، ينادي (ياسين) بصرامة ويأمره بالذهاب إلى الحقل، بدا واضحًا أنه يريد أن يُبعده عن الضيوف.

تبادل (أدهم) و(فريد) نظرات سريعة، ثم همس (أدهم):

- ذلك الرجل يخفي ما هو أعظم من أن يُقال.. وسأعرف الحقيقة، مهما حاول أن يصرفنا عنها.

خرج الاثنان، فوجدوا الأب يجلس عند صدر الغرفة، ملامحه متصلبة، وعيناه لا تفارقان (أدهم) و(فريد) وهما يقتربان من المائدة.

قال بصوتٍ غليظ حمل في طياته مرارة الليل:

- ما كان ينبغي لما جرى البارحة أن يحدث في داري.. أنتم ضيوفي، والضيف لا يُفتح له بابٌ إلا بإذن..

أطرق (فريد) رأسه مرتبكًا، يحاول أن يتجنب النظر في عينيه، بينما ظل (أدهم) ثابتًا، يردّ ببرود محسوب:

- نحن لم نسعَ إلى ما جرى، ما وقع أمام أعيننا ليس من اختيارنا بل أجبرنا عليه، لكن التغاضي عنه خيانة للحق.

اشتدت ملامح الرجل وهو يضرب بكفه على الطاولة ضربًا خفيفًا، وقال:

- الحق؟! أتعرفون أن الحق هنا قد يجرّ علينا بلاءً لا يقوى أحد على رده؟ أنتم تشعلون النار ثم تتركوننا وسط الرماد!

وقبل أن يرد (أدهم)، دخلت الأم بخطوات مترددة، وجهها شاحب، وصوتها متكسّر:

- كفى يا رجل.. دعهم يتناولون لقمتهم أولًا، فما ذنبهم أن يُحمّلوا ما لا يحتملون؟

رمقها الأب بنظرة حادة، ثم قال:

- أنتِ لا تعلمين.. الليل الذي مضى ليس هيّنًا.

اقتربت الأم من المائدة، وضعت إبريق الماء، وكأنها تستجدي هدوء اللحظة، ثم التفتت إلى (أدهم) و(فريد):

- أنتم غرباء عن هذه الأرض.. لكن تذكروا أن ما يُرى هنا لا ينجو منه أحد بسلام.

اقترب (أدهم) بخطوات هادئة، حتى وقف على مقربة من

الأب، وصوته خرج منخفضًا لكن مشبعًا بالثبات:

- يا عمّي.. لم نأتِ إلى داركم إلا لنكون عونًا، لا عبئًا، أنا هنا لأكشف ما تخشونه أن يبقى مستترًا، ولأحمل وجعكم إلى من يستطيع أن يسمع، فإن كان وجودنا يزيد من ثِقلكم، فاعلم أننا نرحل حالًا دون كلمة.

مدّ يده ببطء، يقدّم للرجل عهدًا صادقًا، ونظره ظل ثابتًا في عينيه، يحمل مزيجًا من الاحترام والإصرار. لحظة صمت ثقيلة مرّت، تنفّس الأب ببطء، وعيناه تخلّتا عن حدّتهما لبرهة، وانعكس فيهما شيء من الانكسار، ثم تنهّد بعمق، ورفع يده المرتجفة قليلًا ثم تركها تسقط على فخذه، كأن ثِقلاً داخليًا أرهقه أكثر من أي خصومة. قال بصوتٍ متكسّر لكنه ما زال يحمل صرامته:

- يا أستاذ (أدهم).. لا تظن أن غضبي كان عليكم، بل هو خوفٌ ينهشني منذ سنين، هذه الدار فقدت بنتًا، ولا أريد أن أفقد الباقين، كل ليلة تمرّ علينا كأنها سيفٌ مُسلّط، وكل سرّ يخرج من جدران هذا البيت يقرّب الشرّ من أعناقنا.

أطرق لحظة، ثم رفع عينيه نحو (أدهم) وقد لان فيهما بعض القسوة:

- وجودكم بيننا قد يُثير ما نخشاه، قد يوقظ ما نظنّه نائمًا. أخاف عليكم كما أخاف على أهلي، لكني أرى في كلامك صدقًا، وفي عزمك ما لم أجده في كثيرين. فامكثوا.. ولكن اعلموا أنكم إن اخترتم هذه الطريق، فلن يكون الرجوع منها هيّنًا.

اقتربت الأم أكثر، وضعت يدها على كتفه برفق، كأنها

تُسكّنه من اضطرابه، وهمست:

- دعهم يا رجل.. لعلّ الله يجعل لهم في أمرنا فرجًا.

نظر الأب في عينيه طويلًا، ثم هزّ رأسه ببطء، عندها شعر (أدهم) أن الجدار قد انحنى قليلًا، وأن الطريق أمامه صار ممهّدًا، ولو للحظة. أما (فريد)، فابتلع ريقه في صمت، مدركًا أن بقاءهم لم يعد مجرّد قرار، بل عهدًا ثقيلًا دخلوه بغير رجعة.

بعد انتهاء الفطور، دخلوا إلى الغرفة هم الثلاثة. أغلق (أدهم) الباب خلفه ببطء، ثم التفت إلى رفيقيه. الغرفة كانت ساكنة إلا من خيوط ضوءٍ متردّد تسلّلت من النافذة، تكسو وجوههم بصفرةٍ شاحبة. جلس (فريد) على حافة السرير كمن أثقلته الليلة الماضية، فيما اتخذت (ليلى) مقعدها قرب الطاولة، عيناها لا تزالان معلّقتين بملامح أبي (ياسين) التي رأتها قبل قليل.

قال (أدهم) وهو يمسح جبينه بكفه:

- ما دار بيننا مع الرجل واضح.. إنه يخشى أكثر مما يبوح، ومع ذلك فالأسرار تحيط بهم..

أجابته (ليلى) بصوتٍ خفيض:

- رأيت في عينيه جرحًا لم يلتئم، كأنه يخشى أن يفتح بابًا لو تكلّم أكثر. ومع ذلك.. هو يعرف أكثر مما يقول.

أطرق (فريد) برأسه، يقبض على الكاميرا بين يديه كأنها طوق نجاة، ثم قال بتردد:

- وما الخطة إذن؟ نحن غرباء هنا، وأظن أن القرية كلها

ترفض حتى أن تُذكر أسماؤها بصوتٍ عالٍ.

تقدّم (أدهم) خطوة، نظر إليهما بعزمٍ لا يتزحزح، وقال بنبرة حاسمة:

- لا طريق آخر. علينا أن نبدأ من بيت مُدثّر، هناك الجذور، وهناك سنجد ما يفسّر هذا الظلام.

ارتجف (فريد) وهمس:

- بيت مُدثّر.. ! ذلك البيت المهجور؟! الذي قيل إنهم قتلوه فيه؟!

رفعت (ليلى) نظرها إلى (أدهم)، نبرتها متوترة:

- الدخول إلى هناك ليس قرارًا هيّنًا، لو كان في الأمر خطر على أهل القرية، فما بالك بنا؟

اقترب (أدهم) من الطاولة، وضع كفيه فوقها بثبات، وأجاب:

- لا أبحث عن الطمأنينة، بل عن الحقيقة، ما جئت من أجل الأمان، بل لأكشف المستور، وأول خطوة.. هي الدخول إلى بيته.

سكتوا جميعًا لحظة، تبادلوا النظرات، وفي أعماقهم ارتعش الخوف، لكن القرار انعقد بينهم كالعهد: بيت مُدثّر سيكون وجهتهم الأولى.

مرّت ساعات الصباح ببطء، انشغلت (ليلى) و(فريد) في جمع ما يلزمهم من أدوات ومصابيح وبعض الأغراض البسيطة التي قد يحتاجونها. كانت حركتهما سريعة وحذرة، أما (أدهم)، فجلس على طرف السرير، دفتره مفتوح بين

يديه، يكتب بخط متماسك كأنه يوثّق اللحظة ذاتها، يدوّن الأفكار والانطباعات. بين الحين والآخر يرفع رأسه إليهما، يتأمّل حركاتهما، ثم يعود إلى الورق من جديد.

وحين انتهت (ليلى) و(فريد) من الترتيب، تبادلا نظرات صامتة، ثم اقتربا من (أدهم). أغلق دفتره بهدوء ونهض، كأنه حسم كل شيء. قال بصوت منخفض:

- إذن.. حان الوقت.

خرجوا ثلاثتهم من الغرفة، والبيت غارق في سكون بعد نهار طويل من القلق. اتجهوا إلى المجلس حيث يجلس والد (ياسين)، يداعب سبحة صغيرة بين أصابعه. تقدّم (أدهم) بخطوات ثابتة وقال باحترام:

- عمّي.. نريد منك أن تدلّنا على بيت مُدثّر، لكن قبل غروب الشمس.

ساد الصمت لحظة، ارتسم خلالها التردّد والرهبة على وجه الرجل، كأن الكلمات أثقلت صدره فجأة. نظر إليهم واحدًا تلو الآخر، ثم شبك أصابعه ببطء فوق ركبتيه، كمن يستعد لبوحٍ لا مفرّ منه.. رفع رأسه ببطء، وفي ملامحه خليط من الحذر والإصرار. قال بصوت خافت:

- سأدلّكم على بيت مُدثّر.. لكن بشروط.

اقتربت (ليلى) بخطوة، والقلق يطفو على وجهها، فسألته:

- وما هي؟

تنحنح الرجل، ثم تابع وهو يشدّ قبضتيه:

- لن أدخل معكم، ولن تطأ قدمي ذلك المكان، سأكتفي بأن

أرشدكم إلى الطريق، ثم أترككم، وما ستفعلونه هناك شأنكم وحدكم.

رمقه (أدهم) مطولًا، ثم أجابه بنبرة واثقة:

- يكفينا أن تدلّنا عليه.. الباقي علينا.

تنفّس الرجل بعمق، كمن أزاح حملًا ثقيلًا عن صدره، ثم قام واقفًا، وأشار نحو النافذة حيث كانت الشمس تميل إلى الغروب:

- أمامكم وقت قصير.. فلتتهيّأوا.

كانت الشمس تهبط ببطء، كما لو أنها تتردّد في مغادرة السماء، تاركة خلفها ذيولًا من نورٍ ذابلٍ يتسلّل بين أغصان الأشجار اليابسة، الهواء نفسه بدا مثقلاً، لا يُدرى أهو صدى الريح أم أنين الأرض. سار (أدهم) في المقدّمة، خطواته ثابتة، وعيناه متوثّبتان كمن يقرأ في الأفق سرًّا غامضًا، وخلفه (ليلى) تمسك حقيبتها بقوّة، تتابع الطريق بعينين فيهما قلقٌ وفضول، و(فريد) يجرّ الكاميرا على كتفه، يحاول أن يخفي ارتجاف يده خلف ملامح متماسكة.

أما الرجل، والد (ياسين)، فكان يسبقهم قليلًا، صامتًا، كتلة من الكتمان والوجل، وكلما تقدّم بهم في الدرب الضيق ازدادت الأرض وعورة. وحين بلغوا أطراف القرية، أشار الرجل إلى بيت منفرد عند حافة البساتين، وقال بصوت متقطّع:

- هذا هو بيت مُدثّر.. إلى هنا ينتهي دوري.

توقّفوا جميعًا، وجاشت في صدورهم رهبة صامتة. كان

البيت ينتصب عند أطراف القرية، وحيدًا، كأنه نُزع عمدًا من صدر العمران ووُضع هنا منبوذًا. جدرانه الرمادية تنزف شقوقًا عميقة، تشبه ندوبًا قديمة لم تلتئم، تتخلّلها خطوط سوداء كآثار لحريقٍ خفيّ. السقف مائل، تتدلّى منه أخشاب بالية متآكلة، والنوافذ محطّمة، بعضُها شدّ بألواح خشبية عرجاء، والبعض الآخر يفتح فمه على عتمةٍ داخلية، كأفواهٍ جائعة تتربّص بمن يقترب. الباب الخشبي الضخم، المغلق بإحكام، كان مائلًا بعض الشيء، وعليه بقع داكنة متيبّسة، تُشبه الدم وقد التصق بالخشب. حول البيت العشب يابس، والأرض جرداء، كأن الحياة رفضت الاقتراب من هذا المكان. حتى الطيور لم تجرؤ أن تحطّ على جدرانه، بل ظلّت تحلّق بعيدًا، تترقّب في صمتٍ حذر، والجوّ حوله أثقل من أي مكان آخر، كأن أنفاسه محبوسة في صدره منذ زمنٍ بعيد. كان البيت أقرب إلى قبرٍ منتصب، يؤكّد بأن داخله ليس فراغًا، بل سجنًا لشيءٍ أبعد من أن يُسمّى.

قال (فريد) بصوت متقطّع:

- هذا.. ليس بيتًا، بل قبر مفتوح..

أما (أدهم) فظل ثابتًا، عيناه تراقبان كل زاوية، يحاول أن يقرأ صمت الجدران كما لو أنه نصّ خفي. كان قلبه يطرق صدره بعنف، لكنه تقدّم خطوة، وقال بنبرةٍ حازمة تخفي توتره:

- إذا أردنا أن نعرف ما يحدث في هذه القرية.. فهنا سنجد الإجابة، أو على الأقل بدايتها.

مدّ (أدهم) يده إلى الباب الخشبي العتيق، دفعه ببطءٍ

ثقيل، فصرخ المفصل بصريرٍ ممتد. انفتح المدخل فاندفعت رائحة خانقة، خليط من العفن والدخان البائد. رفعت (ليلى) يدها إلى أنفها، وعيناها تتنقّلان بين الظلال المتراكمة، ورفع (فريد) الكاميرا المرتجفة بين يديه، يحاول أن يضبط العدسة، لكن ارتعاش أصابعه كان يفضح خوفه أكثر مما يخفيه.

تقدّم (أدهم) بخطوة ثابتة، نبرته منخفضة لكنها صارمة:

- ما جئنا نبحث عنه يبدأ من هنا.

في الخارج، ظلّ والد (ياسين) واقفًا عند السور الحجري، عيناه تتابعهم دون أن يجرؤ على الاقتراب، جسده مشدود، كان يضغط كفّه على الأخرى خلف ظهره ليحجب ارتجافها، وتمتم بصوتٍ لا يسمعه أحد:

- اللهم احفظهم..

ظلّ الباب مفتوحًا خلفهم، يتأرجح بخفّة مع نسمات الريح، ليذكّرهم في كل لحظة أن الخروج ممكن، لكن قرار البقاء كان أشبه بعبور خطّ لا عودة منه. خطا الثلاثة إلى الداخل، فانغلق الصمت خلفهم كستارةٍ ثقيلة، تاركًا لهم بيتًا لا يشبه البيوت، بل مقبرة عتيقة تنبض باللعنات.

الجدران ارتفعت أمامهم كأجسادٍ مليئة بالجروح؛ بقع سوداء من الرطوبة تمددت في أشكال غريبة، بعضها بدا أقرب إلى وجوهٍ باهتة تبتسم من العدم. فوقها، كانت هناك خطوط حمراء باهتة، مرسومة بيدٍ مرتجفة، تُشكّل صلبانًا مقلوبة ونجومًا خماسية متشابكة، كل رمز بدا كما لو أنه ينزف معنىً شيطانيًا لا يحتاج إلى ترجمة. الأرض غُطّيت بأوراق متناثرة،

كتب قديمة متهالكة صفحاتها ممزقة، وحروفها ممحوة جزئيًا، لكن بعضها ظل واضحًا، نصوص بلغةٍ غريبة تقطر وعيدًا وسحرًا، فيها طلاسم محفورة بالدم والرماد. بعضها كان ملطخًا ببقعٍ داكنة، لم يعرفوا إن كانت حبرًا أم شيئًا آخر لا يودّون تسميته.

وفي أركان الصالة، تناثرت رؤوس حيوانات متيبّسة، عيونها الجافة ما زالت مثبتة في فراغٍ سرمدي، بعضها معلّق بخيوطٍ رفيعة في السقف، يتأرجح ببطءٍ كلما مرّ تيار هواء بارد، يصدر أزيزًا متقطّعًا يبعث في العظام رجفة.

أما وسط الغرفة، فقد كانت هناك دمى صغيرة مصنوعة من القماش والجلد، محشوة بريشٍ وعظام دقيقة، مغروزة فيها دبابيس صدئة، بعضها يحمل خصل شعر بشرية، وأخرى عليها بقع دم متجمّد، شواهد حيّة على طقوسٍ أُجريت هنا منذ زمنٍ قريب. وضعت (ليلى) يدها على صدرها تكبح شهقتها، وعيناها تدوران في كل زاوية. رفع (فريد) الكاميرا بيدٍ مرتجفة، العدسة ترتجف معه، يلتقط صورًا لخطوط الطلاسم التي تغطّي الجدران كشبكة عنكبوتية لا مفرّ منها. أما (أدهم) فظل ثابتًا، عيناه تتحرّكان بين الرموز والدمى والكتب، يقرأ بعينيه تاريخًا من الرعب المرسوم بالحبر والدم. تمتم بصوتٍ خافت، أشبه باعتراف:

- هذا المكان.. ليس مهجورًا، بل ما زال حيًا!

وبينما أعينهم ما زالت تلتهم كل ما في الصالة من فوضى وطلاسم، وقع نظر (أدهم) على زاوية مظلمة من البيت. هناك، حيث يتجمّع الغبار في طبقة كثيفة، بدا خشبٌ قديم

متآكل، سُلّمٌ ضيق يلتفّ صاعدًا إلى الدور العلوي، درجاته سوداء من القِدم، وبعضها مشروخ. أشار (أدهم) برأسه نحو السلم، وصوته مبحوح لكنه حاسم:

- علينا أن نصعد.

قبض (فريد) على الكاميرا كأنها الدرع الوحيد بينه وبين الجحيم، ثم همس مترددًا:

- أتظن.. أننا سنجد شيئًا؟

لم تجبه (ليلى)، كانت عيناها معلّقتين بالظلال التي تغطّي أعلى السلم، حيث لا يصل ضوء النهار. رغم ذلك خطت خطوة إلى الأمام. بدأوا في الصعود، كل درجة أصدرت أنينًا غريبًا، لا يشبه مجرّد صرير الخشب، بل بدا أقرب إلى نواحٍ مكتوم. الهواء، كلما ارتفعوا، صار أبرد، مشبعًا برائحة عطنٍ ورماد. تعثّر (فريد) وهو يصعد، كاد يسقط لولا أن (أدهم) أمسك بذراعه بصرامة، وقال له بهدوءٍ غريب وسط كل التوتر:

- لا تتوقف عن التصوير.. مهما رأيت.

واصلوا الصعود حتى وصلوا إلى عتبة الدور الثاني. الظلام هناك كان مختلفًا، ليس مجرّد غياب للضوء. استقبلهم ممرّ ضيق يضربه الظلام من أوله إلى آخره، تتناثر على أرضه قطع خشب مكسور وبقايا قماش متعفن. الجدران هنا لم تكن صامتة؛ الطباشير الأسود والرموز الحمراء تغطّيها في خطوطٍ متشابكة. على جانبي الممر، أبواب متفرقة، بعضها نصف مفتوح، والهواء يتسرّب منها محمّلًا برائحة ثقيلة، مزيج بين البخور المحترق واللحم المتحلّل.

توقّف (أدهم) لحظة، عيناه تتفحّصان الأبواب، وهمس:

- سنبدأ واحدة تلو الأخرى.

دفع بيده أوّل باب، فانفتح على غرفة ضيّقة، لم يكن فيها سوى سرير صدئ عليه مرتبة ممزّقة، وأكوام قماش بالٍ تفوح منها رائحة العفن، لا شيء سوى الإهمال. ثم مضوا إلى الباب التالي، فانكشف عن غرفة أكبر، جدرانها ملطّخة بآثار دخان أسود، وكأن نيرانًا قد اشتعلت فيها يومًا. وسط الغرفة وُجدت بقايا طاولة مقلوبة، وحولها زجاجات فارغة، بعضها لا يزال يحمل بقايا سوائل داكنة، جافّة كدمٍ قديم.

لكن الباب الثالث.. كان أوسع انفتاحًا. تبادلوا نظرات متوترة، ثم دفعه (أدهم) ببطء. الغرفة بدت مختلفة.. واسعة، أرضيتها ملطّخة بطبقات غامقة من بقع يصعب تمييز أصلها، وجدرانها مكتظّة برموز معقّدة نُقشت بعناية. في الوسط، على الأرض مباشرة، انتصب ما يشبه منصّة خشبية منخفضة، حولها دوائر مطليّة بمادّة داكنة، وقد وُضعت فوقها بقايا عظام صغيرة متناثرة. تقدّم (أدهم) خطوة داخل الغرفة، نظر مليًا إلى الطلاسم والعظام، ثم قال بصوت خافت، لكن نبرته لم تُخفِ ما شعر به:

- هنا.. كان مُدثّر يقيم طقوسه..

توقّف عند جدار غارق في السواد، وقد اختلطت خطوط الطباشير بآثار دمٍ متيبّس، فانعكس عليها ضوء المصابيح المرتعشة كأنها تنبض بالحياة. مدّ يده متفحّصًا العلامات، ثم قال بصوت عميق يقطر رهبة:

- «هذه ليست خربشات عابثة.. إنها طلاسم فودو، أعرفها جيدًا من خلال بحثي المتواصل. انظروا إلى النجمة الخماسية المقلوبة، تتقاطع في داخلها دوائر متداخلة.. إنهم يرسمونها لتكون بوابة، نافذة تُفتح بين عالمنا وعالمٍ آخر لا يُدرك بالعقل».

ثم التفت إلى زاوية الغرفة، حيث تتدلّى دمى قماشية بالية من خيوط حمراء متيبّسة كأنها شرايين مجفّفة، وقال:

- «هذه هي **Poppets**.. دمى تُصنع لأشخاصٍ بعينهم، يُغرس في جوفها خصلة شعر، أو قطعة ظفر، أو خرقة من الثياب. وكل مسمار مغروز في صدرها أو أطرافها.. ينعكس ألمًا مبرحًا في جسد صاحبها الحقيقي».

اقترب من رفٍّ محطّم تنتشر فوقه جرار فخارية صغيرة، يندلع منها عبق كريه يلسع الأنف، وقال:

- «في هذه الأوعية تُحفظ الخلائط؛ عظام مهشمة، رماد أجساد، وربما أجزاء بشرية من مقابر منسيّة، تُستخدم لتقييد الأرواح، أو لاستدعاء لعنةٍ تطول أجيالًا».

ثم انحنى فالتقط كتابًا ممزق الأوراق، غلافه البالي مرسوم عليه عين مفتوحة تحدّق في العدم، وحولها رموز لا يفكّها عقل عامي. قلّب بعض الصفحات وقال بملامح متصلبة:

- «هنا تكمن الطقوس.. صفحات بالفرنسية واللاتينية، وأخرى بخطوط أفريقية قديمة. الخطر في هذه النصوص أنها لا تقوم على الرسم وحده، بل تحتاج إلى الدم.. دمٍ جديد، طريّ، كأن الحياة ذاتها تُسفك لتغذّي السحر».

سادت الرهبة، ولا يُسمع إلا أنفاس متقطعة ورعشة ضوء صادرة من الكشاف، ثم رفع (أدهم) رأسه نحو رفاقه، وصوته يخرج مبحوحًا متثاقلاً:

- «نحن لا نقف في بيتٍ مهجور.. بل في معبدٍ للعنة، وها نحن على عتبته.».

خطت (ليلى) بضع خطوات إلى الداخل، وإذا بصرخة مكتومة تفلت من شفتيها وهي تشير نحو الأرضية. رفعت الكشاف ليتضح المشهد.. الأرض مغطاة بحشرات داكنة اللون، خنافس ضخمة تتزاحم في خطوط متشابكة، كأنها جيش صامت يزحف نحو الظلام. كانت تتحرك بسرعة غريبة، تصطدم بالجدران وتعود، ثم تنفرج لتكشف عن بقع رطبة أشبه بالقيح.

قالت بصوت متوتر:

- «انظروا.. المكان يعجّ بهذه الكائنات..»

انحنى (فريد) متأملًا، محاولًا إخفاء اشمئزازه، بينما ضغط (أدهم) على دفتره بيده وكأن المشهد ليس غريبًا على عينه، ثم عقّب بصوت جاد:

- «الحشرات هنا ليست عبثًا..»

اشتدت حركة الخنافس فجأة، كأنها استشعرت وجودهم، فارتجفت (ليلى) وتراجعت خطوة، بينما ارتسمت على وجوههم ظلال الخوف، فخطا (أدهم) خارج الغرفة بخطوات حادة:

- «يكفينا ما رأيناه، لنخرج حالًا».

لحقت به (ليلى) وهي تلتفت خلفها بقلق، لتتأكد أن شيئًا لن يلاحقهم من الداخل، أما (فريد) فظلّت عيناه معلّقتين بأرض الغرفة حتى آخر لحظة، يتابع الحشرات وهي تتناثر في كل اتجاه، قبل أن يُغلق الباب خلفهم بيد مرتعشة.

تجمّعوا في الممر، لم يتبادلوا كلمة واحدة، لكن أعينهم كانت كافية لتقول ما في الصدور. ارتجّ الممرّ فجأة على وقع أصوات خافتة، أشبه بهمسات بعيدة تختلط مع وقع خطوات غير مرئية. توقّف الثلاثة في أماكنهم، العيون متبادلة بين ذهول وارتياب.

رفعت (ليلى) كشافها بسرعة، خطّ الضوء اخترق العتمة وارتدّ على الجدران الملطّخة برموز باهتة، فيما رفع (أدهم) كشافه هو الآخر، يفتّش الزوايا كمن يبحث عن عدوّ متربّص. أما (فريد)، فقبض على الكاميرا بكل ما أوتي من قوة، العدسة تهتز بين يديه مع أنفاسه المتسارعة، لكنه لم يُبعدها.

على الجدران، بدأت ظلال تتحرّك، لا جسد يحركها، ولا مصدر ضوء آخر سوى شعاع الكشافات. تلوّنت، انطوت، انشطرت..

تجمّد (أدهم)، عيناه تتتبّعان كل انحناءة، كل انعطافة، وكل تذبذب غير منطقي. (ليلى) قبضت على يدها بإحكام، وضوء الكشاف ارتجف على وجنتيها، ترفض أن تبصر الظلال مباشرة، لكن كل جزء من جسدها يصرّ على متابعة الرقص الغريب لتلك الأشباح المجهولة. (فريد)، وهو يمسك الكاميرا، شعر بأن شعاع العدسة لا يكتفي برصد الظلال، بل وكأنها تستجيب له، تتحرّك وتتلوّى أمامه وكأنها تدرك أنه يراقبها.

صوته ارتجف، هامسًا:

- ما.. ما هذا؟

لكن لا جواب، سوى تحرّكات الظلال. اخترق الصمت أصوات ضحكات، خافتة في البداية، ثم أخذت تتعالى، تتنقّل بين الغرف، متسلّلة من زاوية إلى أخرى، حادّة، مجنونة، تحمل في طياتها سخريةً لا يمكن مواجهتها.

قبضت (ليلى) على يدها بقوة، عينان متسعتان، والجبين مغطّى بالعرق، همست بصوتٍ خافت كأنها تكلم نفسها:

- هل تسمعون هذا؟

رفع (أدهم) صوته بهدوءٍ متماسك، محاولًا أن يوازن بين الخوف واليقظة:

- نعم.. إنها تأتي من الغرف كلها..

(فريد)، ممسكًا بالكاميرا، حاول أن يلتقط كل شيء، صوته يرتجف وهو يهمس:

- هذه.. هذه ليست ضحكات بشرية.. شيء آخر.. شيئًا لا يمكن وصفه.

الضحكات استمرت، تتقاطع وتتماوج، تتردد بين الجدران، تتسلّل إلى آذانهم، تغرس في الصدر رهبةً لا تُقاوم. تحرّك (أدهم) بخطوات بطيئة، عيناه ترصدان كل حركة، كل ظل. (ليلى) التفتت إليه بعينين شاخصتين. (فريد) حاول تثبيت الكاميرا، والضحكات، تلك الصوتيات المجنونة، لم تتوقف، بل بدت وكأنها تستجيب لهم، تتقوّى كلما اقتربوا من مركز الغرفة، تزداد وقعًا، تُضعف صبرهم وتزيد يقظتهم.

وبينما كانت الضحكات تتصاعد وتلتف حولهم، التفت (فريد) فجأة، شعور بشيء غريب اجتاحه كالصاعقة. من طرف عينه، لمح حركة عند زاوية الغرفة، خلف الستائر الممزقة والظلال المتلوّية. خرجت منها امرأة، ثابتة في خطواتها، وجهها باهت بلا تعبير، عينان تلمعان ببرودةٍ قاتلة. قلب (فريد) تكسّر عند اللحظة الأولى، وروحه ارتعشت كما لو أن الزمان توقّف لحظة واحدة.

وقف أمامه ما بدا أنها والدته، لكنها لم تكن كما عرفها. لقد مضت عشرة أعوام منذ رحيلها، وها هي تعود، بلا صوت، بلا حراك سوى عينيها السوداوين الثابتتين، تحدّقان في (فريد) بلا رحمة.

- ماما.. ؟

همس (فريد) بصوتٍ يرتجف، كلماته اختنقت في حلقه، عيناه لا تصدّقان ما ترى.

حاول (أدهم) و(ليلى) لفت انتباهه، ولكن دون فائدة. وفجأة، انبعث صوت خافت، رقيق لكنه يقفز إلى أعماق الروح:

- يا (فريد).. تعال..

ارتجف قلبه، ومع كل نبضة كانت ساقاه ترفضان الطاعة، عقله يتصارع بين المنطق والرعب.

التفت (أدهم) إليه، وقال بصوتٍ مشوب بالقلق:

- (فريد)! ما بك؟ ركّز معنا!

لكن (فريد) لم يسمع، فقط همس داخله صدى الصوت الذي

يطلبه، ويجذبه نحو الزاوية المظلمة. كان كل شيء حوله باهتًا، والضوء الخافت للكشافات لم يُفلح في طمس الظلال التي تتلوّى على الجدران.

همست (ليلى) بخوف:

- ماذا يحدث له؟

أخذ (أدهم) نفسًا عميقًا، محاولًا فرض السيطرة:

- (فريد).. ارجع إلينا! لا تسمح لأي شيء أن يجذبك بعيدًا!

لكن فجأة، ظهرت أمامه، بلا خطوة ولا حركة، عينان سوداوان تلمعان في الظلام.. وجه مألوف، لكنه مختلف، والصوت نفسه الذي عرفه منذ طفولته:

- تعال إليّ.. لا تخف..

وقف (أدهم) و(ليلى) مذهولين، عاجزين عن تفسير ما يرونه، بينما بدأ (فريد) يتحرّك ببطء، كما لو أن قوة خفية تمسكه، تسحبه نحو ما لا يعرفه، بعيدًا عن الواقع، بعيدًا عن أعينهم، في صمتٍ يزداد ثقلًا كل ثانية.

الفصل الرابع عشر

ارتعش (فريد) فجأة، وجلس على حافة الأرضية، عيناه تائهتان بين الواقع والظل الذي أمامه، لا يسمع إلا دقات قلبه وهي تتصادم بصمت. الدموع انسكبت على وجنتيه، والرجفة في صوته لم تعد تخفيها الكلمات. اقترب (أدهم) منه بخطوات ثابتة، يديه تمسكان كتفيه بقوة، عيناه تنظران مباشرة في عينيه، وصوته صار حادًا، مثقلًا باليقين:

- (فريد).. اصحُ، تمالك نفسك! انظر إليّ! ماذا ترى؟ هل تريد أن تدع الظلال تتحكم بك؟

ارتجف (فريد)، وصوته اختنق، فهَمَس:

- أمي.. أمي! ألم ترَها؟ كانت هنا.. كانت تقول لي أن أذهب إليها..!

قبضت (ليلى) على معصمها، تحاول أن تمنع صوتها من الخروج، لكن الخوف يعتصر قلبها. عيناها تلمعان، وكل نفس منها يختنق بين الرعب والصدمة. لم يتحرك (أدهم) من مكانه، وقف ثابتًا كالصخرة، وصوته صار أكثر عمقًا، أكثر ثباتًا، يقتحم الرعب المحيط بهم:

- توقف عن الهلع.. نحن هنا لنواجه، لا لننهار. لا أحد سيسلبنا إرادتنا. تذكّر.. أنا هنا، ونحن معًا.

تقدم (فريد) ببطء، ويدا (أدهم) لا تزالان تمسكان به، وكأنهما تعيدانِه من حافة الهاوية.

- أنا هنا.. لن أدع الظلال تمسك بك وحدك.

كان صوته يقطع الضباب الذي يلف المكان. الظلال لم تتحرك، والهواء يئن حولهم، والضحكات الخافتة تتسلل بين الزوايا، لكن ثباته صار حصنًا أمامها. وثبات (ليلى) بدأ يشتد، وارتجاف (فريد) بدأ يلين، بينما (أدهم) يهمس بصوت منخفض لكنه قوي:

- ركّز على الأرض.. ركّز على ما يحيط بك.. لن نسمح لأي شيء أن يختطفنا.

لحظة صمت دامية، ثم اقترب (فريد)، وعيناه تتلاشى فيهما الدموع، لكنه بدأ يشعر بالسيطرة على نفسه، بينما بقي (أدهم) ثابتًا، عيناه تشعّان بالقوة واليقين، ويداه تلمسان كتفي (فريد)، كأنه يعيده إلى الحياة. ارتجف (فريد)، ثم نظر إلى (أدهم) بعينين تفيضان بالرعب والارتباك، وصوته يخرج بصعوبة:

- (أدهم).. أرجوك.. دعنا نخرج من هنا، لم أعد أستطيع التحمّل.. الهواء يختنق حولي، والظلال.. لا تنتهي.

كانت (ليلى) بجانبه تلتقط أنفاسها بصعوبة، وعيناها لا تفارقان الظلال التي تتلوى على الجدران. تشبثت بيد (فريد)، محاولةً أن تجد لنفسها متنفسًا من الرعب الذي يلتهم المكان. تنفّس (أدهم) ببطء، شعر بالثقل على صدره، لكنه لم يرفع صوته، ولم ينهَر أمام الظلال، بل نظر إلى (فريد) بعينين ثابتتين، وصوته صار هادئًا، مؤثرًا، كما لو أنه يرسم خطًّا بين الواقع والرعب:

- حسنًا.. لن نطيل البقاء هنا.

كان الخوف لا يزال يضغط على صدورهم. الهواء البارد

يتسلل عبر الأبواب الموصدة والنوافذ المكسورة. حمل كلٌّ منهم كشافه، والضوء الأبيض الشاحب يقطع العتمة كرمحٍ بلا رحمة، يكشف الزوايا والدرجات المتهالكة في السلم الذي يؤدي إلى الأسفل.

أصوات خطواتهم ارتدت صدى ضيقًا في الجدران، لكن لم يكن صدى الأقدام وحده ما يملأ المكان.. شعور غريب اجتاحهم، شعور أن أعينًا خفية تتبعهم، تراقب كل حركة، كل نفس، كل تردد. ظلوا يتقدمون بحذر، الكشافات تتحرك ببطء، تكشف درجات السلم المتهالكة، وتلقي بظلال طويلة ملتفة على الجدران، ظلال تتلوى بلا جسد، كأنها كائنات تنتظر لحظة الانقضاض.

حاول (فريد) أن يثبت الكاميرا، لكن يده كانت ترتعش، وعيناه تتسعان. كل ظل يلتقطه شعوره. تقدمت (ليلى) بخطوات مترددة، وعيناها تبحثان عن أي حركة غير طبيعية. كل شيء حولها ينبئ بالخطر، وكل خفقة قلبها تعلو مع صرير الخشب تحت أقدامهم. قادهم (أدهم) بخطوات ثابتة، عيناه لا تفارقان الظلام، وصوته هادئ لكنه مشحون باليقين:

- انتبهوا.. هناك من يراقبنا.. ولا نعرف ماذا يخطط.

اختلط الهواء برائحة العفونة القديمة والغبار، حتى شعروا وكأن أصوات الأرواح المعلّقة تهمس حولهم. ضحكات مكتومة لا يمكن تحديد مصدرها، وعيون غير مرئية تلمع في الظلال، تراقبهم بلا رحمة. مع كل درجة يهبطونها، كان شعورهم بالخطر يتصاعد، والسلم نفسه يبتلعهم، يحاول إخضاعهم لصمتٍ أكبر، ولرعبٍ لا يمكن الفرار منه.

عند وصولهم إلى الطابق الأرضي، توقف (أدهم) أمام باب نصف مفتوح، يتسلل منه ضوء شاحب على الأرضية المليئة بالغبار والرموز الغريبة: الصلبان المقلوبة، النجوم الخماسية، وطلاسم سحر الفودو المرسومة بالدم والرماد على الجدران.

رفع (أدهم) الكشاف عاليًا، يدور الضوء ببطء على كل زاوية، وكل رمز، وكل قطعة من الدمى المقطوعة الرؤوس، كأن المكان نفسه يزفر الرعب.

قالت (ليلى) بصوتٍ متردد، لكنه حازم:

- أنا.. لن أدخل، سأنتظر خارجًا.

التفت إليها (أدهم)، وصوته منخفض، حاد، ومشحون باليقين:

- (ليلى)، إن هذا هو الموضع الذي سيفشي أسرارًا لا سبيل لتجاهلها. كل لحظة ضياع تعني فوات الحقيقة.

هزّت رأسها بعزم، وعيناها ثابتتان على (أدهم):

- لا أستطيع. أنتم من تدخلون، وسأبقى هنا.

وقف (فريد) مذهولًا، تتقاذف كلمات التردد بينه وبين نفسه:

- (أدهم).. هل سنخوض ذلك بمفردنا؟

أجاب (أدهم) بثبات، وصوته يزن كل كلمة:

- نعم، يجب أن نعرف ما يكمن هنا.

خطوا نحو الغرفة، والضوء يكشف المزيد من الرموز الملعونة، والهواء يثقل بالروائح الكريهة والغبار. خارج الغرفة،

بقيت (ليلى) واقفة عند الباب، بينما دخل (أدهم) و(فريد)، خطواتهما ثقيلة، والرموز على الجدران تنطق بما هو أكثر رعبًا مما يتصوران.

دفع (أدهم) الباب ببطء، فانفجر الضوء من كشافه على مشهدٍ صادم. الأرضية كانت مفروشة بجثث متحللة، بعضها عظام فقط، وأخرى تحتفظ ببقايا لحم متكلّس. كل خطوة كانت صدى كأنه يوقظ صمتًا طويلًا كان يختنق في أركان الغرفة. الروائح اختلطت؛ من رائحة الدم القديم إلى العفن، ومعها عبق الغموض الذي يمتزج بالخطر.

وقف (فريد) خلفه، يده ترتجف على الكاميرا. كل ما استطاع فعله هو تسجيل كل شيء بعينيه المرتعشتين، غير قادر على النطق.

- (أدهم).. هل.. هل هذه.. ؟

لم يُجب (أدهم) فورًا. عيناه تتفحصان الجثث، وقلبه يخفق بسرعة، لكنه يحاول أن يثبت نفسه أمام (فريد). صوته منخفض وحازم:

- علينا أن نرى كل شيء. هذا هو الواقع هنا.. كل ما كان مخفيًا يتجلى أمامنا.

كانت (ليلى)، التي تقف خلفهما، تضغط على شفتيها محاولة كبح قلقها، لكن الكشاف الذي في يدها كشف تفاصيل إضافية: عظام متناثرة، جماجم نصف متكسرة، وكتابات على الجدران بخطوط غريبة باللون الأحمر الداكن، تبدو وكأنها تحكي تحذيرًا صامتًا لكل من يدخل.

أصوات خطواتهم على الأرض المتكسرة حرّكت الهواء بين الجدران المتهالكة، وجعلت الظلال تتلوى حولهم. تحرّك (أدهم) خطوة إلى الأمام، ورفع كشافه نحو زاوية الغرفة:

- انظروا.. هناك المزيد.

وفي طرف الغرفة، تكدست هياكل عظمية بجانب بعضها، بعض الأيادي مرفوعة كما لو أنها حاولت الحماية، وأخرى ممسكة ببقايا كتب ممزقة تحمل طلاسم.

تنفّس (فريد) بصعوبة، وصوته بالكاد يخرج:

- هذا.. هذا مستحيل..

شدّ (أدهم) كتفيه، وصوته صار أشد هدوءًا وثباتًا:

- ليس مستحيلًا، يا (فريد).. هذا ما يجب أن نراه. كنت أتوقع هذا.. كل خطوة هنا تكشف جزءًا من الحقيقة. مُدبّر لعن القرية، لكن لا أعلم بأي هدف؟

تراجعت (ليلى) خطوة إلى الوراء، وجهها شاحب، وعيناها تتسعان في رعبٍ صامت. ارتجف صوتها حين نطقت، وكأن الحروف نفسها تكاد تتكسر بين أسنانها:

- لا.. لا يمكننا البقاء هنا أكثر.. يجب أن نخرج من هذا البيت، الآن.. قبل أن يبتلعنا ما فيه!

تقدّمت بخطوات مترددة، وقبضت على كتفي (أدهم) و(فريد)، محاولةً أن تثبت وجودها أمامهما، بينما الدموع تكاد تتدفق من عينيها:

- أرجوكم.. لا تحاولوا رؤية المزيد. هذا المكان.. هذا المكان ليس لنا!

رغم ثباته الظاهر، شعر (أدهم) بالضغط النفسي يتصاعد في صدره. رفع يده برفق عن كتفها، ونظره كان حادًا لكنه هادئ:

- (ليلى).. أفهم خوفك. سنخرج، لكن ليس قبل أن ندوّن كل ما يجري، كل شيء.

أنزل (فريد) الكاميرا، ونظر إليها محاولًا أن يجد كلمات مواساة، وصوته خافت لكنه رزين:

- (ليلى).. سنبقى معًا.. أعدك.

أومأت (ليلى) ببطء، محاوِلة أن تستجمع قواها، لكن يديها لا تزالان ترتجفان، وأنفاسها تتسارع. كانت الحقيقة هنا، بين الظلال والجثث والهياكل العظمية، تقف أمامهم مثل عقابٍ صامت، تجبرهم على مواجهة ما لا يُحتمل.

التفت (أدهم) إلى (فريد) وهم يتهيآن للخروج:

- لن نخرج قبل أن نوثّق كل شيء.. ثم نغادر. سنكون أقوى إن عرفنا كل التفاصيل.

أجابت (ليلى)، رغم خوفها، بصوتٍ متقطع:

- حسنًا.. لكن أسرعوا.. كل دقيقة هنا تكاد تقتلني.

صوّب (أدهم) كشافه على الجدار المجاور، واهتزّ الضوء بين حجارة الجدار القديمة. تجمّدت عيناه على نقش محفور، يبدو أنه نُسج بخطّ غريب متعرّج، ينبعث منه وهجٌ قاتم في نصف الظلام:

ارتجف قلبه، وتجمّد في مكانه للحظة، بينما تذكّر على الفور

ذلك الاسم الذي قرأه في الكتاب.. كتاب الغيلان السود، الذي عثر عليه في غرفة أخيه (يحيى). الاسم نفسه، هنا، أمامه، محفور على الجدار. رفع (أدهم) كشافه ليقرّب الضوء من النقش، وحين انكشفت كل الحروف، شعر بشيء يضيق حول صدره، يضغط على كل خلية في جسده. ظلّ صدى الكلمة في ذهنه يتردّد مثل وقعٍ مأساوي، محفور في عقله:

«زخرائيل.. ملك الغيلان».

أدرك (أدهم)، بلا أي شك، أن الاسم لم يُكتب عبثًا، وأن مجرّد رؤيته هنا، في هذا البيت الملعون، يؤكّد كلام الشيخ (محفوظ) عن مُدثر. ظلّ (فريد) متجمّدًا بجانبه، لم يجرؤ على إصدار كلمة واحدة، فقط قبض على الكاميرا، واليد ترتعش، كأنها تحاول التمسك بشيء يضمن له النجاة. (ليلى) خلفهم، كتفها يرتجف، عيناها تلتصقان بالنقش، تحاول أن تفهم، لكن شيئًا في الاسم وحده جعل صمتها يرتفع إلى حدّ الرعب الصارخ، حتى لو لم ينطق أحد بكلمة.

تنفّس (أدهم) ببطء، حاول أن يسيطر على رعبه الداخلي، ومع ذلك كانت يداه ترتجفان وهو يحدّق في النقش، وفكّر في دفتره في حقيبة الظهر، في الكتاب الذي لم يُغلق منذ أن اكتشف أسرار الغيلان.

رفع (أدهم) رأسه، نظر إلى (فريد) و(ليلى)، وعيناه تحملان ثقل اللحظة، وعزمًا حادًا يقطع الصمت:

- كفى.. هذا المكان. يجب أن نخرج الآن!

تشنّجت ملامح (فريد)، والكاميرا تكاد تنسلّ من يده وهو يحاول هضم كلمات (أدهم)، لكن لم يكن أمامهم خيار آخر.

(ليلى)، رغم ارتجافها، شعرت بيد (أدهم) تلمس كتفها بلطف، محاولة أن تهدّئ الرعب المتسرّب إليها:

- عليكِ بالهدوء.. لن نمكث هنا، سنتحرّك خارج هذا البيت فورًا.

بدأوا في التراجع خطوةً خطوة. ضوء الكشاف يلتقط عوارض الغرفة، و(أدهم) متقدمًا، يتنفّس ببطء ليكبح الرعب الذي يختلج في صدره، وفي عقله كلمة واحدة تتردّد بلا انقطاع:

«زخرائيل.. ملك الغيلان».

- إلى الخارج.. الآن.

ابتعدوا عن البيت، خطواتهم كانت تتثاقل مع كل متر، والهواء يلتهم أنفاسهم. الأزقّة المظلمة كانت تتنفّس معهم، تحمل عبق ذكرى الرعب الذي عايشوه قبل دقائق، والهواء نفسه مشحون بالارتجاف. وبعد مسافة قصيرة، بدأ الضوء يتسلّل من بين البيوت، دفء مختلف عن برودة الليل، وإلى جواره ارتفعت أصوات بشرية؛ صخب وضحكات، موسيقى تتخلّلها أنغام الفرح، لا تشبه صدى ما خلّفوه في بيت مُدثّر، بل كانت عادية، مألوفة، كما لو أنّ الحياة حاولت أن تذكّرهم بوجودها رغم الأحداث التي مرّوا بها منذ أن وطئت أقدامهم هذه القرية.

وعند وصولهم إلى ساحة صغيرة في قلب القرية، اكتشفوا عُرسًا احتفاليًا، بسيطًا لكن مفعمًا بالحيوية؛ نساء يرتدين ثيابهن الملوّنة، ورجال يضحكون ويصافحون بعضهم، والزغاريد تتردّد بين الجدران القديمة، موسيقى على آلة

مزمار وطبول خفيفة، وأطفال يركضون بين الأرجل، يزيّنون المكان بأصواتهم وبراءتهم. على الرغم من بساطة المشهد ودفء الاحتفال، بقيت في عيونهم لمحة غريبة، شعور بأن شيئًا ما يكمن خلف الفرح الظاهر، وأن الحياة التي يرونها ليست بعيدة تمامًا عن الأسرار المظلمة التي تركوها خلفهم.

كانوا يمزّون بين الحضور، أقدامهم على الأرض بخطى حذرة، وقلوبهم تحمل تردّدًا خفيفًا، بين الرعب الذي خلّفوه وراءهم، وبين الدفء الغامض الذي حاول العرس أن يقدّمه لهم.

وبينما كانوا يمرّون بين الحضور، اقترب منهم رجل طويل القامة، شامخ الطلعة، وجهه مشرق بالودّ، وعيناه تحملان دفئًا غريبًا وسط الظلال التي خلّفوها. كان يرتدي عباءة تقليدية بسيطة، لكنها تمنح حضوره هيبة غير معلنة، يداه مفتوحتان في ترحيب رزين، وصوته ينضح ثِقلًا ووقارًا حين خاطبهم:

- مرحبًا بكم في قريتنا.. هذا فرح ابنتي، فتفضّلوا وشرفونا بحضوركم.

نظراته ثابتة، لا تترك أي تفصيلة تمرّ من حوله، يقرأ الحذر في وجوههم ويحتويه برزانة رجل يعرف كيف يسكّن القلوب المتيبّسة. وفي نبرة صوته رنين من الثقة والطمأنينة، لكنه يخفي بين حروفه شيئًا من الغموض، كما لو أنّ خلف هذا الترحيب حياةً أخرى تنتظر من يقترب أكثر.

خطواته هادئة، متأنّية، وهو يرافقهم صوب موكب الاحتفال، والهواء حولهم يعبق بمزيج من رائحة الأرض الدافئة، والألوان المبهجة التي حاولت الحياة أن ترسمها،

فيما ظلّ في أفق عيونهم شعور خافت بأن كل شيء في هذه القرية، حتى الفرح، يحمل ثِقل أسراره الخاصة.

تقدّم (أدهم) بخطوات هادئة، عيناه ترصدان كل حركة حوله، لاحظ نظرات الحضور التي تراقبه، متباينة بين الفضول والدهشة، يحاولون قراءة سرّ وجوده في هذا الفرح. مرّ بجانب صواني الطعام المكدّسة على الطاولات، تلمع ألوانها وتعبّر عن احتفاء القرية، بينما رجال وأطفال يحيطون بها في كل مكان، يتهامسون ويبتسمون، وأصواتهم تتداخل مع موسيقى العرس، فتخترق الصمت المترسّخ في قلبه. كل تفصيلة كانت بالنسبة له نافذة على حياة القرية التي لم يلمسها من قبل، لكن كل خطوة يخطوها تزيد إحساسه بثقل الأسرار المخفيّة تحت بساط الاحتفال.

أما (فريد) فترجّل منبهرًا، عيناه تتجوّلان على تفاصيل الحياة اليومية التي لم يرها من قبل؛ رأى الرجال جالسين على الأرضية المغطّاة بالزرع الذابل، يتبادلون الأحاديث ويضحكون بين لحظة وأخرى، بينما النساء يقفن بالقرب، متوجّهات بأعين يقظة، يحملن على وجوههن ابتسامات خافتة تحمل الدفء والفضول معًا. العرس امتدّ كلوحة حيّة، كل تفصيلة كانت تثقل قلبه بالدهشة.

اقترب منهم الرجل، ونظر إليهم نظرة ثاقبة، ثم ابتسم ابتسامة نصف خجولة ونصف رسمية، وقال بصوت حازم وودود في آن واحد:

- تفضّلوا، أنتم أيها الرجال اجلسوا هنا، أمّا السيّدة فلتتفضّل مع النساء.

تحرّك (فريد) و(أدهم) بخطى متأنّية، يتفقدان المكان بعينين مفتوحتين على تفاصيله الغريبة؛ من صواني الطعام إلى الزينة المعلّقة، بينما يحاولان استيعاب الأجواء الملتبسة التي تجمع بين البهجة والرعب في آنٍ واحد. أمّا (ليلى)، فقد تبعت النسوة، عيناها تبحثان عن أي حركة مفاجئة، وحذرها متّقد، لكنها مع ذلك تشعر بلمحة غريبة من الاطمئنان وسط هذا الجمع غير المألوف.

الجوّ كلّه مشحون بفرحٍ مريب؛ الألوان والروائح والوجوه جميعها توحي بأن لكل فرد هنا قصة، ولكل حركة سرّ، ولكل ابتسامة صدى من زمن بعيد لم يختفِ بعد.

اقترب الرجل من (فريد) و(أدهم) وهو يحمل صينية نحاسية عتيقة، انعكست عليها أضواء المشاعل المعلّقة المرتجفة، أنزلها أمامهما ببطء حتى استقرّت فوق حصيرٍ مهترئ مفروش على الأرض. كانت الصينية عامرة باللحوم؛ قطع ضخمة ما زالت تحتفظ بحرارتها، تتصاعد منها أبخرة نفّاذة تمتزج برائحة التوابل الثقيلة والدهون المشوية. وبين القطع الكبيرة بدت عروق حمراء لم تجفّ تمامًا، تلمع تحت الضوء وتثير في النفس ريبةً قبل أن تثير شهية.

ابتسم الرجل، عيناه تلمعان بصرامةٍ أكثر منها مودة، ومدّ يده مشيرًا إليهما:

- كلوا.. هذه من خير القرية.

عينا (فريد) لم تفارقا اللحم اللامع تحت المشاعل بلمعةٍ غريبة. من حولهما علت الزغاريد وضجّ التصفيق. امتدّت يد (فريد) ببطء، أصابعه اقتربت من قطعة لحم تتوهّج فوق

الصينية، عيناه مسحورتان بالمنظر، كأن شيئًا خفيًا يدفعه دفعًا.

في اللحظة نفسها، كان (أدهم) قد رفع عينيه عن الصينية، ومسح بنظره الجمع الجالس حول الصواني المنتشرة على التراب. رجال متحلّقون حول قطع اللحم، ينهشونها بأسنان صفراء متشققة، يمضغونها بخشونة، وصوت تكسير العظام يتردّد كطقطقة جافّة تحت سقف الليل. كل لقمة كانوا يبتلعونها كانت تترافق مع نظرة ثابتة، عيونهم تتابع (أدهم) و(فريد) ببرودٍ جارح، كأنهم ينتظرون ردّ فعل، أو يستمتعون بوضع الضيفين أمام امتحانٍ لا مهرب منه.

لم يكونوا يأكلون كما يأكل الناس؛ كانوا يقرشون العظام بأسنانهم، يضغطون عليها حتى تنفجر منها بقايا الدم، ثم يمرّرون ألسنتهم على الأصابع الملوّثة ببطء، ونظراتهم لا تفارق الضيفين لحظة.

شعر (أدهم)، وهو يراقب المشهد، بثِقَل يضغط على صدره؛ إحساس خفي بأن ما يجري أمامه ليس عرسًا، بل طقسًا مُقنّعًا، وأن كل عينٍ ترصدهما تحمل خلفها أكثر مما يُعلن.

أخذ (فريد) قطعة لحم داكنة اللون، رفعها إلى فمه محاولًا تجاهل النظرات النافذة، مضغها قليلًا، فإذا بالملمس غريب، والطعم باهت لا ملح فيه، كأنها لحم مسلوق بلا حياة، يختلط بزَفَرٍ مكتوم يثير الاشمئزاز. توقّف لحظة، ثم لفظها عنوة وهو يشيح بوجهه، كأن شيئًا خانقًا اجتاح حلقه.

في تلك اللحظة، كان (أدهم) يراقب المشهد بعينيه الحادتين، يتنقّل بين وجوه الرجال الغارقة في شراهتها،

وبين فم (فريد) المتقزز، وقد أدرك أن هذا الطعام ليس غريبًا في مذاقه فحسب.. بل غريب في سرّه.

تراجع (أدهم) قليلًا، وما يزال يتأمّل العيون الراكدة التي تحدّق فيهما؛ عيون تلمع بوهج لا يفصح عن ودّ ولا عن كراهية، بل عن شيء أبعد من الفهم. التفت إلى (فريد)، وصوته منخفض:

- أخرج الكاميرا يا (فريد).. صوّر كل شيء.

ارتبك (فريد)، ونظر إليه بعينين مضطربتين، وهمس كأن صوته يختبئ في صدره:

- أهذا وقتها يا (أدهم)؟!

قاطعه (أدهم) بحدّة، وكلماته كالسياط:

- قلت لك صوّر!

أطاعه، مدّ يده داخل الحقيبة، أخرج الكاميرا، وأطلق تنهيدة ثقيلة قبل أن يرفعها أمام عينيه. ضغط على زرّ التصوير، فإذا بالعدسة تُظهر مشهدًا صادمًا: المكان خاوٍ تمامًا.. لا رجال، لا نساء، لا صواني ولا ضحكات.. فراغ فقط.

شهق وتراجع خطوة إلى الوراء، صرخ وهو يحدّق في الشاشة بين يديه المرتجفتين:

- (أدهم).. انظر بنفسك! المكان.. فارغ!

انتزع (أدهم) الكاميرا منه، وجّهها نحو الجموع.. فلم يجد على الشاشة غير العدم. رفع رأسه بعينين متسعتين، فرأى الجميع جالسين في أماكنهم كما كانوا، يلتفتون نحوهما بوجوه جامدة، بابتسامات مشوّهة كأنها مرسومة على جلود

متشققة، وعظام تتقرش بين أنيابهم.

عاد (أدهم) يضع الكاميرا على عينه.. الفراغ. أنزلها.. فإذا الحشد قائم، يتنفَّس، يبتسم ابتسامات قاتلة، وعيناهما تقدحان شررًا غامضًا نحوهما.

هنا فقط، شعر (فريد) أن قلبه يوشك أن يتوقَّف، وأن العتمة أرحم من هذه الرؤية المتناوبة بين العدم والحضور.. كأنهما عالقان بين عالمين متداخلين: أحدهما يرى ما لا يحتمله العقل، والآخر يخفي ما لا ينبغي أن يُكشف.

وبعد لحظات، بدأ المكان كلّه يهتزّ تحت وقع الطبول؛ دقّاتها تتسارع كنبض قلبٍ عملاق يستيقظ من سباته. ومن بين الجموع المثبتة عيونها على الغريبين، تقدّم رجل ضخم الجسد، رأسه مغطّى بعمامة سوداء كثيفة، يدور حول نفسه بحركات دوّامية بطيئة، ثم أسرع فأسرع، حتى بدا جسده كدخان يتلوّى في الهواء. ارتفع الغبار من تحت قدميه، ومع كل دورة تعالت أصوات التهليل الغامض من الرجال والنساء، نغمة واحدة تُردّد، أشبه بدعاء مقيت لا يُفهم منه سوى وقع الخوف.

كانت العيون كلّها مسمّرة على (أدهم) و(فريد)، وكأن الطقس لم يعد طقس عرس، بل طقس نذر.. تضحية.

تقدّم شيخ عجوز، عيناه غائرتان كحفرتين لا قرار لهما، رفع يده بعصا ملتوية تنتهي بجمجمة صغيرة متفحّمة. وما إن رفعها حتى ساد صمت خاطف، قبل أن تنفجر الطبول من جديد، أشدّ وأقسى.

أمّا (ليلى)، فقد جلست بين نساء ساكنات كالصخر،

وجوههن محجوبة بخُمُر سوداء طويلة، لا يظهر منهن سوى العيون؛ عيون تلمع ببرودةٍ لا حياة فيها. أمام كل واحدة صينية مكدّسة باللحم والعظام، وأصابع نحيلة تمتدّ من تحت الخمار، تلتقط القطع وتُدخلها إلى أفواه خفيّة، ثم يتعالى صوت القضم.. صوت قاسٍ مقزّز، تكسير عظام لا يشبه مضغ البشر.

المشهد كان يخنق (ليلى): رائحة الدم، اللحم البارد، دويّ الطبول في الخارج، وأصوات القَرش تتداخل حتى صار عقلها يتأرجح بين خوفٍ وهلع.

وبينما هي متيبّسة في مكانها، شعرت بيد باردة تلمس ركبتها. انتفض جسدها، والتفتت، فإذا بامرأة جلست إلى جوارها، أقرب من اللازم. خمارها أسود أثقل من الباقيات، وأنفاسها تخرج ببطء، كأنها تتلذّذ بالصمت بينهما.

ثم، دون مقدّمة، انحنى رأسها قليلًا نحو (ليلى)، وانساب صوتها همسًا خافتًا، مبحوحًا كأنه صادر من صدرٍ فارغ:

- هل أعجبتكِ القرية.. ؟

لم يكن سؤالًا بريئًا، بل وشوشة من عالم آخر، تختبر أعصاب (ليلى) وتغرس فيها رعبًا لا مفرّ منه.

بلعت ريقها بصعوبة، وخرجت كلماتها متقطّعة، كأنها تُنتزع من بين ضلوعها:

- ق.. قريتكم غريبة نوعًا ما.. لم أرَ مثلها قط.

ضحكةٌ مكتومةٌ انبعثت من تحت الخمار، قصيرة لكنها حادة كخدش زجاج، ثم اقترب وجه المرأة أكثر، حتى شعرت

(ليلى) بحرارة أنفاسها الباردة تُلامس وجنتها.

- الغرابة يا صغيرتي.. لا تُرى في القرية، بل في القلوب التي تدوس أرضها.. ستعتادين، كما اعتدنا.

ارتجف جسدها، شعرت أن الكلمات ليست مجرّد صوت، بل كأنها خيوط خفية تُنسج حولها لتُحاصرها، عينها زاغت بين النسوة الأخريات، كلهن ما زلن يأكلن بنفس البطء الرتيب، أصابع تتحرك.. عظام تُقرَش.. ولا أحد يلتفت إليها. في قلبها صرخة تتعالى، لكنها محبوسة، تخشى أن تُسمع.. تخشى أن تجيبها القرية كلها دفعة واحدة.

أومأت المرأة بجلبةٍ خفيفة، ثم بحركةٍ بطيئةٍ مترددة رفعت طرفَ الخمار عن محيط وجهها، لم تُزِل الحجاب، إنما أذنت لعينَي (ليلى) برؤيا صغيرة، خاطفة، لم تتسع لها المدة لتُصنّفها ذهنها.

ما ظهر كان نصفَ وجهٍ نافذٍ كرمادٍ بارد؛ بشرةٌ شاحبة لا لونَ فيها يُذكر، عينٌ لا قزحية لها تحدّها حلقةٌ داكنةٌ عميقةُ السواد، وحدقةٌ كأنها فتحة ليل لا ينتهي، الشفةُ العليا رقيقة، والابتسامة التي لاحت كانت قطعَ ظلٍ أكثر منها تعبيرًا؛ أسنانٌ بيضاءُ صغيرةٌ، ليست معتادة، وكأنها تلاعبت بمسافاتٍ غير مُعتادةٍ بين فكيها.

همست المرأة بصوتٍ لطيفٍ مخنوق، لا يخرق الهدوء لكنه يدخل العظم:

- أنا سعيدة بوجودك بيننا.

انقبضت رئتاها وتسارعت نبضات قلبها، وشعرت ببرودةٍ

تنزل من رقبتها إلى راحة يدها التي كانت على الركبة، لكن في عينيها، وهي تختزلُ تلك اللمحة، براعمُ فهمٍ مقلق: ليس مجرّد وجهٍ غريب، بل أثرُ شلالةٍ ليست مكوّنةً من البشر وحدَهم.

لم تزل المرأةُ تُطأطئُ رأسها، كأنَّ سرًّا في العيون يأبى أن يُفضَح.. أعادت غطاءها ببطءٍ، فحلّ الظلام على نصف الوجه وكأنها لم ترِ شيئًا إطلاقًا. حولهما، لم يتوقف أحدٌ عن الأكل؛ الأصواتُ استمرت ببطءٍ مطاط، وكأنَّ الحضور لم يلحظوا شيئًا غير طبيعي.

ارتفع صُراخُها فجأةً من ناحية النساء، صرخةً حادةً اخترقت جدار الطبول وضوضاء الأهازيج، كأنها سهمٌ من نارٍ مزّق ستار الليل، ارتجّ قلب (فريد)، فاندفع يحاول النهوض، لكن (أدهم) أمسك بذراعه بقوةٍ، عينه تبرق بثباتٍ جليدي، وصوته المنخفض كالنصل:

- لا تتحرك.

نظر (فريد) حوله، فارتعد؛ كل الرجال الذين كانوا يطحنون العظام بأسنانهم القذرة توقفوا دفعةً واحدة، وأعينهم، تلك العيون الغائرة الموحلة، انغرست فيهما كحرابٍ صامتة. أنفاسهم الثقيلة تتصاعد، الأيدي ما زالت تقبض على اللحم، لكن الحركة انقطعت، وكأن الزمن جُمِّد للحظة. الأجواء من حولهما توترت حتى الاختناق؛ لم تعد الطبول تُسمع كما كانت، بل تحوّلت إلى نبضٍ متسارع في أعماق آذانهما. أما صرخة (ليلى)، فقد بقيت تتردّد في رأسيهما كأصداء لا تنتهي، كأنها صرخةُ روحٍ تُسحب من جسدها أمام أعينهم.

(فريد) يلتفت يمنةً ويسرةً، عرقه يتصبب، شفتاه تتحركان دون صوت:

- إنهم.. يراقبوننا.. !

ضغط (أدهم) على ذراعه أكثر، عيناه تلمعان ببرودةٍ لا تقل رعبًا:

- تمالك نفسك.. لحظةُ خطأ واحدة، ولن نخرج من هنا أحياء.

في تلك اللحظة، بدا أن كل العيون السوداء الغريبة على الصينية تبتسم بلا ابتسامة، صمتٌ مقزز يحيط بهما، كأنهما قُدّما طُعمةً جديدة في وليمةٍ لا تنتهي..

الفصل الخامس عشر

ارتجّ المشهد كله فجأة، والطبول خفت، والأهازيج انقطعت كما لو خُنقت في حناجرها. ومن طرف الساحة شقّ الظلامَ صوتٌ آخر.. صوت أذانٍ يعلو من حناجر رجالٍ تجمعوا على الأطراف، أصواتهم جليّة صادعة، تُدوّي في ليل القرية كجرسٍ سماويٍّ يمزّق جدار الوهم.

ظهر أبو (ياسين) وسط الجمع، ملامحه حادّة، عيناه تقدحان بالعزم، وهو يرفع يده في إشارةٍ إليهم.

اندفع (ياسين) بينهم، صوته يلهث بالقلق:

- أخرجوا الآن.. بسرعة!

ارتجف (فريد) وهو يتلفت حوله، المشهد من حوله يتبدّد بين الظلال والأنوار، والعيون الغائرة التي كانت تُحدّق بهم انطفأت فجأةً، كأنها رمادٌ أُطفئ بالماء.

شدّ (أدهم) ذراع (فريد)، وصاح بصوتٍ حاسمٍ لم يسمح بالجدال:

- اركض!

فاندفع الاثنان، أقدامهما تخبط في التراب المبلل، والهواء خلفهما يثقل أكثر فأكثر، كأن الظلال التي تركوها خلفهم تتشبث بهما وتلاحقهما. بينما أصوات الأذان تتعالى وتغمر المكان، فيمتزج وقع الخطوات بارتجاف القلوب، والليل نفسه بدا كأنه ينشقّ عن طريقٍ ضيق لا يُفتح إلا لمن يهرب.

اندفع (أدهم) و(فريد) خلف صوت (ياسين) وسط الدخان

المتصاعد من المشاعل المطفأة، والأرض تهتز تحت أقدامهم كأنها ترفض أن تتركهم يرحلون. الأذان ما زال يتردد، يجلجل بين جدران البيوت الطينية، يفتح لهم دربًا وسط الظلال التي كانت تتلوى كالأفاعي في كل ناحية.

اقتربوا من طرف الساحة، حيث بدا الليل أوسع والهواء أعمق.. هناك شعر (فريد) أن صدره بدأ يلتقط أنفاسه من جديد، لكنه حين التفت فجأة تجمّد مكانه.

- (ليلى).. أين (ليلى)؟!

توقّف (أدهم) بغتة، عيناه تتسعان كمن تلقى طعنة. لم يرَ سوى الفراغ خلفهم؛ الساحة المظلمة لم تحمل أثرًا لخطاها. صوت الأذان تعاظم، لكنه لم ينجح في إسكات صرخةٍ خافتة اخترقت آذانهم، صرخةٍ نسائية مكتومة، ترددت من عمق الظلام حيث تُركت (ليلى) بين نساءٍ بوجوه محجوبة وأعين لا تُبصر إلا الفريسة.

صرخ (ياسين) من الأمام، يده ممدودة:

- أخرجوا أولًا! إن عدتم الآن لن ينجو أحد!

لكن (أدهم) توقّف في منتصف الطريق، قلبه يشتعل بين نارين، نظراته كالسهم الممزق، و(فريد) يمسك بذراعه وهو يهتف:

- لا.. لا تعد!

تراجع (أدهم) مع كل خطوة يخطوها، كأن الأرض تحفر في صدره خنجرًا كلما ابتعد.

عيناه كانتا مشدودتين للوراء، تبحثان في العتمة عن ظلّ

(ليلى)، عن أي إشارة تقول إنها ما زالت هناك تقاوم، لكن الذي قابله كان أثقل من الاحتمال: كتلة سوداء تتكثّف، تتشكل من الضباب كوحشٍ يتغذى على أنفاس الليل، تزحف نحوهم ببطءٍ وصرامة. جسده كان يريد الاندفاع، أن يقتحم العتمة ويصرخ باسمها، لكن يده مكبلة بقبضة (فريد) المذعورة، وصوت (ياسين) يجلجل في أذنه:

- لو عدت الآن لن تخرج حيًا!

توقف الزمن في عينيه لحظة، ارتجف صوته في داخله: أأتركها لهم؟ أأتركها هناك وحدها؟ لكن الكتلة السوداء ازدادت قربًا، حتى شعر ببرودتها تزحف على جلده، فشعر أن القرار لم يعد له، بل لليل الذي حاصرهم.

حين خطا الخطوة الأخيرة نحو الخروج، كان قلبه يصرخ بصمتٍ أشد من أي صوت، والدموع المتحجرة في عينيه لم تسقط.. بل بقيت كأنها وسمٌ محفور على روحه: أنه خرج.. وترك (ليلى). كان (أدهم) يمضي، قدماه تُجبرانه على الخروج، فيما قلبه يصرخ نحو الداخل، نحو (ليلى) التي تُركت خلف الظلال.

(ليلى).. أأتركِ الآن؟! لو صرخت باسمك، سيبتلعني هذا الليل قبل أن تلتفي إليّ. هذا السواد يزحف نحونا، لا ظلّ هو ولا دخان، بل شيء يعرفني، يمدّ يده ليمسك قلبي ويقتلعني من داخلي. يا رب.. أأنا خائن؟ أأتركها وحيدة في الجحيم؟ قبضة (فريد) تثبّت يدي، وصوت (ياسين) يدوّي في أذني: «لو عدت الآن لن تخرج حيًا».

قالها وكأنه يحدّث نفسه، لا أحد يسمعه سوى صدى داخله.

كانت الكلمات أثقل من خطواته، تنساب ببطء مع كل نفس يتردّد في صدره. وحين بلغ الجمع، وقع بصره على والد (ياسين) واقفًا كجذعٍ قديم أنهكته السنون، وإلى جواره (ياسين)، بملامح يغلّفها الحذر وعينين تتّسعان بالريبة.

أدار بصره حول المكان. هنا، في زمنٍ لم يبتعد كثيرًا، كان الضحك يعلو، والزغاريد تشق صمت الليل، والأنغام تدور من بيتٍ إلى بيت. هنا كانت (ليلى) تعبر، والابتسامة تسبقها. أمّا الآن، فالصمت يلفّ كل شيء، والبيوت خاوية كالهياكل، شرفاتها مغلقة، جدرانها متشققة، والفرح مُحيت آثاره كأنه لم يكن.

وخز في صدره شعورٌ لاذع، كأن المكان نفسه صار شاهدًا على ما ضاع. أعاد نظره إلى (ياسين)، ذلك الفتى الذي بدا وكأن بين عينيه سرًّا دفينًا، يخفيه عمّن حوله.

بادره والد (ياسين) بصوتٍ متقطع، يعلوه الدهش والإنكار:

- كيف دخلتَ إلى ذاك المكان.. ولماذا؟!

لكن الكلمات سقطت على مسامعه كأنها قادمة من بئرٍ بعيدة. لم يعد يستوعب السؤال، ولا معنى ما يُقال. كان ذهنه مثقوبًا، لا يتشبث إلا بلفظة واحدة، تنزلق من بين شفتيه كأنها تنهيدة جريحة:

- (ليلى).. تركنا (ليلى) في الداخل.

ارتجف صوته وهو يكررها، وعيناه تجولان في الفراغ كأنهما تبحثان عنها بين الوجوه، بين الجدران المهجورة، بين الظلال التي تتكاثر من حوله. كان قلبه يتخبط كطائرٍ مذعورٍ في

قفصٍ ضيق، يضرب جناحيه عبثًا، والذنب يثقل صدره حتى كاد يخنقه.

شعر بأن قدميه تخونانه، وأن روحه ما زالت معلّقة خلفه، في الساحة التي انطفأت أنوارها فجأة. رأى بعين خياله (ليلى) محاصرة بين الوجوه المجهولة، بين الطبول التي لم تزل تدوي في ذاكرته، كأنها تنبض مع شرايينه. لم يُجب والد (ياسين)، لم يستطع أن يبرر، لم يعد في داخله سوى شعور واحد يتفاقم ويأكل ما تبقّى منه: لقد تركها.. لقد خانها بالهروب.

اقترب (ياسين)، وعيناه متسعتان كأنهما تحملان ثِقل ما لا يُقال، ثم وضع يده على كتف (أدهم) وقال بصوتٍ خفيض لكنه مشحون بالرهبة:

- ذلك المكان الذي ولجتم إليه.. إنما هو مهوى الغيلان السود. ما كان ينبغي لكم أن تطأوه قط.

رفع رأسه إليه، وعيناه غائرتان، لا تنطقان إلا باسمٍ واحدٍ يئن على شفتيه:

- (ليلى)..

تنهّد (ياسين) وكأنه يجاهد في حبس خوفه، ثم أردف:

- حين تأخرتم، خِفنا أن تكونوا قد وقعتم في قبضتهم، فشرعنا في البحث، وتتبعنا آثاركم منذ خروجكم من بيت مُدثّر.. حتى قادتنا الخُطى إلى حيث كنتم.

ساد بينهم هدوء ثقيل، كأن الأرض نفسها تنصت لما قيل، والظلام يتكثف من حولهم كوشاحٍ خانق. كان (أدهم) ما زال

مأخوذًا بجرحه، يردد في داخله فقط: لقد تركها.. تركها هناك بين الغيلان.

وبينما ثقل الصمت يطبق على الجمع، قطع شيخٌ عجوز السكون بصوت جهوري، يجلجل كالرعد في وادٍ سحيق:

- كيف تجرأتم على اقتحام تلك البقعة الملعونة؟! ألا تعلمون أنها مأوى الغيلان السود منذ أزمانٍ بعيدة؟!

ارتجف (فريد)، وتراجع خطوة إلى الوراء، بينما ظل (أدهم) كالمسحور، لا يجيب إلا بكلمة واحدة متحشرجة من بين شفتيه اليابستين:

- (ليلى).. لقد تركنا (ليلى) هناك..

تقدّم الشيخ العجوز، وعيناه تشعّان بمزيجٍ من الغضب والشفقة، وقال:

- إذن قد خسرتم ما لا يُعوّض، فإن من يبتلعه ذاك المكان لا يعود.

كانت كلمات الشيخ كالسياط تنزل على صدر (أدهم)، الذي ظل واقفًا لا يرى حوله سوى صورة (ليلى) تُبتلع في جوف الظلام،

فيما تعالت دقات قلبه كأنها تجلد ضلوعه من الداخل. وبينما كان كلام الشيخ يهبط كالصاعقة على القلوب، تقدّم والد (ياسين) بخطوات مترددة، وصوته ينساب كنسمةٍ تحاول تمزيق غشاوة الرعب:

- تمهّل يا شيخ.. لا يزال الأمل قائمًا، فـ(ليلى) لم تبتلعها الأرض بعد. سنجد سبيلًا إليها.

رفع (أدهم) رأسه نحوه، كالغريق الذي يتشبث بخشبةٍ في لجّة البحر، غير مدرك أن كلمات والد (ياسين) لم تكن سوى ستارٍ رقيق يخفي وراءه يقينًا بالهلاك. ومع ذلك، انعقدت في عينيه شرارة رجاءٍ أخيرة، كأنها تصارع الموت كي تبقى حيّة.

أما (فريد)، فظلّ واجمًا، يرمق (أدهم) و(ياسين) بنظراتٍ قلقة، مدركًا أن الوعد لا يعدو أن يكون طيفًا من رحمةٍ زائفة، أُلقي في ليلٍ كثيف ليؤجّل الانهيار.

سار الجمع في أثر (ياسين) وأبيه، يسيرون بين دروب القرية وقد تسلّط عليهم ظلامٌ أشدّ من سواد الليل، كأن الأرض ابتلعت نور القمر والنجوم معًا. كانت الأزقّة ضيّقة، تلتفّ حولهم كأفاعٍ تتربّص بفرائسها، والبيوت الطينية تصطفّ صامتة، نوافذها كعيونٍ مطفأة تراقبهم من بعيد. خطواتهم على التراب المتيبّس تتردّد في الأجواء، فتزيد الصمت وحشة. كان (أدهم) يمشي بينهم كمن يسير بجسده ويترك روحه خلفه، معلّقةً عند الساحة حيث تلاشت (ليلى). لم يكن يسمع سوى صدى اسمها في داخله، يتردّد كجرسٍ مكسور في وادٍ أجرد.

أما (فريد) فكان يلتفت بين الحين والآخر إلى الظلال المتراقصة على الجدران، ثم تتبدّد قبل أن يحدّق فيها جيدًا. أما والد (ياسين) فقد تقدّمهم بخطى ثابتة، وجهه غارق في قسماته الجديّة، وعيناه متجهتان نحو الأمام، تعرفان الطريق الذي لا يُحبّذ أحدٌ بلوغه في ظلام الليل.

وأخيرًا، بعد مسيرٍ بدا كأنه دهور، برز أمامهم بيت (ياسين). فتح والد (ياسين) الباب الخشبي العتيق، فصرّ صريره

في سكون الليل. اندفع ضوءٌ خافت من قنديلٍ يتدلّى في الداخل، فشعر (أدهم) بشيءٍ من الدفء يتسلّل إلى صدره.

دخلوا الواحد تلو الآخر، وأغلق الأب الباب خلفهم بحذرٍ بالغ. جلس الجمع في الصالة، لكن (أدهم)، وهو يجلس بينهم، لم يكن يملك إلا أن يحدّق في العدم. عيناه الزائغتان تفضحان جرحه الغائر. لم يطق (أدهم) أن يظل ساكنًا، فالتفت نحو الأب، عيناه لا تزالان معلّقتين على الظلمة التي ترك فيها (ليلى)، وقال بصوتٍ مخنوق:

- علينا أن نتحدث، الآن.. لا تحتمل الأمور تأجيلًا.

رفع الشيخ رأسه، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الصرامة، ثم قال بنبرةٍ قاطعة:

- أنت تعلم القواعد، يا بُني.. داخل البيت لا يُفتح باب الكلام.. هنا الصمت حجاب. غدًا، في جلسة «يوم الإفصاح»، حيث يجتمع أهل القرية عند الشيخ (محفوظ)، ستُقال الكلمات وتُكشف الحقائق. أمّا الآن.. فالسكوت أمان.

غرزت كلماته في صدر (أدهم) كسكينٍ بارد، لكن قبل أن ينبس بردّ، نهض الأب واقفًا وهو يخطو نحو غرفته:

- ناموا الليلة.. واحتسبوا قلوبكم للصبر. غدًا، إن شاء الله، سنجد الطريق إلى الفتاة.

ثم انسحب بخطواتٍ هادئة وهو يجرّ (ياسين) معه، تاركًا (أدهم) و(فريد) في الصالة وحدهما، والباب الخشبي يُغلق خلفه ببطء. دخل (أدهم) الغرفة بخطواتٍ متسارعة، كأن النار تشتعل تحت قدميه، وأغلق الباب وراءه بإحكام. ألقى

بثقله إلى جوار حقيبته، وما إن لامست يداه القفل حتى فتحها بعجلة، يفتش بعينين محمومتين حتى قبض على ما يبحث عنه. نظر (فريد) فوجده يفتش في كتابٍ قديم، غلافه متآكل، وأوراقه مسوّدة، وعنوانه «الغيلان السود». كان (أدهم) يجلس على حافة الفراش، أنفاسه متقطعة، وأصابعه ترتجف وهو يقلب بين صفحاته المتهالكة.

اقترب (فريد) ببطء، والدهشة مرسومة على ملامحه، ثم تمتم بصوتٍ مشوب بالريبة:

- ما هذا يا (أدهم)؟! من أين جئت به؟!

رفع عينيه إليه، نظرةً مثقلة بالوجع والقلق، قبل أن يجيب بصوتٍ خافت لكنه مشحون، كأن كل كلمة تنزف من قلبه:

- هذا الكتاب.. وجدته بين أغراض أخي «(يحيى)». كان يخفيه عن الجميع. لم أدرك وقتها سرّه، لكن.. كلما فتحت صفحاته، وجدت أسماء وأطلاسم مرتبطة بما نعيشه الآن.. وأحدها.. «زخرائيل».

تسمّر (فريد) مكانه، يرمق الغلاف بعينين متسعتين، ثم جلس إلى جواره كمن يحاول أن يقترب من لغزٍ حيّ يبتلعه، قال بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

- أخوك.. هل كان يعرف؟ هل كان متورطًا في هذا الجنون؟

طأطأ (أدهم) رأسه، وشد قبضته على الكتاب حتى كاد يمزّق أطرافه، وهمس:

- لا أعلم.. لكنني أشعر أن كل الخيوط تقود إليه.

صوت (فريد) اخترق الصمت.

- كفى يا (أدهم)! لم يعد في وسعك أن تخفي عني شيئًا! منذ وطئت أقدامنا هذه القرية وأنا أشعر بأنك تعرف أكثر مما تقول. والآن يظهر هذا الكتاب بين يديك؟ كتاب أخيك؟!

رفع رأسه ببطء، ملامحه متصلبة، وصوت أنفاسه يضطرب، لكن (فريد) لم يمهله، تابع بانفعالٍ يقترب من الصراخ:

- أخوك هذا.. ما قصته؟! ولماذا خبأ كتابًا كهذا؟! أتعلم أنك السبب في ضياع (ليلى)؟! نحن نتبعك في قرية لا نعرفها، وسط ظلال وأشباح، وأنت ما زلت تُخفي الحقائق؟!

شدّ قبضته على الكتاب، كأنه يتمسك بآخر ما يربطه بالحقيقة، ثم أجاب بصوتٍ متحشرج لكنه ثابت:

- لا تزايد عليّ يا (فريد).. أنا أكثر من دفع الثمن! (يحيى) ليس مجرّد أخي، هو الجرح الذي لم يجف منذ سنوات، كل ما أبحث عنه الآن هو فك اللغز.. وإنقاذ (ليلى).

لكن (فريد) تقدم خطوة، ملامحه مشتعلة بالاتهام، وقال بعينين تلتمعان غضبًا:

- إذن اعترف! اعترف بما تعرف عن (يحيى) وعن هذا الكتاب! لا حق لك أن تقودنا كالعمى، بينما تحمل بين يديك مفتاح ما يجري.

سكت (أدهم) لحظة، ثم أغلق الكتاب بصفعة قوية كأنها ختمٌ على السر، ورفع عينيه إلى (فريد) قائلًا:

- صدّقني يا (فريد).. ما أعرفه أقل مما تظن. لم أخفِ عنك حقائق كاملة. نعم.. كان لي أخ.. (يحيى). اختفى في ليلة لم يترك فيها أثرًا، كأن الأرض ابتلعته. كل ما وصلني بعد سنوات

أن خطاه قادته إلى جماعة غريبة، لا أحد يعرف حقيقتها.

ارتجف صوته للحظة، لكن عينيه ظلتا ثابتتين:

- هذا الكتاب.. لم أسعَ وراءه، وجدته بين بقايا (يحيى)، وكأن القدر وضعه بين يديّ ليجرّني إلى ذات الهاوية التي ابتلعته.

تراجع (فريد) خطوة، ارتباكه يضرب صدره بين الغضب والشفقة، غير قادر على حسم مشاعره. أما (أدهم) فأكمل، كأن الكلمات تخرج من أعماق مثخنة بالجراح:

- لست السبب في ضياع (ليلى)، ولا أملك خيطًا يقينيًا أنقذها به.. أنا مجرّد رجل يتتبع أثرًا ضبابيًا لأخٍ اختفى، وظلّ يطاردني.

ساد الغرفة سكون، لم يقطعه سوى أنفاس (فريد) المضطربة، وعيناه تائهتان بين وجه (أدهم) والكتاب الذي بين يديه. بدا الغضب الذي أشعل صدره قبل لحظات وكأنه ينطفئ تدريجيًا، يحلّ مكانه شيء أقرب إلى الحزن والشفقة. اقترب ببطء، وزفر تنهيدة طويلة، ثم جلس على حافة السرير بجانبه، وألقى نظرة جانبية حزينة:

- ربما كنت قاسيًا في كلامي.. لكنني لم أقصد سوى أن نفهم الحقيقة. نحن في جحيم لا سبيل للخروج منه إلا بالصدق.

رفع رأسه أخيرًا، عيناه محمرّتان من أثر كتمان طويل:

- صدّقني يا (فريد).. الحقيقة عندي ناقصة مثلما هي عندك، ولكنني لن أتركها تضيع.

ابتسم (فريد) ابتسامة باهتة، لم تخلُ من خوف:

- حسنًا.. فلنمضِ معًا إذن، وإن كانت هذه اللعنة بدأت من.. فربما تكون نهايتها على أيدينا.

مدّ يده المرتجفة وفتح الكتاب دفعة واحدة، الأوراق المهترئة تصدر أزيزًا خافتًا كأنها تحتضر. توقّف عند فصل تتصدره كلمة واحدة محفورة بحبر أسود داكن، أثقل من أي كتابة عادية. انعقد حاجبا (فريد) وهو يقترب ليرى، لكن (أدهم) سبق بصوتٍ منخفض، أشبه بتلاوة جنائزية:

- «زخرائيل.. سيّد الغيلان السود، مُفسد القرابين، المتغذّي على الدماء واللحم النجس.. مَن ذُكر اسمه في أرضٍ خربة، لم يبرحها حتى تُسفك فيها الأرواح».

تلعثم صوته عند آخر الكلمات، والصفحة أمامهما تزدان برسوم ملتوية: عظام متشابكة، وجوه بلا ملامح، وأجنحة سوداء تنبثق من أجساد بشرية نصف متحللة. قرأ (أدهم) مرة أخرى بصوت مسموع:

- «الغيلان لا تسرق الأرواح.. لا تلتهم الجثث.. إنّها شيء أشدّ هولًا.. إنّها تسرق الوجود».

رفع (فريد) عينيه نحو (أدهم)، وصوته يختنق بين الغضب والارتباك:

- ما معنى هذا يا (أدهم)؟! أهذا هراء؟!

أغلق الكتاب ببطء، وحدّق فيه بملامح ثقيلة:

- معناه أن الإنسان لا يموت، ولا يحيا.. بل يُمحى، يختفي من الدنيا كأنّه لم يكن قط، لا ذكرى له.. ولا أثر..

ارتجف وجهه وتراجع خطوة إلى الوراء، كأنّ الأرض زلّت

تحت قدميه:

- أتريد أن تقول إن (ليلى) لن تعود.. ؟

شدّ قبضته على الكتاب، وصوته خرج كهمسٍ يقطر رعبًا:

- لا أعلم..!

أعاد فتح الكتاب مرة أخرى، ويده ترتجف وهو يقلب الصفحات ببطء، حتى وقعت عيناه على سطور تضيء برهبةٍ غامضة تحت ضوء المصباح الخافت. همس بصوت متهدّج، وكأنه ينقل وصيّة من زمنٍ سحيق:

- «زُخرائيل.. سيّد الغيلان السود، الحاكم في تخوم العدم، هو الذي يأمر بمحو الوجوه، وطمس الأسماء، ويُعيد صياغة الفراغ على صورة البشر».

شهق (فريد) وعيناه تتسعان بخوفٍ لم يعرفه من قبل، ثم قال بصوت متهدّج:

- مَن هم هؤلاء الغيلان يا (أدهم)؟! هل هم بشرٌ مسخهم شيء؟ أم شياطين؟!

قلب الصفحات ببطء ليقرأ هو و(فريد):

«الغيلان السود ليسوا من لحمٍ ولا دم، ولا من طينٍ ولا نار، بل هم من ظلالٍ أفرغت من أرواحها، وتركها زُخرائيل لتسكن ما بين العالمين. لا تسرق الغيلان الأرواح كما تفعل الشياطين، ولا تلتهم الجسد كما تفعل الوحوش، بل إنها تلتهم ما هو أبقى.. تلتهم الوجود ذاته. من وقعت عليه أنفاسهم، يتلاشى من الذاكرة قبل أن يتلاشى من الأرض؛ فلا يُذكر له اسم، ولا يُعرف له نسب، وكأن لم يُخلق قط. يتربّصون في الساحات

المظلمة، والكهوف، والوديان.. وفي القرى التي هجرها الأذان، حيث يُرفع لهم طَبل الطقس، هناك يكون عرشهم».

«وأما زُخرائيل، فقصته أعجب من كل ما يُروى. هو ابن الشيطان الذي لم يُرِده أحد، إذ خرج من بطن أمّه مشوّهًا لا يُشبه الجنّ، وبالطبع لا يشبه الإنس، ولا يُكتب في نسب الملائكة ولا مردة النار. فإذا رآه أبوه نفر منه، وقال: هذا عارُ العرش، لا هو سيفٌ في حرب، ولا هو مُلك في سلطان، فألقاه في وهادٍ سحيقة، بين صمت الصخور وزفير الريح. لكن المشوّه لم يمت، بل تغذّى على نقمة الأرض وكره السماء، فشبّ وهو يحمل في صدره لعناتٍ لا تُحصى. ومع مرور الدهور، صارت عتمته جسدًا، وصار ظله جيشًا، ومن روحه تفرّقت الغيلان السود؛ لا أبناءَ له من دم، بل شظايا من وجوده المكسور».

«ولمّا استوى زُخرائيل على عرش الظلال، أحبّ أن يكون له أتباع، غير أن قلبه لم يعرف الجمال، ولا رغب في وجهٍ تامٍّ أو جسدٍ مستقيم؛ فقد كره الخِلقة السويّة كما كره أباه الذي أنكره. لذلك اختار أتباعه من المسوخ.. كل مُشوّه، كل منبوذ، كل جسد مكسور رفضته الأرض والسماء. يُجمّعهم من أطراف الليل، يكسوهم بالسواد، ويُطعمهم من مرارة العدم، فإذا ساروا خلفه، صاروا غيلانًا سودًا لا تُرى حقيقتهم، إذ يسترهم الخراب ويُخفيهم الفناء. كان زُخرائيل يقول في ليلهم: إنّ الجمال خيانة، وإنّ النقص هو الخلود. فكلما ازداد التابع اعوجاجًا، وكلما ازدادت صورته بُعدًا عن صورة البشر، عظُم قدره في عينيه، وقرُب من سرّه الدفين. ويُروى في

أسفار الظلام أنّ بعض السحرة ابتغوا رضا زُخرائيل، فابتكروا طقوسًا محرّمة وأحجبة ملوّثة بدماء الأبرياء. ومن تجرّأ على تلاوتها، واستحضر اسمه بين الطبول والأنغام الخفيّة، تجلّى له ظلٌّ من ظلاله. فإذا تمّ العهد، سُلب التابع ملامحه شيئًا فشيئًا، وتحوّل إلى صورةٍ غريبةٍ تُشبه الكوابيس أكثر مما تُشبه الإنسان. لكنّه كان يظنّ أنّه نال الجزاء الأعظم: أن يُقرّبه زُخرائيل، وأن يُطيل بقاءه في الدنيا بلا موتٍ ولا فناء. غير أنّ الخلود الذي يمنحه ليس نورًا، بل عذابٌ متجدّد، حياةٌ مظلمة تتغذّى على بؤس الآخرين، وسحق وجودهم؛ فمن بايع زُخرائيل، صار غُلامًا للعدم، وعبدًا للفناء، لا يملك أن يعود إلى بشرٍ ولا إلى روح».

ارتجف (فريد)، صوته خافت، كلماته تخرج متقطعة من بين شفتيه:

- «(أدهم).. لا أستطيع.. لا أستطيع أن أكمل قراءة هذا.. هذا.. شيء يفوق طاقتي!»

رفع (أدهم) رأسه ببطء، عيناه لم تفارقا الصفحات لوهلة، ثم التفت إلى (فريد) بنبرة هادئة، مشحونة بثقل المعرفة:

- «أعلم ما تشعر به.. لكن معرفتهم هي ما يمكن أن ينقذنا.. كل كلمة هنا هي سلاح، وكل حرف قد يكون المفتاح لإنقاذ (ليلى)».

تنفّس (فريد) بعمق، يعضّ على شفته، يحاول أن يسيطر على الرعشة التي اجتاحت جسده، أمّا (أدهم) فقد أغلق الكتاب ببطء، وصوته هادئ لكنه مثقل بالرهبة واليقين:

- «حسنًا.. سنأخذ استراحة.. »

انحدر الليل ببطء على القرية، مُغلّفًا الأزقّة بعتمةٍ ثقيلة، فيما كان (فريد) قد غرق في نومه المتقطع على السرير، جسده مترنّح بين الإرهاق والخوف، وأُحلامه تتشابك مع صدى الضحكات الغريبة التي سمعها في بيت مُدثّر. جلس (أدهم) على سريره، والدفتر مغلق أمامه، عيناه شاخصتان إلى الفراغ كما لو كانتا تبحثان عن شيء يخفف ثقله، لكنه لم يجد سوى صدى الأحداث يدور في عقله بلا توقف. وفتح الكتاب مرة أخرى، وتوجّه إلى آخر صفحاته، فوجد ملاحظة كُتبت بالخط الأزرق داخل الكتاب، جاء فيها: «إذا تكاثرت الغيلان عليك فردّد هذه»، وبدأ يقرأ:

«يا ظلّ الظلّ.. يا آكل الصور.. يا مَن لا يرضى إلا نبضًا مرتجفًا.. أخرج اسمي من دمي، وادفن أثري في صمتٍ لا يبلغه خلق.. باسم الساكنِ تحت العدم، باسم العين التي ترى ولا تُرى، اسلخ نفسي من نفسي، واطرح روحي خلفي كجلدٍ ميت.. إن سمعتم صوتي فلا تجيبوا، وإن شممتم أثري فلا تتبعوا، انصرفوا عن لحمٍ لا روح فيه، وليلٍ لا يسكنه نبض بشر.. انصرفوا، فأنا اليوم محرّم عليكم».

أغلق الكتاب وبدأ يفكر: كيف وصلنا إلى هذا الجنون؟ تساءل في نفسه. بيت مُدثّر، الطقوس، (زياد).. كلمة واحدة قالها عن (يحيى)، هل هي الحقيقة أم مجرّد خدعة من هذه القرية؟ تذكّر الضحكات التي ملأت الهواء، حركاتهم الغريبة، أصوات العظام تحت الأسنان، وكل شيء بدا وكأنه يتسلل إلى أعماقه، يترك أثره على روحه، ويزرع خوفًا لا يزول.

«(ليلى).. أين هي الآن؟» همس بصوتٍ خافت، وكأن

الهمس وحده يستطيع أن يصل إليها. هل ما زالت حيّة؟ أم أن هذه القرية ابتلعتها؟

شعر بقلبه يتسارع، وعقله يعاود ترتيب الأحداث، يحاول أن يجد رابطًا بين كل ما شاهده. كل شيء كان متشابكًا: بيت مُدثّر، (زياد)، كتاب الغيلان السود، زُخرائيل، (يحيى).. وكل هذه الأرواح المفقودة التي بدت وكأنها تراقب خطواتهم منذ البداية.

«هل هم بشر أم مسوخ؟» فكّر (أدهم). كل ما رآه يشبه البشر. جلس في ظلمة الغرفة، والليل يضغط من حوله، كل همسة من الرياح بدت كأنها صراخ مختنق، وكل ظل يمرّ قربه يحمل وعدًا بمجهول أعمق. أدرك (أدهم) أن النوم لن يأتيه هذه الليلة، وأن عقله سيكون ساحة المعركة، يتنقّل بين الذكرى والرؤية، بين الخوف والمسؤولية.

وقف فجأة، قلبه يئن، وعيناه لا تفارقان الظلام الذي يلتهم الغرفة. قبض على الكاميرا بيده، وشعر بقوة تدفعه للتحرك، كأن عقله يصرخ له أن يخرج وحده ويتفحّص تلك القرية. فتح باب الغرفة بحذر، فتسرّب نور خافت من الممر، يقطع عتمة البيت. خطواته كانت محسوبة، كل حركة تصنع صدى بين جدران الدار المظلمة.

خرج (أدهم) من بيت والد (ياسين)، الكاميرا في يده، يسير بخطوات حذرة بين الأزقّة المظلمة، والظلال تتلوّى على الجدران. الضوء الخافت للكشّاف يتسلّل بين النوافذ المهجورة. لم يكن بمقدوره تجاهل الشعور بأن شيئًا يقترب منه، شيء يراقبه من بعيد، يختفي ويظهر بلا أي تحذير.

ثم لمح حركة في آخر الزقاق، شخصًا يسير ببطء نحوه، وجهه مضاء جزئيًا بضوء القمر، جسده ثابت، كأنه لا يخطو بل يطفو فوق الأرض. اقترب الرجل أكثر، وبدا طبيعيًا للوهلة الأولى، إلا أن ما يرافقه جعل المشهد غريبًا ومقلقًا؛ كان يسحب حمارًا هزيلًا خلفه، عظمه يبرز تحت جلده المتهالك، عيناه الواسعتان تنظران بلا حياة. كل خطوة للحمار كانت تصدر صريرًا حادًا يقطع صمت الأزقّة. الرجل نفسه، هدوؤه وغموضه، جعلا كل حركة تبدو محسوبة، ولكن الطريقة التي يجرّ بها الحمار، ببطء وثقل، كانت تحمل شعورًا بالشيء الغريب والغامض.

شعر بقشعريرة تجري في جسده، رغم بساطة المشهد. اقترب بحذر، الكاميرا في يده ترصد كل تفصيلة، وكل خطوة تصدح في الأزقّة المهجورة بصدى خافت. حين اقترب من الرجل، التفت الأخير ببطء، ابتسامة باهتة تعلو وجهه، عيناه تتقدان بريقًا غريبًا، ثم قال بصوت هادئ لكنه يحمل ثقل التاريخ:

- أهلًا بك، أيها الغريب.. لم أرَك من قبل، ومع ذلك، حضورك هنا لم يكن خفيًا عني.

اقترب (أدهم)، الكاميرا في يده ترتعش قليلًا، وصوته يخرج ممزوجًا بالحذر:

- هل أنت من سكّان هذه القرية؟

ابتسم الرجل العجوز، ضحكة قصيرة خشنة، تتردّد أصداؤها بين جدران الأزقّة المهجورة، ثم قال بصوت يختلط فيه الغموض بالصرامة:

- أهلي كانوا من مؤسسي هذه القرية.. لم أرَ منذ أيام مُدثّر من يزورنا من الغرباء، وجودك هنا.. نادر، وغريب.

رفع (أدهم) الكاميرا، وكل شيء حوله يكتسب بعدًا آخر؛ الضوء الخافت يكشف تجاعيد وجه الرجل، وعينيه اللتين تحملان سنواتٍ من الأسرار. قال (أدهم) بحذر:

- لقد دخلت.. بيت مُدثّر.

تجمّد الرجل العجوز، وتغيّر لون وجهه، عيناه اتسعتا كمن يواجه كابوسًا مفاجئًا، ثم قال بذهول يختلط بالخوف:

- وخرجت حيًا؟ كيف.. كيف تمكّنت من النجاة؟

ارتعش العجوز، وملامحه تغطّيها تجاعيد الزمن، وعيناه تتوهّجان بوميض الذاكرة المؤلمة، وأكمل:

- مُدثّر.. يا لعنة هذا الاسم! ما أتى به إلى القرية.. ما فعله بالأرواح.. لقد رأيته بعينيّ منذ كنت فتىً صغيرًا، أختلس النظر من بين الظلام، رأيت مقتله.

التفت العجوز قليلًا، وعيناه تخترقان الظلام، تحملان سنواتٍ من الرعب والمعرفة المُرّة:

- مُدثّر ليس مجرّد رجل.. إنه سبب كل الأرواح التي تهرّبت من هذا المكان، وكل حياة توقّفت، وكل لعنة تثقل القرية منذ سنين. احذر يا ولدي.. احذر كل خطوة تخطوها هنا، فقد يبتلعك ما ابتلع غيرك قبل أن تدري.

ارتعش (أدهم) قليلًا، صوته يخرج بصعوبة:

- ومَن هؤلاء الغيلان؟ ماذا تعرف عنهم؟

ابتسم العجوز ابتسامة مريرة، وعيناه تغوصان في ذكريات أليمة:

- الغيلان.. لقد سكنوا الوادي منذ سنين، لكن لم يقترب منهم أحد. لم يظهروا في القرية إلا حين جاء مُدثّر.. هو من جلبهم إلى هنا.

صمت لحظة، ثم أضاف بصوت خافت كأنه يهمس بالتحذير:

- بعد قرابين مُدثّر.. أصبح وجودهم ملموسًا في كل زاوية من زوايا القرية. ليس هناك مكان آمن، كل بيت وكل شارع.. يمكنهم التسلل، يتبعون رائحة الخوف والضعف.

رفع يده ليمسح عن عينيه دمعة ذكريات، ثم أكمل:

- مُدثّر قتل كثيرًا من البشر هنا وخارجها.. كل من اقترب منه أو شكّ فيه.. ليبيع نفسه للغيلان، ليحقّق ما ظنّ أنه الخلود. هؤلاء المسوخ لا يرحمون، لا ينسون، وهم في انتظار من يقدّم نفسه لهم.. كما فعل هو.

- الشيخ (محفوظ).. قال لي.. إن روح مُدثّر ما زالت هنا، تتجوّل في القرية، صار حارسًا للغيلان.. يحرسهم كما لو أنهم كل حياته.

ابتسم العجوز ابتسامة مرّة، صوته ثقيل كالصخر:

- الشيخ (محفوظ).. دومًا يختصر الحقيقة أو يزيّنها، يروي لك نصف ما يراه.. أمّا البقية.. فهي نارٌ تحرق كل من يقترب. نعم.. مُدثّر هنا.. روحه معلّقة بين الحياة والموت.. والليل كلّه شاهده.. والغيلان تتبع خطواته، كل خطوة.

أمال رأسه قليلًا، وكأن العتمة تتسلّل إلى عينيه:

- احذر أن تردّد هذا الكلام، الشيخ (محفوظ) كثير الكلام.. أمّا الحقائق، فهي أغلى من مجرّد حديث.

ثم ارتفع صوته قليلًا، صارمًا:

- عليّ الرحيل الآن.. عليك أن تلتزم بالبيت الذي استضافك، لا تخرج منه في مثل هذا الوقت.

تراجع العجوز خطوة، ثم أعطى (أدهم) نظرة قصيرة، كأنها تحمل تحذيرًا أعمق من الكلام:

- احذر أن تبتعد.

بدأ يتحرّك مبتعدًا، صوته يختفي تدريجيًا بين الأزقّة المظلمة، بينما بقي (أدهم) واقفًا، الكاميرا في يده، يراقب خطواته، متابعًا كل حركة، وكل تحرّك في العتمة. شعور باليقظة يسيطر عليه، كأن كل زاوية في القرية تنتظر أن تكشف له شيئًا لم يكن يتوقّعه.

عاد (أدهم) إلى بيت والد (ياسين)، خطواته ثقيلة وصوته بالكاد يُسمع وهو يغلق الباب خلفه. جلس على المقعد، نَفَسه يتقطّع، وعيناه تتفحّصان الغرفة، تبحثان عن أي حركة غير طبيعية. كل شيء هادئ، لكن قلبه لم يهدأ. رفع الكاميرا أمامه، ينظر إليها كأنها مرآة لعقله المتعب، ثم أدارها قليلًا نحو الباب، كأنما يحذّر شيئًا ما من التسلّل إليه. وهكذا انتهى اليوم، لكن شعور الخطر لم يغب.

الفصل السادس عشر

اشتدّ الصباح على القرية، والهواء يملأ الحوش أمام بيت الشيخ (محفوظ)، حاملًا عبق الزمن القديم ووشوشة الأسرار التي لا تجرؤ على الانكشاف إلا أمام من يملك الجرأة لسماعها. كان الحوش مزدحمًا؛ كل أهل القرية قد تجمعوا، رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، وجوههم متجهّمة، عيونهم شاخصة نحو صرح البيت الذي يعلو الحوش، حيث جلس الشيخ (محفوظ) على صدر المجلس، متربعًا بعظمة هدوئه، يحيط به كأنه محور العالم. كل النظرات متجهة نحوه، وكل الأرواح مترقبة لكلمة واحدة منه، كلمة قد تكشف سرّ ليلة طويلة، أو تثقل على الحضور عبء معرفة لن ينسوه أبدًا.

الجو مشحون؛ كل همسة في الحوش تبدو كأنها صدى قادم من جدران البيت القديمة، وكل حركة تثير التوتر بين الصفوف المتراصّة، بينما الشيخ (محفوظ) يرفع بصره إلى السماء للحظة، ثم ينظر إلى الحاضرين بعينين ثاقبتين، ليبدأ يوم الإفصاح الذي ستنكشف فيه أسرار القرية كلها على مدار أسبوع.

في قلب القرية، كان يومُ الإفصاح علامة مضيئة في تقويم أهلها؛ يومٌ يُخصّص كل أسبوع ليجمع القلوب والألسنة، حيث يُسمع للشيخ (محفوظ) كل ما جرى في الأزقّة، في البيوت، وعلى الحقول، دون أن يغفل شيء. الحوش أمام بيته يمتلئ بالحركة منذ الصباح الباكر، أصوات الأقدام تتردد على الأرضية الحجرية، والهمسات تنتقل من صف إلى صف، كأنها تحمل شذرات الحقيقة المخبأة بين جدران القرية القديمة.

وقف (أدهم) و(فريد) على طرف الحوش، الكاميرا بين يديهما كدرع وحصن، عيونهما تتنقّل بين الوجوه المتجمعة، بين الصغار والكبار، كل شخص يحمل قصة مخفية وراء نظرته. شعور غريب اجتاح (أدهم)، كأن الكاميرا تمنحه بعدًا ثالثًا، يمنحه القدرة على تسجيل كل همسة وكل حركة، وكأنه يقتفي آثار أسرار القرية في فيلم وثائقي حيّ.

بدأ الشيخ (محفوظ) بالكلام، صوته جهير وهادئ في الوقت نفسه، يحمل سلطة من يعرفون أنه الحارس على أسرار القرية:

- أيها الأحبة، يوم الإفصاح قد أتى، وفيه نكشف عن كل ما جرى منذ آخر اجتماع لنا..

انحنى الحضور قليلًا، العيون تتقاطع، بعض الوجوه ترتجف، وبعضها يصمّ الشفتين خشية الكلام، وكل هذا يلتقطه (أدهم) و(فريد)، كل حركة تصبح وثيقة في ذاكرتهما. وفي هذا المزيج من الخوف والدهشة، تتحرك الكاميرا برفق، تلتقط الصمت المطبق قبل كل كلمة، وتثبت على وجوه الحضور. رفع الشيخ (محفوظ) رأسه، عيناه تتفحصان الحشد في الحوش، وصوته يمتد فوق الجموع بحزم:

- سعفان.. قل لي، ما أخبار ابنتك ثُريّا؟ هل بقيت على حالها، أم تغيّر ما يجري خلف الأبواب؟

ارتجف الرجل، يسعف أنفاسه بصعوبة، وعيناه تحاولان تلمّس الأرض، لكنه رفع صوته المرتعش:

- يا شيخ.. ابنتي.. لا تزال على حالها.. لا تنام الليل، مربوطة في السرير كما أمرت.. لا شيء يغيّر ذلك..

توقف الشيخ (محفوظ)، عيناه كأنهما تخترقان قلب الرجل، ثم أضاف بصوت أخفض، لكنه أشد وقعًا:

- وهل ما زالت تهددك؟ هل شعرت بظلالها تتسلل إليك، وتذكّرك بخطرها المستمر؟

ارتجف الرجل، وأجاب بصوتٍ يئنّ من الخوف:

- نعم، يا شيخ.. نعم، ما زالت.. ما زالت تهددني، وكل ليلة يزداد رعبها..

رفع الشيخ (محفوظ) رأسه، وأضاء صوته على الجميع كما لو كان يفرض حكم السماء:

- إذن.. لن يفلح الدواء الذي وصفته لك.

ارتجف سعفان، وسقط بصره على الأرض كمن تُسلب منه قوة الحياة:

- وماذا أفعل يا شيخنا؟

أجابه الشيخ بصوت يزن كل حرف:

- اقتلها.

تشنّج جسد سعفان، وصوته ارتجف كنسيمٍ يختلط بصهيل الريح:

- ااا.. ألا يوجد حل آخر؟

شيح الشيخ ببصره عن الرجل، كما لو أن الكلام قد انتهى، ثم التفت إلى والد (ياسين) قائلًا، صوته يملؤه الثقل والدهشة:

- ما أخبار (زياد)؟

في تلك اللحظة، تجمّد قلب (أدهم)، والكاميرا في يده ترتجف مع كل نبضة، وهو يرى صمت الشيخ وكأن القرار مكتوب في كتاب القدر. أمّا سعفان، فارتجف كل جسده، غير قادر على استيعاب كيف يمكن قبول قتل ابنته بلا ذرة تردّد.

اخترق صوت (أدهم) الحضور:

- كيف.. كيف يقتلها؟

توقف الجمع لحظة، وأنظارهم جميعًا تتقاطع عليه، استغراب يكسو وجوههم، كأنهم يتساءلون كيف يجرؤ أحد على التعليق على أمر شيخهم.

اقترب والد (ياسين) من (أدهم)، قبض على يده بإحكام، صوته حازم وثقيل كالحديد:

- اجلس.

كان في نبرة الأب حزم لا يقبل النقاش، ووقار يمحو أي اعتراض. ارتعش (أدهم) قليلًا، لكنه استسلم، جلس ببطء، والعدسة التي في يده تلتقط كل تردّد. وفي الساحة، بقيت كلمات الشيخ معلّقة كحكمٍ أزلي لا يمكن العودة عنه.

تجاهل الشيخ (محفوظ) ارتجاف (أدهم)، وكأن ما قاله لم يكن موجودًا، وأعاد صوته العميق يهزّ الساحة:

- أبو (ياسين).. ماذا عن (زياد)؟ هل بلغك شيئًا جديدًا عنه؟

كان (أدهم) يراقب الجمع، كل العيون متجهة نحو الشيخ. ابتلع والد (ياسين) صمتًا طويلًا، ثم أجاب بصوت منخفض لكنه حازم:

- حتى الآن، يا شيخ.. لا جديد يُذكر.

كان والد (ياسين) يقف متشنجًا، عيناه تبحثان عن مأمن في وجوه الحضور، لكن كل حركة تكشف ارتباكه. صوته متزن ظاهريًا، لكنه يخفي ارتجافًا داخليًا، يعلو بين الكلمات ما يُخفيه عن الشيخ (محفوظ). كل تفصيلة في وجهه، من شدّ الشفاه إلى حدّة النظرة العابرة، كانت تشي بالكذب المكتوم، وأن حالة (زياد) تسوء. كان قلبه يعرف أن أي كلمة صادقة قد تُجرّده من الأمان أمام سلطان القرية.

رفع الشيخ (محفوظ) رأسه، عيناه الثاقبتان تجوبان الحضور قبل أن تستقرّا على (أدهم)، صوته يخرج ثقيلًا، مشحونًا بالرهبة:

- بلغني أن ضيوف القرية قد تجاوزوا حدود المسموح.. دخلوا منطقة الغيلان، وهناك.. فقدوا أحدهم.

وقفت الكلمات في المكان، تتردد بين أزقّة الحوش. شعر (أدهم) بأن كل نظرة من الشيخ تخترق صمته وتضعه تحت المجهر، وجموع القرية تنتظر ردّه. رفع (أدهم) صوته، وهو يحاول أن يثبت نفسه رغم ارتجاف قلبه:

- بعد أن خرجنا من بيت مُدثِّر، لم نكن ندرك أن المنطقة التي سرنا فيها هي منطقة الغيلان.. لكن أرجوك، دلّنا على سبيل نجدة (ليلى)، على أي طريقة توصّلنا إليها.

رفع الشيخ (محفوظ) بصره، نظر إلى (أدهم) بعينين ثابتتين، وصوته ثقيل بالوقار:

- اجلس يا ولدي..

ثم أمال رأسه قليلًا، وعيناه تتجولان بين الحضور، كأنه يزرع في النفوس وعيًا وعبرة:

- الغريب دخل منطقة محظورة، وقد فقد أحد أصحابه هناك.. فليكن ذلك عبرة لكل من يستهين بهذه الأرض وأسرارها. تعلّموا، يا أهل القرية، أن كل خطوة، وكل فضول، قد يجلب لكم ما لم تحسبوه، وأن الغيلان لا تُخدع بالسهو ولا باللعب. احذروا.. احذروا ما وراء الظلال، فقد تصبحون قرابين قبل أن تدركوا.

رفع الشيخ (محفوظ) صوته وأكمل، ليخترق الصمت القاتم في الحوش:

- (ليلى).. لن تعود، كما ابتلع الغيلان الكثير قبلها، وأولئك الذين ذهبوا لم يرجعوا أبدًا. فليكن هذا درسًا لكم جميعًا، لكل من يستهين بالقوى التي تسكن هذه الأرض..

كان وقع الكلمات على (أدهم) كالصاعقة؛ الكلمات لا تُسمع فقط، بل تُشعَر.. كل حرف يثقل صدره، وكل كلمة تُحرّك شيئًا عميقًا من خوفه وذعره من المجهول. شعور بالرهبة، والخيبة، والفقد يجتاحه دفعة واحدة. وبينما كان الشيخ (محفوظ) يخاطب الحاضرين بنبرةٍ ثقيلة، ارتفعت فجأة أصوات صراخٍ نسائي من خارج الحوش، تقطّع أجواء المجلس، وتجعل القلوب تخفق بلا توقف.

توقف الشيخ لحظة، والتقطت عيناه الحركة والارتباك على وجوه الحضور. كان صوت الصراخ عاليًا، حادًا. نهض الجميع على الفور، وخطواتهم تلهث في صدى الحوش، يخرجون جميعًا من بيت الشيخ إلى الفناء، وعيونهم تتجه نحو مصدر

الصراخ.

خرج (أدهم) و(فريد) إلى الفناء الخلفي لبيت الشيخ، والهواء محمّل برائحة الحديد والدم، والصرخات تتقافز من بعيد، تتقطع أحيانًا بصمت قاتل يجعل الأذن تتوجّس. توقف (أدهم) فجأة، الكاميرا في يده ترتجف، وهو يحاول تثبيت العدسة على ما أمامه. في وسط الفناء، وسط دائرة من الظلال والأشخاص الصامتين، بدت (ليلى).. جسدها مقيّد، اليدان والقدمان مشدودتان بمسامير خشبية، والدماء تلطّخ محيطها. شعرها متشابك وملابسها ممزقة، وعيناها مفتوحتان على اتساعهما، تحملان صرخة صامتة من الألم والخوف. الناس حولها واقفون، وجوههم جامدة، عيونهم ثابتة على المشهد، بلا أي تعاطف، كأنهم يشاهدون طقسًا قديمًا تكرّر مرارًا. أصواتهم مكتومة، حركاتهم محدودة، وكل ما يظهر منهم هو نظرات تراقب وتنتظر.

صرخ (أدهم)، صدى صوته هزّ القرية:

- (ليلى).. ! (ليلى).. !

ركض نحوها، قلبه يضرب كأنه يريد الخروج من صدره، يده ترتعش وهو يقترب من الجسد المصلوب، من الدماء التي تلطّخ كل شيء حولها، من العيون المفتوحة التي لم تعد تحمل حياة، من الشعر الممزق والجلد المخدوش. كل شيء فيها صار رمزًا للوحشية، للصدمة، للفقد الذي يقتلع القلب. الأرض تحت قدميه تاهت بين خطواته الهائجة، وكل صرخة من صوته كانت محاولة يائسة لبعث الحياة فيها، لكنه يعرف الحقيقة قبل أن يلمسها. الغضب امتزج بالدموع، واليأس

انفجر بداخله كما لو أن العالم كله انهار معه، وكل شيء أصبح بلا معنى.

وقف للحظة، جسده يترنح، عيناه تلمعان من الرعب والذهول، وصوته يهتز مرة أخرى:

- (ليلى).. كيف؟! كيف؟!

كل ثانية هنا كانت ثقيلة كالحجر، وكل نفس يلتقطه كان ألمًا. كل نظرة حوله، على الحضور الجامد، وعلى الصمت القاتل، كانت كالسكاكين تُغرس في قلبه. شعر (أدهم) أن الزمن توقف، وأنه وحده مع الفقد الأكبر، مع الموت الذي سحق كل شيء جميل كان يحمله في قلبه.

ارتجف (أدهم)، وصوته يصدح في أرجاء الفناء، ممتزجًا بالغضب واليأس:

- كيف.. كيف تسمحون بهذا؟! كيف تظلون أحياء وأنتم شهود على هذا الفساد؟!

تقدّم نحو (ليلى) المصلوبة، عيناه تلتقطان كل أثر للمعاناة والدماء، وقلبه يتفطّر ألمًا وندمًا. صار صوته همسًا ممزوجًا بالدموع:

- (ليلى).. سامحيني.. سامحيني.. أنا السبب، أنا الذي جررتكِ إلى هذا المصير..

جسده يهتز، ودموعه تبلّل وجنتيه، بينما صرخته تتصاعد، تحاول أن تفكّك قيود الألم المكبوت في داخله. الحضور من حوله جامد، بلا شعور، كأنهم صمتوا أمام القدر، و(أدهم) يواصل صرخاته واعتذاراته، وكأن الكلمات محاولة يائسة

لإنقاذ روحٍ فُقدت قبل أن يدرك، وإنقاذ نفسه من شعور الذنب الذي يلتهمه.

اقتربت الجموع ببطء وثبات، وأمسكوا بجسد (ليلى) الممدود. كانت أثقال المسامير في يديها ورجليها كأنها لم تعد تنتمي لهذا العالم. وبلا أي شعور، أنزلوا جسدها إلى الأرض، وأخذوه بعيدًا عن أنظار (أدهم)، الذي وقف مذهولًا، قلبه خاوٍ، وعقله يرفض أن يستوعب ما حدث. وقف عاجزًا، صامتًا.

كان (فريد) يقف على بعد خطوات، الكاميرا في يده ترتجف مع كل نفس، عيناه شاخصتان إلى جسد زميلته الميت، لكنه كأنه بعيد عن الواقع، وعقله يرفض أن يستوعب المشهد. كل جزء من جسدها المملوء بالدماء والمسامير كان كابوسًا لا يمكن تصديقه. بدأ يصوّر، كأن العدسة هي ما يفهمه، هي ما يعترف بوجوده، بينما داخله يتناثر كل شيء. صمت المكان يلتهم كل شعور، ولا قدرة له على الصراخ أو البكاء. وكلما اقتربت الجموع وحركوا الجسد للدفن، كان (فريد) يشعر بفقدان الأرض تحت قدميه، وكأن الواقع ذاته يتفتت أمامه.

الصورة التي توثقها الكاميرا لا تعكس الألم الحقيقي، ولا تعكس الصدمة التي تعتصر قلبه، لكنه مضطر أن يسجل كل شيء، كأن التوثيق هو ما يمنحه أي صلة بالحقيقة التي رفض عقله تصديقها.

وبعد ساعة بدأت مراسم الدفن. أخذت مجموعة من الرجال جسد (ليلى) الميت، وأمسكوا به بعناية، وأنزلوها برفق إلى الحفرة المحفورة، وبدأوا يغطّونها بالتراب، حفنة تلو الأخرى،

حتى اختفى جسدها عن الأنظار. الهدوء خيّم على المكان، إلا من صوت التراب المتساقط على الجثة، وأقدامهم على الأرض الصلبة. كل حركة كانت محسوبة، بلا عجلة، وكأن الطقس نفسه يفرض احترامه للجثة التي كانت تذكرة صامتة بالحدث.

عندما اكتمل الدفن، تراجعت الجموع خطوة إلى الوراء، وأغلقوا الحفرة نهائيًا، تاركين المكان ساكنًا، صامتًا، بلا أي صراخ أو دموع واضحة، وكأن هذا المشهد جزء من حياة القرية الطبيعية.

وقف (فريد) جانبًا، عيناه تجولان بين (أدهم) والمكان الذي غُطّي بالتراب حديثًا، ثم التفت إليه بصوت منخفض لكنه حازم:

- أنا سأغادر من القرية اليوم.. لا أقدر أن أبقى أكثر من هذا.

كان (أدهم) يحدّق في الحفرة، عيناه لا تفارقان التراب الذي طوى جسد (ليلى)، صامتًا، لا يرد، كأن الكلمات عجزت عن الخروج من حلقه، وكأن الصدمة شلّت لسانه. لاحظ (فريد) صمته، وشعر بالثقل الذي يضغط صدره، لكنه لم يجرؤ على الإلحاح. ترك الصمت يملأ الفراغ بينهما، بينما الغبار الخفيف يتساقط على الأرض، شاهدًا على نهاية الفصل الأخير.

بعد مراسم الدفن وصلوا إلى بيت والد (ياسين). جلس (أدهم) في ركن البيت، جسده منهك، وعيناه تتابعان الفراغ الذي يملأ المكان. الكاميرا ما زالت بين يديه، لكنه لم يعد يريد تسجيل شيء، كل ما في قلبه صار أثقل من أي عدسة يمكن أن توثّقه.

اقترب والد (ياسين) بهدوء، جلس بجواره، وضع يده على كتفه محاولةً تقديم بعض العزاء، صوته منخفض لكنه ثابت:

- لا تلم نفسك، يا ولدي.. ما حدث لم يكن بيدك.

لم يردّ (أدهم)، مكتفيًا بالنظر إلى الأرض، والدموع تتجمع في عينيه دون أن تسقط، كأن قلبه ما زال يحاول استيعاب الصدمة. على الطرف الآخر من الغرفة، كان (فريد) يتحرك بسرعة، يجمع أغراضه، عيناه تتجولان بين زوايا الغرفة وكأنه يحاول أن يترك كل شيء خلفه، كل ذكرى تقود إلى هذه القرية الملعونة.

- سأرحل اليوم.. لا أستطيع البقاء أكثر من هذا، قالها بصوتٍ مشوش، وهو يضع آخر أغراضه في حقيبته.

البيت صامت، سوى أصوات خطواتهم وحركة الريح الخفيفة عبر الشباك. كل شيء يبدو عالقًا بين الماضي المؤلم والحاضر المرهق.

اقترب (ياسين) من (أدهم) بخطوات مترددة، عيناه تلمعان بارتجافٍ في داخله، صوته منخفض، يتوسل وهو يقول:

- أرجوك.. لا ترحل.. لا تتركنا هكذا.

رفع (أدهم) رأسه ببطء، نظر إلى (ياسين)، وعيناه تعكسان شعورًا غارقًا بين الصدمة والغضب والحيرة، كأنه يواجه بحرًا من الألم لا يعرف السباحة فيه. لم ينبس بكلمة، فقط صمت طويل، يراقب توتر الشاب أمامه، بينما القلب يثقل بالحزن واللاجدوى.

أثناء جمع (فريد) أغراضه بهدوء، رفع (أدهم) عينيه، نظر

إليه نظرة قصيرة، ثم التفت إلى (ياسين)، عيناه تصطدمان بعينيه المتوسلتين. ارتجف (أدهم) للحظة، ثم أمال رأسه نحو (ياسين)، صوته خافت لكنه مملوء بالصدق:

- (ياسين).. أنا.. أعتذر لك.. سأغادر.. سأرحل عن القرية، حتى لا يكون لي أي دور في ما قد يحدث بعد الآن.

نظر (ياسين) إليه طويلًا، وكأن الكلمات تتثاقل في صدره، لكنه لم يعارض، ولم يكن هناك حاجة للكلمات. الصمت بينهما حمل كل المعاني.

وقف (فريد) و(أدهم) عند باب بيت والد (ياسين)، الأمتعة المكدسة بجانب (فريد) كأنها تحمل معه ثقل القرية كلها، بينما ظل (أدهم) صامتًا، وعيناه ما زالتا تتجولان في الأزقة المهجورة، وكأن قلبه لم يغادر بعد مكان (ليلى).

اقترب (ياسين)، خطواته متثاقلة، عيناه تفيض بالرجاء، وصوته يخرج وكأنه يحاول ربط ما تبقّى من شرايين الأمل:

- لا تذهبا.. أرجوكما، ابقيا..

رفع (أدهم) عينيه نحو (ياسين)، صامتًا، نظرة غارقة في الألم والفقد، بينما كان (فريد) ينظر إليه باهتمام ويهزّ رأسه بعزم. اقترب والد (ياسين)، يده ترتجف وهو يضعها على كتف (أدهم)، محاولًا نقل بعض العزاء، صوته منخفض لكنه حازم:

- اعلم يا بني.. القرار صعب، لكن أحيانًا المغادرة خير، حفاظًا على حياتكما..

ابتسم (فريد) ابتسامة حزينة، وكأنه يودّع كل شيء دفعة

واحدة، قبل أن يلتفت إلى (أدهم)، الذي بقي صامتًا، عيناه معلّقتان على المكان الذي تركوه، وكأنه يحاول أن يحفظه في ذاكرته قبل الرحيل.

الفصل السابع عشر

عادوا إلى المكان الذي تركوا فيه السيارة. شوارع القرية خافتة الإضاءة، والهواء يتسلّل بين الجدران القديمة. خرج (أدهم) بخطوات متثاقلة، كأنه يجرّ أثقال اليومين الماضيين، ثم أخرج علبة السجائر من جيبه، وأضاء واحدة لنفسه، يستنشق الدخان ببطء. كل نفس بدا كتعويض عن الأيام التي لم يُدخّن فيها، وكل نفس يحاول به أن يمحو صخب الذكريات والصرخات التي ملأت أذنيه.

كان (فريد) يبتعد صامتًا، عيناه تتنقّلان بين الطريق والأفق المظلم، محاولًا استيعاب ما جرى، بينما (أدهم) يخطو بلا تسرّع، والدخان يلتف حوله كما لو أنه يرسم حجابًا من العزلة.

وصلوا إلى المكان الذي تركوا فيه السيارة، حيث كانت الأرض مغطّاة بأوراق الشجر اليابسة، والعشب الذابل يتمايل تحت نسيم خفيف. رفع (فريد) بصره، وأدرك أن الرجل الذي قابلوه أوّل دخولهم القرية لا يزال هناك، جالسًا كما كان على ذلك الزرع الذابل، وبجانبه الماعز الهزيل يربت ببطء على الأرض، صامتًا كأنه جزء من المشهد ذاته. عيناه تتبعان خطواتهم بلا أي حركة مفاجئة، وكأن الزمن هنا توقّف عنده.

توقّف (أدهم) ونظر إلى الرجل الثابت على الأرض، ثم تذكّر كلمات الشيخ (محفوظ) قبل أيام: هذا هو مُدثّر، الرجل الذي يحمل لعنة القرية في عروقه. خفق قلبه بقوة، والتفت إلى (فريد)، صوته منخفض لكنه حازم:

- (فريد)، هذا آخر طلبٍ مني.. أخرج الكاميرا وسجّل كل

كلمة، وكل حركة، وكل تفصيلة.

وقف أمام مُدثّر، عيناه تلتقطان كل حركة، وكل ارتعاشة، وكأن الوقت قد تجمّد في هذه اللحظة، وكأن كل كلمة ستُسجّل لتروي حقائق لم يُسمع بها من قبل.

ابتسم مُدثّر ابتسامة باردة، وضحكته تمتد في الصمت الثقيل للقرية، ثم قال بصوت هادئ لكنه مشحون بالتهديد:

- ألم أقل لك إن دخولك هذه القرية سيقودك إلى ما لا يُحتمل؟ لقد حذّرتك، ولكنك لم تُصغِ، فها أنت ذا.. تواجه النتائج.

رفع (أدهم) حاجبيه، صوته متوتر لكنه حاد:

- لا أريد التحدّث فيما مضى.. ولكن قبل أن أرحل.. هل تعرف (يحيى)؟

ابتسم مُدثّر ابتسامة باردة، وضحكته تتسلّل كرياح الليل بين الأزقّة الخاوية، ثم قال بصوت ثقيل مشحون بالدهاء والسلطة:

- منذ وطئت قدمك هذه القرية، كنت أعلم أن (يحيى).. أخوك، (يحيى) الذي ضمّه إليّ أتباعي، كان شخصًا محطمًا، منكسرًا من الداخل.. وأنا وحدي أُعيدت إليه حياته، فقط لأكتشف في النهاية أنه صار ضحية لعالمي. قتلته في بيتي منذ سنين طويلة، وروحه اليوم صارت من خُدّام الغيلان، تابعًا لي، لا يفرّ، لا يهرب.. بل يحرس الظلال كما أمرت.

ارتجف (أدهم)، وخرج صوته كهمس متقطّع بين ضلوعه، والغيوم الثقيلة من الرهبة تلتف حول قلبه:

- ولماذا.. لماذا فعلت كل هذا؟

نظر مُدثّر إليه ببرود كامل، وضحكته الباردة تتسلّل بين الظلال، ثم قال:

- لماذا فعلت؟ لأن الضعفاء لا يُعاشَرون، ولا يُترك لهم سبيل. (يحيى).. كان محطمًا، بلا أمل. أنا أعطيته النهاية التي استحقّها، وحوّلت روحه لخادم للغيلان.

أكمل مُدثّر بابتسامة قاتلة، صوته هادئ لكنه يقطر تهديدًا:

- ما حلّ بأخيك كان مجرّد بداية.. مصيرك سيكون أشدّ سوءًا، أعمق فظاعة مما تظن. الغيلان يترقّبون، وكل خطوة خطوتها هنا كانت بمثابة اقتراب أكثر من الهاوية.

التفت (أدهم) ببطء، عيناه تفتّشان المكان وراءه، يبحث عن (فريد) ليطمئن أن الكاميرا تعمل، وأن كل لحظة تُسجَّل، لكنه لم يجد أثره. وجد الكاميرا ملقاة على الأرض، فاقترب منها وحملها. بدا الهواء ثقيلًا، والأرض تحت قدميه وكأنها تخونه. خفق قلبه بعنف، وعضّ على شفته، وهمس لنفسه بصوت خافت:

- (فريد).. أين أنت؟

كل شيء حوله صامت، باستثناء همس الريح بين الجدران، والخيالات الطويلة للظلال التي تتلوّى على الأرض. شعور بالوحدة والرصد المستمر يثقل صدره، وكل خطوة كأنها تُقاس بعمره كله، وكل نظرة خلفه تزيد من ارتعاده.

رفع عينيه ببطء نحو مُدثّر، خفق قلبه بعنف، لكنه لم يره أمامه. المكان فارغ، والهواء الثقيل يلتصق بصدره. شعور

غريب باليقظة اجتاحه؛ كان مُدثّر موجودًا، لكنه اختفى بين اللحظات، كما اختفى صديقه، بين الضوء الخافت والظلال الطويلة. كل شيء حوله صامت، إلا دقّات قلبه التي تتردّد كصدى في الفضاء، و(أدهم) يلتقط أنفاسه.

تقدّم بخطوات متثاقلة حاملًا الكاميرا، كل حركة منه تصدح بصدى في صمت القرية الموحشة. ركض داخل القرية، يبحث عن (فريد). وعند عودته، غمره شعور بالدهشة والفزع؛ كل زاوية، وكل بيت، وكل شارع كان يحمل الموت في صمت رهيب. لم يكن مجرّد خلوّ المكان، بل رؤية كل أهل القرية مصلوبين، أجسادهم معلّقة بين السماء والأرض في توازن مرعب، ووجوههم متجمّدة في صرخة صامتة لا يسمعها سوى قلبه.

الظلال الطويلة الممتدة على الجدران جعلت المكان يبدو كلوحة من الرعب. أصوات الريح تتسلّل بين البيوت، تحرّك ثياب المصلوبين بطريقة تثير القشعريرة، وكأنهم يتحرّكون ببطء تحت ضغط ناظر غامض. كل شيء حوله كان صامتًا، إلا دقّات قلبه التي تتسارع، وعيناه لا تفارقان المشهد الذي يرفض عقله تصديقه.

حاول أن يتنفّس بعمق، وكل خطوة يخطوها تضاعف شعوره بالعجز أمام هذا المشهد الذي لم يكن مستعدًا لرؤيته. وقف مشلولًا في منتصف الشارع، عيناه تجولان بين الجثث المصلوبة التي تغطّي كل بيت وكل زاوية. الدم ينقط ببطء من أجسادهم، يلطّخ الحجارة، يقطر على الأرصفة، ويسيل كأن الزمن توقّف عند لحظة العذاب. عشرات الجثث، رجال

ونساء وشيوخ، وجوههم مشوّهة من صراخ دام طويلًا، وعيونهم مفتوحة على اتساعها وكأنها تراقب كل شيء، كل حركة.

كل بيت في القرية صار لوحة من الرعب: أهل معلّقون على أبواب نوافذهم، وعلى الأشجار، وعلى أعمدة الحقول. الأصوات الصامتة، وخفقات قلوبهم الميتة، ورائحة الحديد واللحم المتعفّن، كلها تتجمع لتخلق كابوسًا حيًا لا يهدأ.

كان قلبه يرفرف بعنف، وقدماه متجمّدتان، لكنه مضطر للتحرك. كل قطرة دم، وكل خصلة شعر مضرج، وكل نظرة فارغة، وكل صرخة صامتة؛ كل شيء يختلط في رأسه ويكاد ينسفه. الظلال تتلوّى مع جثث المصلوبين، كأنها أذرع طويلة تمتد لتلتقطه. الهواء مشبع برائحة الموت والفزع، وكل نفس يلتقطه يصبح ثقيلًا كالصخر. شعر بالاختناق، وبالرهبة، وبعجزه الكامل أمام هذا المشهد الذي يرفض العقل تصديقه، وكأن القرية نفسها تعاقبه على دخوله مرة أخرى.

رفع الكاميرا، عيناه لا تفارقان تفاصيل الجثث، تتعمّقان في كل جرح وكل تمزّق في الجلود. وفي زاوية، لمح جثة طفل مصلوب، يده ممدودة وكأنها تطلب النجدة، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، يحدّق فيه مباشرة، فشعر بأن النظرة تتبعه في كل حركة.

وسط هذا الصمت المطبق، تسلّلت أصوات نقط الدم من أجساد أخرى. كل شيء حوله يضغط على عقله. عرقه قطر على وجهه، لكن يده لم تفارق الكاميرا، وعيناه اتّسعتا.

كان يجرّ قدميه وسط أزقّة القرية، كل بيت يمرّ به يواجهه

بالمصير نفسه: أجساد مصلوبة على الأبواب والجدران، تنزف الدماء قطرات حمراء تلطّخ التراب اليابس. الهواء مشبع برائحة الموت، وكأن القرية بأكملها تحوّلت إلى محراب للذبح. وكلما خطا خطوة، كان الصمت يزداد صراخًا في أذنه، حتى توقّف فجأة..

وقعت عيناه على البيت الذي يعرفه جيدًا: بيت والد (ياسين). هناك، عند المدخل، تجمّعت الكارثة في أوجها.

كان (ياسين) ووالده وأمه، أجسادهم مصلوبة على الجدار الأمامي، كأن البيت نفسه صار شاهدًا على مأساتهم. كان (ياسين) في المنتصف، جسده النحيل معلّق بمسامير غائرة، رأسه متدلٍّ على صدره، عيناه نصف مفتوحتين، كأنهما تنظران نحوه بملامح يائسة لا تُحتمل. وبجواره والده، جسده مشدود بقسوة، الحبال غاصت في لحمه حتى بدت جزءًا منه، ووجهه متجمّد على صرخة ألم أبدية. أمّا الأم، فكانت على الجانب الآخر، شعرها متناثر على كتفيها، دموع جافة اختلطت بوجهها الشاحب، كأنها بكت حتى اللحظة الأخيرة قبل أن يتوقّف قلبها.

وقف (أدهم) عاجزًا، عيناه تدوران بين الثلاثة، قلبه يُمزّق بكل نظرة. مدّ يده إلى الكاميرا المعلّقة على صدره، لكنه لم يستطع رفعها.. تجمّد في مكانه، وعيناه عالقتان بالجسد. سقط على ركبتيه، كطفلٍ فقد كل سند، وانفجرت دموعه بعنف، دفن وجهه في كفّيه، وصوته يهتز ببكاء موجوع، بكاء رجلٍ ظلّ يقاوم حتى لم يعد يملك إلا الانكسار. بدا وكأن جدار الصلابة الذي صنعه حول نفسه لسنوات طويلة قد انهار

دفعة واحدة.

نهض ببطء بعد لحظات، وزنه صار أثقل من أن يحمله. مسح دموعه بيده المرتعشة، لكن الدموع لم تتوقف، بل ازدادت مرارة. وقف أمام أجساد (ياسين) وعائلته المصلوبة، رفع رأسه ببطء، والبرد يسري في عروقه.. هناك، عند نهاية الأزقّة، ظهر الشيخ (محفوظ). لم يكن وحيدًا؛ كان واقفًا بثبات، جلبابه الأسود يتماوج مع الريح كأنه جزء من العتمة ذاتها، وعيناه تقدحان بشرر غامض يلسع الهواء. خلفه.. مشهد أسطوري يفوق الوصف.

الظلال أولًا، كانت تلتف حوله كما تلتف الحيّات حول سيّدها؛ أشكال داكنة تتحرك بخفّة، تتخلّل الجدران، وتصعد على الأسطح، كأنها تملك القرية كلها وتتنفّس بدمائها. كانت الظلال تتمدّد ثم تنكمش، ترسم أشباحًا لوجوهٍ متألمة، وملامح مُشوّهة تصرخ بلا صوت، قبل أن تذوب وتعود كتلة سوداء متماوجة. تجمّد في مكانه، عروقه تنبض كطبول الحرب. ظل واقفًا، الصمت يطبق على صدره كقيدٍ حديد، عيناه تتنقّلان بين الوجوه الممزّقة والأجساد الملتوية. الغيلان تزحف ببطء، والأرواح تئن بلا صوت.

ابتسم الشيخ (محفوظ) ابتسامة واثقة، كأنها تخرج من جوف القرون، ثم قال بصوت رخيم يزلزل الأرض:

- أكنت تظنّ أن خطاك عبثٌ في دروبٍ مجهولة؟ كلا.. لقد شُقتَ إليّ سوقًا كما تُساق الشاة إلى الذبح. ما جئتَ إلا لتقف بين يديّ الآن، لتشهد الحقيقة التي طالما حجبتُها عن أعين القوم. أنا الحاكم في هذا المكان، أنا الظلّ الذي عشش في

صدورهم حتى استسلموا، والهمس الذي استقرّ في عقولهم حتى غفلوا، أنا القيد الذي شدّ أرواحهم حتى خضعوا.. كلّهم كانوا ضحيّتي، وكلّهم وهبوني طاعتهم حين خُيّل إليهم أنني مرشدٌ وهادٍ. خدعتهم بالوهم حتى سقطوا، وسقيتُهم من سرابي حتى ارتووا، وما علموا أنني كنت أملكهم لحظة بعد أخرى.. حتى صرتُ أنا مالكَهم، وصاروا هم مملكتي.

التفّ حول نفسه في فخر، ثم أكمل:

- أتدري من أنا يا (أدهم)؟ لستُ شيخًا كما توهّمت.. أنا زُخرائيل. اسمي قد نُسي في كتبكم، لكنني ظللتُ حيًا في ذاكرة الظلال. أنا الحارس والجلّاد، السيّد على هذه الأرض الملعونة.

اقترب خطوة، والظلال خلفه تتماوج كالأمواج:

- هل ظننتَ أن مُدثّر شيخٌ هالك أو عابر سبيل؟ لا.. إنه صنيعي، وخادمي الأمين. هو البوابة التي فتحتها على هذه القرية، واللسان الذي أنطق به بينكم. كل ما حذّرتكم منه لم يكن إلا خيطًا يقودكم إليّ.

رفع يده، كأنما يأمر الهواء أن ينصاع:

- هذه القرية ليست إلا محرابًا لي، وأهلها قرابين نُسجت أرواحهم في سلطاني. أتدري ما حقيقة هؤلاء الذين تراهم مصلوبين؟ إنهم ليسوا ضحايا الغيلان كما تظن.. بل ضحايا سيّدهم. كل القرية كانت مسرحًا لمكائدي، كل بيتٍ كان خيطًا في شباكي. خدعتهم حتى آمنوا أنني ظلّ الله فيهم، وأن كلمتي وحيٌ لا يُردّ. غشيتُ أعينهم بالخوف، وأطبقتُ على قلوبهم بالرهبة، حتى صارت رقابهم طوع أمري.

مدّ يده كأنما يشير إلى الأجساد المعلّقة حولهم، ثم ابتسم ابتسامة كاسرة:

- كنتُ أسقيهم الوهم حتى ارتشفوه كالماء، وأرويهم بالكذب حتى حسبوه حقيقة. هكذا، خطوة بعد خطوة، سلّمت القرية نفسها إليّ. ما كانوا يرون قيودهم، لكنهم ارتضوها، حتى صاروا ملكًا لي جسدًا وروحًا.

اقترب أكثر، وصوته انخفض لكنه ازداد وقعًا:

- لم أكن راعيهم كما زعمت، بل جلّادهم.. لم أكن مخلّصهم، بل آكل أرواحهم. وهكذا تملّكتُهم، حتى غدوا صدىً لسلطاني، وأصبحتُ أنا القرية، والقرية أنا.

وما إن فرغ (محفوظ) من كلماته حتى دوّى خلفه عواء مدوٍّ. الأرض نفسها انفجرت صراخًا، والغيلان خرجوا من الظلال واحدًا تلو الآخر؛ أجساد ملتوية، عظام نافرة من تحت جلود داكنة، عيونهم تتوهّج بلون الدم. وعلى إثرهم انبثقت الأرواح، أشكال ضبابية لرجال ونساء وأطفال، وجوههم مشوّهة، أفواههم مفتوحة على صرخات أبدية، تتطاير حول (أدهم) في دوّامة خانقة.

ارتفعت الأصوات جميعًا، خليط من العويل والضحك والنباح الوحشي، حتى بدا المشهد كأن جهنم صعدت بكل ما فيها لتبايع سيّدها. فتح (محفوظ) ذراعيه، وصوته شقّ الضوضاء بصدى جارف:

- هؤلاء جنودي.. وهذه قرابين سلطاني! كل روح هنا رهينة أمري، وكل غول لا يتحرك إلا بذكري، وكل دم أُريق صار عهدًا

لخلودي. أنا زُخرائيل..

تعالت صرخات الغيلان، وضربت مخالبهم الأرض حتى ارتجّت، بينما الأرواح تلوّث السماء بضباب أسود كثيف، تهتف بصوت واحد:

- زُخرائيل.. زُخرائيل.. سيّد الغيلان.. سيّد الدماء!

وقف (أدهم) في موضعه مبهوتًا، عيناه تتسعان أمام الطوفان الجحيمي، والكاميرا بين يديه تتثاقل، كأنها عاجزة عن حمل ما تراه.

انفلتت ساقا (أدهم) كقوسين مفصولين عن العالم، ركض بلا حساب، مدّ يده في حقيبته وهو يلهث وأخرج الكتاب على آخر صفحاته، وكلُّ نبضةٍ في صدره تقذف به إلى أمامٍ أبعد. الأرض تحت قدميه قد تحولت إلى مائدةٍ تهوي به إلى الهاوية، والهواء يلسع وجهه، ورائحة الموت تلاحقه في كل شهيق، وصدى صرخاته يتبدّد بين البيوت.

خلفه، علا صوت (محفوظ)، أو ما صار اسمه الآن زُخرائيل، بمرارةٍ لا تهدأ، يأمر بصوتٍ لا يقبل التأخير:

- اركضوا! اركضوا وراءه! لا تتركونه يفرّ من حكم الحياة التي كتبناها له!

كانت الظلال تنهض كسرابٍ من الأرض، تتلوّى وتندفع، والغيلان تنقضّ، أقدامهم لا تطرق الأرض كما البشر، بل تخدشها، وتنثر خلفها أثرًا من سوادٍ وشمكٍ في الهواء. اندفع خارج الأزقّة كمن انبثق من بطن الأرض، وبدا يردّد ما في الكتاب:

«يا ظلّ الظل.. يا آكل الصور.. يا من لا يرضى إلا نبضًا مرتجفًا.. أخرج اسمي من دمي، وادفن أثري في صمتٍ لا يبلغه خلق.. باسم الساكن تحت العدم، باسم العين التي ترى ولا ترى، اسلخ نفسي من نفسي، واطرح روحي خلفي كجلدٍ ميت.. إن سمعتم صوتي فلا تجيبوا، وإن شممتم أثري فلا تتبعوا، انصرفوا عن لحمٍ لا روح فيه، وليلٍ لا يسكنه نبض بشر.. انصرفوا، فأنا اليوم محرّم عليكم».

جسده تصبّب عرقًا، وصدره يعلو ويهبط، وقلبه يريد أن يشقّ ضلوعه أمامه. بعد آخر كلمة نطقها (أدهم)، توقّفت الغيلان فجأة عن الهجوم، كما لو أن الكلمات التي تفوّه بها ضربت الهواء بسكينٍ بارد. بعضهم بدأ يتراجع إلى الوراء، وبعضهم أخذ يهتز؛ رؤوسهم ارتفعت دفعة واحدة، وفتحات عيونهم السوداء اتّسعت إلى أقصى حد، وهي تتحسّس شيئًا مهدّدًا لها. جلدهم الرمادي انكمش بسرعة، وظهرت العروق الداكنة على سطحه بوضوحٍ حاد، ثم تحرّكت أجسادهم ببطء للانسحاب.

عندما رآهم على هذه الحالة، أخذ يركض، وعند طرف القرية لمعت له النجاة: السيارة التي تركها عند المدخل. كان الضوء الشاحب للقمر ينساب فوق هيكلها المعدني. ركض بكل ما تبقّى فيه من قوة، خطواته تتعثّر فوق الحصى، وأنفاسه تتلاحق. فتح باب السيارة بعنف، وألقى نفسه إلى الداخل، ويداه المرتجفتان تبحثان عن المفاتيح. اصطدمت أصابعه بالمعدن، سقط المفتاح للحظة، ثم التقطه وكأنه يمسك بخيط حياةٍ أخير. أداره في ثقب التشغيل، واللحظة بين الصمت

ودويّ المحرّك بدت كدهرٍ كامل. دوّى صوت المحرّك أخيرًا، كصرخة من قلب الحديد نفسه.

ضغط على دواسة الوقود بكل ما أوتي من قوة، فاهتزّت السيارة وانطلقت للأمام بعنف، والعجلات تجرجر الحصى تحتها، وتترك غبارًا كثيفًا يلتف حول القرية.

من المرآة الخلفية لمحهم: عشرات الظلال والأجساد الخاوية واقفة، ووجوه الغيلان تلمع من بين الظلام، عيونهم متقدة كجمراتٍ جائعة. أجسادهم جامدة بلا أي حركة حقيقية، وعيونهم مثبتة عليه دون اقتراب، كما لو أن قوى خفية تمنعهم.

وفي تلك اللحظة اندفعت السيارة كوحشٍ آخر، واخترقت الليل، تاركة وراءها صرخات زُخرائيل يتردّد صداها عبر الأزقّة:

- لن تهرب، يا ابن الفناء! ستعود إلينا، طوعًا أو كرهًا!

شدّ (أدهم) قبضته على المقود، وجهه شاحب، عيناه متسعتان، والليل أمامه صار طريقًا مظلمًا لا نهاية له. ومع ذلك، لم يتوقف عن الضغط.. كل ما يريده الآن هو أن يترك هذه القرية خلفه، ولو حتى إلى الأبد.

الفصل الثامن عشر

كان الفجر يزحف ببطء، يلوّن الأفق بخيوط شاحبة من الرماد. كان يقود السيارة كمن يسابق قدرًا لا يُدرك، عيناه محمرّتان من السهر والبكاء، وسيجارته تحترق بين أصابعه كأنها آخر ما يربطه بالعالم المألوف. الطريق أمامه ممتد، لا نهاية له، بينما عقله يضجّ بالصور: (ليلى) المصلوبة، (ياسين) الميت، اختفاء (فريد).. والقرية التي تحوّلت إلى مقبرة للغيلان. كلما حاول أن يغمض عينيه، انفتحت في داخله أبواب الجحيم.

لمّا ظهرت أضواء المدينة في الأفق، شعر (أدهم) كأن صدره ينشقّ لأول مرّة ليتنفّس هواءً غير مثقّل بالدم والموت. ناطحات صغيرة، أبنية متجاورة، سيارات تمرّ مسرعة.. أصوات الحياة التي كانت يومًا عادية بدت له الآن كالمعجزة. ازدحام البشر، صخب الشوارع، أبواق السيارات.. كل ذلك كان أشبه بجرس بعث، يذكّره أن العالم لم ينطفئ بعد.

ترقرقت دمعة في عينيه، لم يدرِ أكانت فرحًا بالنجاة أم حسرةً على من تركهم معلّقين في عتمة القرية. عيناه متعلّقتان بأضواء الأبنية، والسيجارة بين أصابعه تشتعل، وكأنها تسابق أنفاسه اللاهثة.

لم يتوقف، لم يلتفت، فقط عجلات السيارة تلتهم الإسفلت التهامًا، كأنها تعرف وجهتها من غير أن يوجّهها. كانت اللافتات، وإشارات المرور، وضجيج السيارات المحيطة به، تعلن أنه عاد إلى الحضارة، لكنه لم يكن يسمعها إلا كهمهمة بعيدة.

ظلّ هكذا حتى توقّف أمام المبنى العتيق الذي يضم مكتبه.. مأواه الأخير، وشاهده على كل ما دوّنه من أسرار، وكأنه المكان الوحيد القادر على تحمّل وزر ما رآه. ترجّل من السيارة كمن يهرب من مطاردةٍ خفية، وأغلق الباب بعنف حتى اهتزّ صدى الحديد في الشارع. رفع رأسه إلى المبنى، وعيناه تلمعان بوميض حائر بين الإرهاق والجنون.

اندفع نحو الباب، دفعه بيده المرتجفة، ثم اخترق الردهة بخطوات متسارعة. أمام المصعد توقّف لحظة، أنفاسه متلاحقة، لكنه لم يمدّ يده إلى الزرّ.. وكأن داخله يرفض أي لحظة انتظار، أي وقفة، أي زمنٍ مهدور. التفت إلى السلم، واندفع صاعدًا، الدرجات تئنّ تحت وقع قدميه، وصوت أنفاسه يختلط بوقع خطواته. كل طابق يمرّ به يضاعف شعوره أنه يبتعد عن لعنة القرية، ويقترب أكثر من حصنه الأخير.. مكتبه.

جلس (أدهم) أمام مكتبه، أصابعه ترتجف وهو يفتح الحاسوب. أخرج بطاقة الذاكرة من الكاميرا، ووضعها في القارئ. ثوانٍ معدودة مرّت كدهر، ثم انفتحت الشاشة على الصور والمقاطع.. وبدأت الذاكرة تفيض أمامه.

ظهر أولًا مشهد الفرح الغريب، تلك الوجوه التي كانت تتراقص في الظلال، تتلوّى كأجساد لا تعرف الفرح، بل تعرف الطقس والدم. ثم تتابعت اللقطات.. (ليلى) مصلوبة، جسدها عارٍ وملطّخ بالدماء، وعيناها نصف مفتوحتين على موتٍ أبدي.

ثم ظهر شريط آخر: أزقّة القرية، الأجساد المصلوبة على

الأبواب والجدران، وقطرات الدم تتساقط ببطء كأنها تقطر من ذاكرة الجحيم ذاته.

وصوت (محفوظ)، في يوم الإفصاح، يصدح في التسجيل كجرس موت: نصائحه الملتوية، وكلماته التي خدعت الجميع. و(أدهم) يجلس هناك، يحدّق في الشاشة بعينين مثقلتين، كأنهما لا تريان مجرّد صور، بل تريان روحه وهي تُصلب مرة بعد مرة.

بعد أن أنهى (أدهم) نسخ المحتوى على جهازه، جلس لحظة يحدّق في الشاشة، كأن عينيه عالقتان بين الشهادة واللعنة. ثم أغلق الحاسوب دفعة واحدة، والتقط الكاميرا بيده، وضغط عليها بقوة حتى كاد أن يحطّمها، لكنه في النهاية خبّأها داخل حقيبته.

خرج مسرعًا من المكتب، خطواته تتسارع على الدرج كأنها تفرّ من شبح يطارده. الهواء في الخارج كان مختلفًا؛ ضجيج المدينة، أبواق السيارات، أصوات الناس.. كل شيء بدا له غريبًا بعد أن قضى أيامه في جحيم القرية. اتجه مباشرة إلى قسم الشرطة، حقيبته تتدلّى على كتفه، وأصابعه تقبض على الحزام بقوة كأنه يحمي كنزًا أو لعنة. كل خطوة تقرّبه من القسم كانت تثقل صدره أكثر.. لا يعرف هل سيصدّقونه أم سيضحكون في وجهه، لكنه في تلك اللحظة لم يكن يملك خيارًا آخر. كان عليه أن يضع ما رآه في يد السلطة، مهما كان الثمن.

دفع باب القسم، وارتجف صوت المفصلات الحديدية، فالتفتت نحوه العيون المستقرة خلف المكاتب. كان جسده

مثقلاً بالغبار، عيناه محمرّتان، وعرق الخوف والركض لم يجف بعد على جبينه. وقف في وسط القاعة، حقيبته متدلّية على كتفه، وصوته يخرج عميقًا، متشظّيًا بين الغضب والانهيار:

- أنا.. جئت لأبلّغ عن جريمة.. لا، بل عن سلسلة من الجرائم.. مذابح تُرتكب في قرية تُدعى الحزارية.

ساد الصمت، كأن كل ما في المكان تجمّد لحظة. بعض الضباط تبادلوا النظرات المرتابة، بينما خطا (أدهم) خطوة أخرى إلى الأمام، ورفع صوته أكثر، كأن الكلمات تستنزف قلبه:

- رأيت بعيني.. رجالًا ونساءً وأطفالًا مصلوبين على الأبواب والجدران. رأيت دماءً لم تجف، وأرواحًا عالقة في هواء تلك القرية الملعونة. جئتكم بالدليل، بالصوت والصورة، قبل أن يبتلعني المصير نفسه.

اهتزّ القسم كله بصدى صوته، مزيج من الرجاء والإنذار، كأن صرخته كانت آخر محاولة لينقذ نفسه والعالم من تلك الظلمة. ارتفع صوت رصين من مؤخرة القاعة، فالتفت (أدهم) على عجل، فرأى رجلًا يخطو نحوه بثبات. كان يرتدي بدلته الرسمية بإتقان، أزرارها تلمع تحت الضوء الأبيض، وكتفاه العريضتان تشيان بصرامة لا يخففها هدوء ملامحه. عيناه سوداوان نافذتان، كأنهما ميزان يزن البشر بلا رحمة، وفكّه المربّع يوحي بأن هذا رجل اعتاد أن تُطاع كلمته.

توقّف أمام (أدهم)، وبسط يده قليلًا كمن يفتح له بابًا غير منظور، ثم قال بصوت هادئ، خالٍ من الانفعال، لكنه يحمل

في داخله ثِقل الأمر والنهي:

- تفضّل يا أستاذ.. مكتبي هناك.

لم يزد شيئًا، ولم يُمهل (أدهم) ليتردّد؛ فالنبرة وحدها كانت كافية لتجرّه وراءه، كأنها أمر لا يقبل النقاش. دخل (أدهم) خلف الضابط ((أمجد) الكومي) إلى المكتب، خطواته متثاقلة. كان المكتب مرتبًا بدقة صارمة، أوراق مصفوفة بعناية، ومكتب خشبي عريض يتصدّر الغرفة، وخلفه مقعد جلدي أسود يوحي بالهيبة. جلس (أمجد) في مكانه بثبات، وأشار بيده نحو الكرسي المقابل له، وقال بصوت هادئ لكنه نافذ:

- تفضّل بالجلوس.

كان صوته يحمل مزيجًا من الهدوء والسلطة، فلم يجد (أدهم) بدًّا من الانصياع، وجلس، بينما عيناه لا تكفّان عن مراقبة ملامح الرجل، يحاول أن يقرأ خلف هدوئه أي بادرة اهتمام أو مفاجأة.

أشعل (أمجد الكومي) سيجارة بهدوء، ارتفع دخانها في الهواء كستار خفيف يفصل بينه وبين (أدهم)، ثم مدّ العلبة نحوه قائلًا بصوت متزن لا يخلو من لمحة ودٍّ مصطنع:

- سيجارة.. ؟

نظر (أدهم) إلى العلبة، ثم إلى وجه (أمجد) الذي ظل ثابت الملامح، وعيناه تراقبان كل ارتجافة فيه. رفض بإيماءة قصيرة، فأعاد الضابط العلبة إلى جانبه وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته.

قال (أمجد)، وهو ينفث الدخان ببطء، وكأن كلماته تتسلّل مع خيوطه:

- من أنت؟ ما الذي جاء بك إلينا على عجل بهذه الطريقة؟

أجاب (أدهم) بثبات:

- اسمي (أدهم شكري)، صحفي استقصائي، جئت لأبلّغ عن جرائم وقعت في قرية تُدعى الحزارية.

انعقد حاجبا (أمجد) قليلًا، لكن ملامحه ظلت هادئة وهو يميل بجسده إلى الأمام:

- جرائم؟! أيّ نوع من الجرائم تتحدّث عنه؟

أخذ (أدهم) نفسًا عميقًا، وكأن الصور تعود لتنهش ذاكرته، ثم قال بصوتٍ مشحون:

- دخلت القرية فوجدتها مسكونة بالموت.. رجالًا ونساءً وأطفالًا، كأن الحياة نُزعت منهم قسرًا. رأيت بعيني مشاهد صلب، ورأيت كيف سقط أهلها واحدًا تلو الآخر في صمتٍ أشدّ قسوة من الصراخ. كل شيء وثّقته.. في هذه الكاميرا.

ثم مدّ بيده الكاميرا الموضوعة في حقيبته على الطاولة، بينما عيناه لم تفارقا الضابط.

ظلّ (أمجد) ثابتًا، يطرق بأصابعه على المكتب بهدوء، وعيناه تلمعان ببرود مهني وهو يقول:

- ما تقوله.. خطير جدًا يا أستاذ (أدهم). سأحتاج أن أرى ما وثّقته بنفسي.

جلس (أدهم) في مقعده بثقلٍ، بينما مدّ (أمجد الكومي)

يده والتقط الكاميرا، ضغط على زرّ التشغيل، وانطلقت الصور على الشاشة الصغيرة. في البداية ظهر الطريق إلى القرية، ثم بعض المشاهد التي توافق وصف (أدهم): الأزقّة الخالية، الأجواء المشبعة بالصمت.. لكن شيئًا فشيئًا تغيّرت ملامح الضابط. انحنى قليلًا إلى الأمام، عيناه اتّسعتا، والنفَس يتباطأ كأنما يخشى أن يسمع ما لا يُسمع. رفع عينيه نحو (أدهم) للحظة، ثم عاد إلى الشاشة.

كان المشهد جليًا: جسد (ليلى) مصلوب، عارٍ إلا من الدماء التي تسيل على أطرافها. أمامها يقف (أدهم) ذاته، لا بوجه الصحفي الباحث عن الحقيقة، بل بوجه غريب قاسٍ؛ عينان يشتعل فيهما شيء مظلم، وابتسامة متلذّذة ترتسم على محيّاه. كان صوته في التسجيل يعلو بضحكة متقطّعة وهو يطعنها، يبطئ الطعن كأنه يستمتع بعذابها.

ظلّ (أمجد) يتابع، سيجارته بين أصابعه انطفأت دون أن يدري، والدخان تلاشى في الهواء. لم ينطق بكلمة، فقط كان ينظر إلى الشاشة، ثم يرفع عينيه إلى (أدهم)، ويعود إليها مرة أخرى، كأنما يقارن بين الصورة والواقع. رفع بصره للحظة نحو (أدهم) الجالس أمامه، ثم عاد ببطء إلى الشاشة. ملامحه لم تنطق، لا غضب، لا استهجان، فقط ذلك الصمت الكثيف الذي صار أثقل من أي سؤال. الكاميرا تواصل العرض.. و(أمجد) يواصل النظر. يداه ثابتتان، وجهه كالصخر، ودخان السيجارة يعلو في خط متعرّج ويمتزج بالجو الكتيم. و(أدهم).. لا يدري بعد.

لم يكد (أمجد) يستوعب المشهد الأوّل حتى انتقلت

الكاميرا إلى مقطع آخر. الصورة تهتز قليلًا، كأنها التقطت خلسة، لكن ما ظهر بعدها جعل يد الضابط تتوقّف في الهواء. كان (فريد) مطروحًا أرضًا، يتلوّى مستغيثًا بلا حول ولا قوة. انقضّ عليه (أدهم) بعينين تتقدان لامعتين بجنون، عيون لا تشبه الرجل الذي يجلس أمامه. انهال عليه بلا رحمة أو هوادة، يضربه بأداة معدنية ملوّثة بالدم، يرفعها ثم يهوي بها مرارًا بلا توقّف. كل ضربة حطّمت العظام وشوّهت الوجه، حتى تحوّل الجسد إلى كتلة دم ولحم متفكّك بلا أي أثر للإنسانية. لم يكن قتلًا فحسب، بل طقسًا دمويًا، مزيجًا من القسوة والافتراس. الكاميرا التقطت كل شيء: العرق المتصبب، الأنفاس المتقطّعة، الصرخة الأخيرة التي اختنقت بالدماء.

لم يتنفّس (أمجد) للحظة، عيناه صارتا ضيّقتين كخيط رفيع من الصمت القاتل، يراقب المشهد حتى نهايته. حاول أن يُقنع نفسه أن هذا وهم.. خدعة بصرية.. لكن الصوت كان واضحًا؛ الصرخات، الضربات، والدماء المتناثرة على الأرض.

رفع بصره ببطء إلى (أدهم)، لم ينبس بكلمة، فقط نظرته، تلك النظرة الثقيلة التي تكاد تلتهم الصمت، كانت أشدّ وقعًا من أي اتهام. و(أدهم).. لا يزال يجهل ما الذي يُعرض الآن على الشاشة.

أطفأ (أمجد) سيجارته في الطفّاية ببطء، وكأنه يقتل بها صمت الغرفة، ثم اعتدل في جلسته فجأة. مدّ يده نحو الكاميرا، وأغلقها بحركة محسوبة، وقال بصوت هادئ يخفي اضطرابه:

- لحظة واحدة فقط.. سأعود إليك، لا تغادر.

وقف من مقعده، حمل الكاميرا بين يديه بعناية كأنها قطعة أثرية، ثم خطا نحو الباب بخطوات ثابتة. التفت نصف التفاتة، ونظر إلى (أدهم) نظرة مقتضبة لا تُقرأ، قبل أن يضيف:

- اجلس.. لن أتأخّر.

فتح الباب وغادر، تاركًا وراءه (أدهم) غارقًا في حيرة ثقيلة، يجهل ما الذي رآه الضابط للتو.

في الممر الطويل المفضي إلى مكتب المأمور، كان (أمجد) يسير بسرعة مدروسة، يداه تقبضان على الكاميرا كأنها الدليل الأهم في حياته المهنية. وجهه جامد، لكن عينيه تتقدان بشيء بين الرعب واليقين. كلما اقترب من باب المأمور، كان يشعر أن الكاميرا بين يديه ليست مجرّد آلة، بل صندوق أسرار ملعون يحمل في داخله كابوسًا يجب أن يُكشف.

دفع باب مكتب المأمور بخطوات حازمة، فارتفع صوت المفصلات العتيقة معلنًا دخوله. كان المكتب مهيبًا، جدرانه مكسوّة بصور قدامى الضباط، والمأمور جالس خلف مكتبه العريض، عيناه غارقتان في ملفات متراكمة.

رفع المأمور رأسه ببطء، وانعقد حاجباه حين لمح (أمجد) يحمل كاميرا كغنيمة حرب، وقال بصوت غليظ تعوّد على الأوامر أكثر من الأسئلة:

- ما الأمر يا (أمجد)؟

اقترب الضابط الشاب ووضع الكاميرا على المكتب بخفّة، ثم انحنى قليلًا إلى الأمام وقال بصوت خافت لكنه مشحون:

- يجب أن ترى هذا بنفسك، سيدي.. لن تُصدّق ما سجّلته هذه العدسة.

فتح الكاميرا وأدارها ليواجه بها المأمور. على الشاشة ظهر المشهد: جسد (ليلى) المصلوب، عارٍ، تنزف منه الدماء، وصوت (أدهم) يقترب منها، وعيناه تلتمعان بنشوة قاتلة. ظلّ المأمور جامدًا في مكانه، ملامحه تتحجّر شيئًا فشيئًا، كأن الزمن توقّف. لم يقل شيئًا، فقط عيناه تتسعان مع كل ثانية، بينما يقف (أمجد) بجواره يراقب ردّ فعله، ونبضه يتسارع وهو يتمتم لنفسه:

- هل ما أراه حقيقي.. أم نحن أمام شيء يتجاوز العقل؟

أدار التسجيل للأمام ليظهر المشهد الآخر: (أدهم) وهو يهاجم (فريد) بطريقة وحشية، الدماء تتناثر، وصوت (فريد) يختنق بالصراخ. رفع المأمور يده عن المكتب كأنه يريد أن يوقف المشهد، لكن عينيه التصقتا بالشاشة في ذهول مشلول. التفت أخيرًا إلى (أمجد)، وجهه شاحب، وصوته انكسر تحت ثقل الرعب:

- من يكون هذا بحقّ الجحيم؟

ابتسم (أمجد) ابتسامة باهتة، وعيناه ما زالتا تحملان بقايا الذهول، وقال:

- يدّعي (أدهم)، ومتواجد عندي في المكتب، ينتظرني.

هنا تغيّرت ملامح المأمور، شدّ قامته، وانطبقت يده بقوة

على سطح المكتب حتى ارتجّت الأوراق.

قال بصرامة لا تقبل تردّدًا:

- إذن تحفّظ عليه فورًا.. ضعه في الزنزانة، لا أريد أن يخرج من هنا حتى أكشف كل ما وراءه.

انحنى برأسه في طاعة، وقبض على الكاميرا بإحكام، وعيناه تلمعان بجدّية قاتلة.

ثم قال بنبرة منخفضة كأنها وعد:

- كما تأمر يا سيدي.

واستدار خارجًا بخطوات ثابتة، بينما صدى الكلمات الأخيرة للمأمور ظلّ يطنّ في أذنه:

- لا تدع هذا الرجل يغيب عن ناظري، (أمجد).. إنه ليس مجرمًا عاديًا.

عاد إلى مكتبه بخطوات وئيدة. كان (أدهم) جالسًا على الكرسي، شارد النظرات، يحدّق في الفراغ كمن أثقلته الهموم. جلس في مكانه، أشعل سيجارة أخرى، وأخذ منها نفسًا عميقًا، ثم نفث الدخان في هدوء، ينسج جدارًا خفيًا بينه وبين الرجل الجالس أمامه. وبعد صمت قصير قال بصوت متماسك لا يشي بما يدور في صدره:

- أستاذ (أدهم).. ثمّة إجراء يسير ينبغي أن نقوم به، تعال معي.

رفع (أدهم) رأسه إليه، وفي عينيه ارتياب خافت، لكنه لم يجد في وجه (أمجد) ما يدلّ على خطر. نهض مثقلًا بخطوات متردّدة، وسار خلفه عبر ممرّ القسم، حيث الأبواب

الحديدية تصدر صريرًا مكتومًا، ورائحة العطن تعبق في الجوّ. ثم أشار الضابط بيده إشارة قصيرة، فدخل جنديان بزيّهما الرسمي، وقوفهما صارم، وأعينهما لا تعرف التردّد. قال بنبرة حازمة لا تحتمل النقاش:

- خذوه إلى الزنزانة.

ارتبك (أدهم)، واتّسعت عيناه في ذهول، ثم نهض من مقعده ببطء، كأنّ الكلمات صعقته. رفع صوته مضطربًا:

- ما الأمر؟ لماذا الزنزانة؟! أنا جئت أبلّغ عن جريمة، لا لأعامل كمجرم!

أمسكه أحد العساكر من ذراعه، بينما أحاطه الآخر من الخلف، فبدأ يقاوم بحركات متشنّجة، يحاول الإفلات، وصوته يعلو في الممرّ:

- ماذا تفعلون؟! أجبني يا حضرة الضابط! فيمَ تُتّهمني؟!

لكن (أمجد) ظلّ واقفًا، يراقبه بوجه جامد لا يشي بأيّ انفعال. عيناه تلمعان في صمت غامض، ودخان سيجارته يتصاعد في الهواء كأنّه يحجب الحقيقة.

اقتيد (أدهم) بين الأذرع الحديدية للعساكر، وهو يصرخ، كلماته تتردّد في الجدران الباردة:

- أنا الضحيّة.. أسمعتم؟ أنا الضحيّة!

بينما كانت خطواته تُجرّ جرًّا نحو الممرّ المؤدّي إلى الزنازين، ووقع صوته يتلاشى شيئًا فشيئًا، حتى لم يبقَ سوى صرير الحديد وبرد الجدران.

الفصل التاسع عشر

لم تكن زنزانةً فحسب.. بل قبرًا مفتوحًا في أحشاء الأرض. الظلام هناك لم يكن غيابًا للضوء، بل حضورًا كثيفًا لشيءٍ آخر.. كيانٌ يتنفس من الشقوق، يتمدد على الجدران، ويتدلّى من السقف كظلٍّ يزحف ببطءٍ نحو صدره. الجدران تتهشّم في صمته، وكأنها تتحلل معه، تغدو أكثر هشاشةً في كل ساعة، تصرخ بالصمت وتئنّ من ثقل الأسرار المدفونة فيها. أما الأرضية الباردة فقد التصقت بجسده حتى صار يميّز كل نتوءٍ فيها، وكأنها تحفظ شكل جسده كما يحفظ القبر ملامح ساكنه.

وفي هذا القبر الذي سُمّي مجازًا زنزانة، لم يكن الزمن يمضي، بل كان يترسّب حوله طبقة بعد أخرى، حتى صار هو نفسه جزءًا من جدارها. أيامٌ مضت وهو محبوس في هذا الفراغ، لا يُسمع فيه سوى خبطات قلبه المرتبك وصوت الماء المتساقط من السقف كإيقاع موتٍ منتظم. لكن ما كان يجري خارج تلك الجدران لم يكن أقل ظلمة. فاسمه، وصورته، وقصته التي لم يفهمها بعد، صارت حديث الشوارع والمقاهي، وعناوين الصحف ونشرات الأخبار.

قضيته خرجت من بين يدي المحققين لتصبح رأيًا عامًا ينهش سمعته كما تنهش الرطوبة عظامه. صار «الصحفي القاتل» حديث الناس، بين من يراه مجرمًا بدمٍ بارد، ومن يراه ضحية لمؤامرة لا يُدرك أبعادها إلا من صنعها.

وفي قلب كل هذا، جلس ساكنًا في قبره المفتوح، يتساءل بصمتٍ حارق: أهو المذنب حقًا؟ أم أنه مجرّد شاهدٍ سقط في

فخّ لم يكن معدًا له وحده؟

في الخارج، كان اسمه يتردّد كالرعد في سماء المدينة. الجرائد تتسابق لنشر العناوين العريضة، والقنوات الفضائية تُعيد بث الصور الملتقطة له وهو داخل قسم الشرطة مكبّل اليدين. صار وجهه، الذي اعتاده القرّاء بجانب مقالاته المثيرة، مادة دسمة لنشرات الأخبار وصفحات الرأي. وسط هذا الضجيج، ارتفع صوتٌ بعينه فوق الجميع: كمال الجبالي، الصحفي المخضرم الذي طالما حمل ضغينة دفينة له، جلس في برامجه الحوارية، ببدلته الأنيقة وابتسامته الماكرة، يجلد غريمه غيابًا أمام ملايين المشاهدين.

رفع أوراقًا أمام الكاميرا وهو يقول بصوتٍ ملؤه الثقة:

- أيها السادة، نحن لا نتحدث عن صحفي شريف يبحث.. نحن أمام رجلٍ مهووس بالقتل، أمام مجرمٍ لم يكتفِ بجرّ قلمه إلى المستنقع، بل جرّ معه أرواحًا بريئة. الأدلة واضحة، والفيديوهات التي تسرّبت لا تترك مجالًا للشك.

في مقالاته اليومية، لم يكتفِ كمال بالهجوم، بل صوّر (أدهم) كوحشٍ متعطش للدماء، يكتب عن الجرائم ليتلذذ بإعادة ارتكابها. اتهمه بانتهاك شرف (ليلى) وتعذيبها بدمٍ بارد، بل وادّعى أن ما ظهر في التسجيلات لم يكن إلا نتاج انحرافاته التي طالما خبّأها خلف ستار الصحافة الاستقصائية. الجمهور انقسم بين من يصدّق كل كلمة ينطق بها كمال، وبين قلةٍ تشكّك وتتساءل: أليس غريبًا أن يكون الرجل الذي كشف قضايا الفساد والقتل هو نفسه القاتل؟

لكن الحقيقة المُرّة أن صوت التشكيك كان ضعيفًا، بينما

صوت الاتهام كان يعلو كل يوم حتى غطّى على أي محاولة لإنصافه. صار اسمه على ألسنة الجميع، لكن ليس كصحفي شجاع، بل كـ«سفّاح الصحافة».

***

فتح العسكري باب الزنزانة بصوت صريرٍ حاد، فأومأ إليه قائلًا بصوت خشن لكنه واضح:

- لديك زيارة، استعد.

ارتجف وهو يرفع رأسه ببطء، عيناه تتلمّسان الظلام الذي أصبح مألوفًا له، ويحاول أن يستوعب ما يعنيه هذا التغيير المفاجئ. الصوت لم يكن فيه تهديد مباشر، لكنه حمل معه وميض أملٍ غريب، شعورًا لم يختبره منذ أيامه في هذه الحجرة المظلمة.

خطا بخطوات ثقيلة خلف العسكري، كل خطوة تصطدم بصمت الممر الطويل والبارد. كان جسده منكمشًا، وكتفاه مائلتان إلى الأمام كما لو كان يحاول أن يختبئ من العالم كله. دقنه الخفيفة التي لم تهتم بحلقها الأيام الأخيرة كانت متشابكة مع شعورٍ عميق بالتعب والحزن، وكل شعرة فيها تبدو وكأنها تروي قصة الإعياء والضياع الذي يعتصر قلبه.

نظرته كانت مشتتة، عيناه تلتقطان الظلال على الجدران المتشققة، لكن عقله لا يركّز إلا على الفوضى الداخلية التي تموج بداخله. كل خطوة تمثّل صراعًا بين الرغبة في المقاومة والرغبة في الانسحاب، وكل نفسٍ يسحبه نحو عمق إحساسه بالوحدة واليأس.

العسكري يسير بجواره بثبات، صوته مكتوم في خطواته، ونظراته قصيرة نحوه، بينما (أدهم) يكاد يغرق في بحر أفكاره، غريبًا عن كل ما حوله، غارقًا في حزنه.

دخل (أدهم) مكتب المأمور بخطوات متثاقلة، وكل نفسٍ منه يقطر تعبًا وغصّة. على الفور وقع بصره على (نادية)، جالسة بهدوء خلف المكتب، عيناها تلمعان بالحزن والقلق، والملامح الصارمة في وجهها لا تخفي ألمها. دمعة واحدة انزلقت من عينه، زحفت ببطء على خده، كأنها ترجمة صامتة لكل ما احتواه قلبه من ألمٍ وفقد.

المأمور جلس خلف مكتبه، عيناه ثابتتان عليه، وصوته رزين وثقيل حين دعا:

- تفضل.. اجلس.

اقترب ببطء، جسده مثقل بما حمله من صمتٍ مرير، وهو يجلس أمام المأمور و(نادية). كل لحظةٍ في المكان تضغط على صدره، تضعف كاهله، وتجعله مدركًا لكل الجراح التي يجزّها معه. لكنه يبقى صامتًا، متماسكًا من الخارج، بينما قلبه يئنّ في صمت.

نهض المأمور ببطء من وراء مكتبه، حركته هادئة لكنها حازمة، وقال بصوتٍ منخفض لا يخلو من الرسمية:

- سأترككما لدقائق.

خرج المأمور من الغرفة، تاركًا (أدهم) و(نادية) وجهًا لوجه، والصمت يملأ المكان كما لو أنه جدارٌ ثقيل بينهما. تبادلا النظرات؛ نظرة (نادية) كانت مليئة بالقلق والحنان، محاولة

أن تصل إلى الداخل المضطرب لـ(أدهم) دون أن تنطق كلمة. أما (أدهم) فكان قلبه ينبض بسرعة، عيناه تلتقطان كل حركةٍ منها، كل وهمٍ من عاطفة، لكنه بالكاد يجرؤ على الرد. يشعر بثقل الأيام الماضية، بالخوف، باليأس، وبمزيجٍ غريب من الاعتماد والثقة التي لم يعتد على منحها لأحد. كل نفسٍ كانا يتبادلاه يحمل ألف معنى، لكنها بقيت حبيسة بين العيون، حوارات صامتة تخترق الصدر قبل أن تصل إلى اللسان.

رفع رأسه، صوته مملوء بالارتباك، لكنه ظل متماسكًا في كلماته:

- أنا.. لم أقتل أحدًا! أنا لست كاذبًا، لست مذنبًا بما يُتهمني به.

نظر إليها بعينين تلمعان بالثقة واليأس معًا، وقال:

- اجعليهم يذهبون إلى القرية يا (نادية).. أنتِ طبيبة نفسية، تعرفين أعماق نفسي، تعرفين أني لست مريضًا عقليًا، وأن ما يحدث معي لم يكن بداعي الجنون.

صوته ارتجف قليلًا عند كلمة «القرية»، لكنه أضاف بثبات:

- هناك الحقيقة.. هناك كل شيء سينكشف.

نظر إليها، ينتظر أن تقرر، وعيناه تحملان توسلًا صامتًا لا يحتاج إلى كلمات. حاولت (نادية) أن تكتم ارتجاف شفتيها، ونظراتها تمزج بين الحزن والقلق، وقالت بصوتٍ هادئ لكنه مثقل بالصدمة:

- (أدهم).. الشرطة بالفعل ذهبت إلى تلك القرية.. لكن ما وجدته لم يكن سوى صمتٍ مهجور، بيوت خاوية، طرقات

خالية من أي روح. لا أثر لأي إنسان.. ولا سجلات لأي شخص باسم (ياسين) أو أبيه كما تقول.

رفعت عينيها لتلتقي بعينيه، والدمعة تكاد تهرب من زاوية عينيها، لكنها كبحتها، محاولة أن تُبقي صوتها متزنًا:

- لا شيء.. كل شيء كان فارغًا.

رفع حاجبيه، وصوته يرتجف بين الدهشة والارتباك:

- لو فتحتِ بريدي الإلكتروني.. ستجدين حساب (ياسين).. وقد أرسل لي رسائل.. كل شيء موثّق هناك!

نظرت إليه بعينين ملؤهما الحسرة، وكتفها يرتجف خفيفًا، وقالت بصوت منخفض، لكنه رصين:

- لقد فتّشت الشرطة بريدك بالفعل.. ولم يجدوا شيئًا.. لا رسائل، ولا حساب، ولا أثر لأي شخص. لم يرسل لك أحد شيئًا.

عمّ الصمت المكان، وجلس على الكرسي، عاقدًا حاجبيه، يحدّق في الأرض، كأن الأرض سرقت منه كل ما كان يؤمن به. نظرت (نادية) إليه بعينين ملؤهما القلق والحزن، وارتعشت شفتاها قليلًا قبل أن تقول بنبرة تودّد ممزوجة بالإصرار:

- أرجوك، انسَ هذه القصة كلها.. الغيلان، زخرائيل، كل ما حدث في تلك القرية.. دعنا نغلق هذا الباب.

مدّت له يدها، محاولة أن تمنحه شعورًا بالثقة، وأضافت بصوت أخف، يختلط فيه الحزم بالرحمة:

- أنا هنا لأساعدك، سأثبت لمن حولنا تاريخك الطبي.. كل

شيء عن مرضك النفسي.. أمرٌ يعرفه أنا وأنت فقط. لن أتركك تواجه هذه الأكاذيب وحدك.

وقف للحظة، عيناه تلتقيان بعينيها، كأنهما تبحثان عن ملاذ بين كلماتها، بين وعدها بالدعم وبين حقيقة غموض ما عاشه. ارتجفت شفتيه وهو يرفع صوته، عيناه شاخصتان نحوها بإصرار لا يقبل الشك:

- أنا لست كاذبًا.. ولا موهومًا! لم أقتل (فريد).. ولم أقتل (ليلى).. كل ما تقولينه عني خاطئ.

تردد صوته قليلًا عند الكلمات الأخيرة، لكن نظراته كانت صلبة، كأنها تحاول أن تُثبت لها، قبل أن تُثبت للعالم، حقيقة ما عاشه وما شاهده. نطقت وعيناها ممتلئتان بالحسرة والجدية، وصوتها منخفض لكنه حاد:

- أنت تعرف الحقيقة جيدًا، وأنا أعرفك أكثر من أي أحد. تاريخك النفسي.. سنوات طويلة من الصدمات والغياب النفسي، منذ اختفاء (يحيى)، وفاة والدك، وإدخال والدتك المستشفى.. كل هذا ترك أثره فيك.

رفعت أوراقًا أمامه، أوراقًا تُثبت ماضيه المرضي، ومراحل العلاج النفسي الذي خضع له: الجلسات، التقييمات، الملاحظات، وكل ما يوضح الصدمات والاضطرابات التي صاحبت حياته.

أضافت بنبرة حازمة:

- أنا هنا لأذكّرك بحقيقة نفسك، ليس لأتهمك، بل لتعرف أنك بحاجة لمن يوجّهك، لمن يحفّزك على مواجهة الواقع.. لا

لتغرق في خيالات لم تكن واقعًا.

كانت نظراتها تمزج بين القلق والحزم، وعينا (أدهم) تتقاطعان مع عينيها، يلتقط الحقيقة في كلماتها، لكنه يشعر بثقلها كالسقف الذي يضغط على صدره.

نظر إليها بعينين متقدتين بالغضب واليأس، صوته ينهار لكنه يصرخ بالحق:

- أنا لست كذابًا، ولن أكون مريضًا نفسيًا، يا (نادية)! اسمعيني.. كل ما أقول عن القرية.. عن الغيلان.. صحيح! كل شيء وثقته الكاميرا.. وكل شيء موجود في نسخة على الجهاز بالمكتب.. شاهديها بنفسك!.. الرقم السري للملف تاريخ زواجنا..

تراجع جسدها إلى الوراء، كأن الكلمات لا جدوى منها، أما هو فانهار على الكرسي، رأسه في يديه، ودموعه تنهمر بغزارة، صوته يختلط بالارتجاف:

- لم أقتل أحدًا.. ولم أخترع شيئًا.. كل شيء كان أمام عيني، كل الرعب والدمار، وأنا حملت شهادته.. أنا.. أنا لست كاذبًا..

دخل المأمور فجأة إلى الغرفة، خطواته الثقيلة تملأ الصمت المتوتر، وصوته يأمر العساكر:

- خذوه إلى الزنزانة مرة أخرى!

ارتجف، ورفع رأسه وهو يصرخ بصوت ممزق بين الغضب واليأس:

- لا تفهمون! كل شيء كان حقيقيًا! كل ما رأيته.. كل ما

عشته.. كل شيء موجود هناك! القرية.. الغيلان.. زخرائيل.. الكاميرا.. كل شيء!

اقترب العساكر منه، قبضاتهم مشدودة، وهو يقاوم، يصرخ ويطلب أن يُستمع إليه، لكن أصواتهم وقوة الأوامر أحاطت به كما لو أن العالم كله ضدّه. صوته ارتفع، وصدى كلماته يتردّد في أركان المكتب، صرخة الحقيقة المُجهَضة في وجه الشك والإنكار.

***

وبعد ساعة، وفي قاعة مغلقة، جلست (نادية)، بثوبها الأسود وملامحها الشاحبة، أمام لجنة من ثلاثة أطباء نفسيين. الأوراق مبعثرة على الطاولة أمامهم، والجو مثقل برائحة القلق. عيناها كانتا تائهتين بين وجوه الأطباء، لكنها تماسكت، وأخرجت من حقيبتها ملفًا بنيًا ممتلئًا بالتقارير. وضعت الملف على الطاولة ودفعته ببطء نحوهم، وصوتها يرتجف، لكن كلماتها جاءت حادة كأنها تقطع الهواء:

- هذا.. تاريخُه الطبي. (أدهم) لم يكن يومًا إنسانًا مستقرًا، الهوس كان يسكنه منذ سنوات، يطارده كظلٍّ لا يفارقه.

فتح أحد الأطباء الأوراق، عيناه تتنقّلان بين السطور المكتوبة: «اضطراب وسواس قهري مع اندفاعية سلوكية»، «نوبات فصام قصيرة»، «تاريخ مع هلاوس سمعية وبصرية». كان المرض مرسومًا كخريطة على صفحات التقرير.

رفعت رأسها وأضافت، وكأنها تحاول أن تُثبت للكون كله ما لم تستطع من قبل:

- كان يستيقظ في منتصف الليل وهو يصرخ، يتحدث مع أشباحٍ لا نراها، يكتب مئات الصفحات في يوم واحد وكأن شيئًا يطارده. كان يختفي عن البيت أيامًا ثم يعود بعيون زائغة، يظنّ أن الجميع يتآمرون عليه. لقد فقد القدرة على الفصل بين الحقيقة والخيال.

سكتت قليلًا، ثم قالت بصوت منخفض لكنه غارق في الألم:

- إن (أدهم).. ليس مجرمًا، بل مريضًا. مكانه ليس خلف القضبان، بل تحت إشرافكم أنتم.

تبادل الأطباء النظرات، أحدهم شبك أصابعه أمام وجهه وقال بهدوء:

- ما تصفينه أقرب إلى اضطراب ذهاني مع هوس استقصائي، حالة تدفعه إلى مطاردة الحقائق حتى لو لم تكن موجودة، وتحويل الأوهام إلى وقائع.

تنفست (نادية) بعمق، وكأنها تستجمع ما تبقّى لها من قوة، ثم نظرت في وجوه الأطباء وقالت بصوت متماسك رغم ارتعاش يديها:

- إن ما وصل به (أدهم) إلى هذه الحال لم يكن وليد لحظة.. بل تراكم جراحٍ لم تندمل منذ الطفولة.

أطرقت قليلًا، ثم أضافت بصوت أشبه بالاعتراف:

- كان له أخٌ اسمه (يحيى).. اختفى في ظروف غامضة وهو في السادسة عشرة.. لم يُعثر على جثته قط، ولم نعرف مصيره حتى اليوم.. تلك الحادثة حفرت في نفس (أدهم) جرحًا لا يندمل، جعلته مهووسًا بالبحث، يطارد الحقيقة

وكأنها دينٌ لم يسدّده بعد.

توقفت لحظة، عيناها امتلأتا بالدموع، لكنها مضت:

- وبعدها بأشهر قليلة.. وجد أباه معلّقًا بحبل في سقف البيت، مشهد الانتحار ظل يطارده في أحلامه وفي يقظته، ثم جاءت الطعنة الأخيرة حين فقد أمه، إذ دخلت في انهيارٍ عقلي كامل وأُودعت مستشفى الأمراض النفسية حتى ماتت هناك.

أسندت يديها على الطاولة، وصوتها صار حادًا كالنصل:

- كيف لرجلٍ أن ينجو من كل ذلك؟ إن حياته كلها سلسلة من المآسي، والجنون لم يكن خيارًا له، بل قدرًا مفروضًا عليه.

أحد الأطباء الثلاثة، رجل أشيب ذو نظرة عميقة، أطرق رأسه للحظة قبل أن يقول:

- هذه الصدمات النفسية المتتالية، في سن مبكرة، كفيلة بتحطيم أي اتزانٍ عقلي. نحن أمام حالة اضطراب ذهاني ما بعد الصدمة، متفاقم مع هوس استقصائي جعله يرى نفسه في حربٍ دائمة مع العالم.

رفع أحد الأطباء نظارته عن عينيه، كان رجلًا أصلع في منتصف الخمسينيات، ملامحه صارمة لا تعرف اللين، ثم قال بنبرة قاطعة:

- مع احترامي لما سردتِه يا دكتورة (نادية)، لكن لا ينبغي أن نسمح للعاطفة أن تعمينا. كل ما قلتِه قد يكون حقيقيًا، وقد يكون مجرّد مبررات لسلوك إجرامي واضح.

التفت نحو زملائه، وأردف بصرامة:

- ما شاهدناه في مقاطع الفيديو يبيّن بوضوح أن (أدهم) مارس أفعالًا وحشية، فيها لذّة تعذيب، لا يمكن تفسيرها فقط بأنها أعراض اضطراب نفسي.. نحن أمام رجل خطير.. لا مريض عاجز.

ارتجفت (نادية)، لكنها حاولت أن تتمالك نفسها وقالت بانفعال:

- كلا! أنتم لا تعرفونه كما أعرفه، (أدهم) لم يكن أبدًا ساديًا أو متعطشًا للدماء، ما رأيتموه ليس سوى انعكاسٍ لاضطرابه، أو تشوّهٍ أصاب وعيه..

قاطَعها الطبيب الآخر بحدة:

- أو ربما.. انعكاسٌ لطبيعته الحقيقية!

ساد الصمت القاعة، وانقسمت النظرات بين تعاطفٍ مشوب بالشك، وبرودٍ يخفي خوفًا دفينًا من رجلٍ بدا أن قضيته لم تعد مسألة تحقيق.. بل معركة بين الجنون والجريمة.

***

جلس المأمور على مكتبه، يطوي أصابعه فوق بعضهما ببطء، وعيناه تتجولان بين الحاضرين، كأنه يزن كل كلمة وكل موقف. ثم رفع صوته بوقارٍ يحاول السيطرة على القاعة:

- بعد الاطلاع على كل ما قدّمتموه، أريد تقريرًا مبدئيًا، واضحًا ومفصّلًا، حول حالة (أدهم) نفسيًا. هل نعتبره مريضًا يحتاج إلى رعاية عاجلة في مستشفى الأمراض العقلية.. أم سنحوّله مباشرة إلى العدالة الجنائية؟

نظرات الأطباء تلاقت مع (نادية)، التي أمسكت بملفٍ ضخم أمامها، وأشارت إلى الصفحات المثبّتة بالمستندات الطبية والتقارير النفسية السابقة:

- كل الأوراق أمامكم، معتمدة من خبراء، وتوضح اضطراب (أدهم) النفسي بوضوح. فقدانه شقيقه في ظروف غامضة، انتحار والده، دخول والدته المستشفى.. كل هذا شكّل شخصية مشوّهة، هشّة، عُرضة للانفجار، لا تتحكم في تصرّفاتها عند مواجهة صدمات مروّعة.

ابتسم أحد الأطباء بتشكك، ثم قال:

- قد يكون كل ما تقولينه صحيحًا، لكنه لم يوضح لنا سبب استمراره في العنف، وفي لذّة إيذاء الآخرين.

ساد الصمت مرة أخرى، والمأمور يمسك قلمه، يكتب، يراجع، ثم قال:

- إذن، على أساس هذا التقرير، سأنتظر استكمال التحليل النفسي النهائي، وبعده سنتخذ القرار.

جلست مسترخية قليلًا، لكنها لا تزال متوترة. خارج نافذة الغرفة، كان صخب الشوارع مستمرًا، وكأن العالم لا يلتفت لما حدث ولا لما سيكشفه المستقبل عن (أدهم).

***

جلس (أدهم) في الزنزانة الضيقة، جسده منكمش بين الجدران الباردة، رأسه يغطّيه الظلام كعباءة ثقيلة. شعوره بالخوف أصبح ملموسًا، كأن الهواء نفسه يضغط عليه، وكل حركة خفيفة تثير في ذهنه خيالات تلتف حوله: أصوات

خطوات لا وجود لها، ظلّ يتحرك عند الزاوية، وجوه مشوّهة تهمس باسمه.

كان يرتعش، قلبه يدق بعنف، والعتمة حوله تتسع لتلتهمه، تاركةً إياه وحيدًا مع أحلام اليقظة التي تتحول إلى كوابيس حيّة. كل خفقة من قلبه تشبه دق ناقوس تحذير، وكل تنفّس يذكّره بكمية الرعب التي عاشها، وكأن الزنزانة نفسها صارت مسرحًا لشياطينه الخاصة.

أمسك (أدهم) الورقة والقلم اللذين سلّمهما له المأمور، يداه ترتجفان من البرد والخوف، لكنه حاول أن يثبتهما بقبضة قوية. نظر إلى الصفحة البيضاء أمامه، كأنها مرآة فارغة تنتظر أن يسكب فيها كل ما احتواه عقله المشتت من أحداث وصور وأسماء، وكل تفاصيل القرية الملعونة.

ارتجفت يد (أدهم)، لكنها تمسّكت بالقلم كأنه طوق نجاة وسط محيط من الظلام. حاول أن يسكب رعبه في صفحات المفكرة القديمة، لكن القلم توقف فجأة، تجمّد بين أصابعه، كأن قوة خفية تمسك به من الجهة الأخرى.

رفع نظره إلى الورقة أمامه، التي كانت فارغة قبل لحظات، فإذا بها الآن تحمل كلمات محفورة، كأن يدًا خشنة قد نبشتها منذ زمن بعيد:

«لم يكن يجب أن تأتي».

ثم، من بين الظلال، بدأ ضوء خافت يتجمع، شكل يتجلّى شيئًا فشيئًا.. زخرائيل ظهر أمامه، عيناه تتقدان بنيران سوداء، وجسده يتلوّى كما لو كان الظلام نفسه اتخذ شكلًا بشريًا. صمت الزنزانة أصبح رهيبًا، والهواء يتقلّص حول

(أدهم)، وكأن المكان بأسره يحبس أنفاسه أمام هذا المشهد المرعب.

حدّق في (أدهم) بنظرة تخترق أعماقه، عيناه كأنهما مرايا سوداء تعكسان كل خوفه وكل خطاياه المحتملة، تُمسك بروحه قبل جسده. النظرة لم تكن مجرّد تحدٍّ، بل محاكمة صامتة، جرّدت (أدهم) من أي شعور بالطمأنينة، وأرغمت قلبه على الانقباض. كل رمشٍ يتفتّح، كل حركة عين، كانت كأنها تنحت في ذاكرته ما لم يجرؤ على مواجهته، وتزرع في داخله إحساسًا مرعبًا أنه أصبح مكشوفًا أمام قوة لا يطيقها العقل البشري.

ارتجف (أدهم) وهو يحدّق بزخرائيل، الذي ابتسم ابتسامة قاسية، صوته يخرج منخفضًا لكنه يملأ الزنزانة والظلام المحيط:

- أيّها الإنسان الهزيل.. لن يصدّقك أحد، لن يسمعك أحد، ولن ينجو أحد من الحقيقة التي رأيت.. أنا هنا، وأنا أرى كل ما فعلت، وكل ما ستفعل، كل القرية، كل الأرواح، كل دماء الغيلان.. ستظل شاهدةً على صمتك الأبدي.

توقف قليلًا، ثم أكمل بنبرة تصمّ الآذان:

- لن يصدّقك بشر، ولن يرحمك الزمن.. ما رأيته، ما عشته، ما حفظته بالكاميرا.. كلّه لن يكون سوى قصة في فم صامت، قصة تُروى عن إنسان تجرّأ على لمس ما لا يُدركه.

صمت المكان، والظلام يثقل الهواء حول (أدهم)، ثم ارتفع صوت زخرائيل، عميقًا ومرعبًا، كأنه يخرج من أعماق القبر:

- اسمعني جيدًا، (أدهم).. أمدّ لك يد الخلود، حياة لا تنتهي، قوة لا تُقاس، عالم لن تعرف فيه الموت ولا الضعف.. مقابل روحك.

اقترب (أدهم) خطوة مترددة، عيناه تلتقطان شرر الضوء الغامض الذي ينبعث من الكيان، ورغم الرعب، ارتجف قلبه بين الرغبة في النجاة والرفض الصارم:

- لا.. لن أبيع روحي.. لا أقبل هذا!

ابتسم زخرائيل ابتسامة ثقيلة، تملؤها خبث القرون، وصوته يملأ الزنزانة كأنها تتنفس معه:

- فكّر جيدًا.. لا أحد سيصدّقك، كل من عرفك سيظنّ أنّك فقدت عقلك، وكل خيار ترفضه.. يقترب منك الموت أكثر.

كان عرض الخلود يلمع أمامه، مغريًا ومرعبًا في الوقت ذاته، وكل لحظة تمر تجعل القرار أصعب، وكل نفس يلتقطه يعمّق الإحساس بأن عالمه القديم قد انتهى، وأنه أمام مفترق طرق لا رجعة منه.

أخذ (أدهم) نفسًا عميقًا، قلبه يرفرف بين الرعب والإرهاق، نظر إلى زخرائيل، وعيناه تلمعان بدموع متشابكة مع الغضب واليأس.

- حسنًا.. سأعطيك روحي.. فقط أخرجني من هذا الجحيم، فقط..

ابتسم زخرائيل ابتسامة تمتد عبر الظلال، ويداه بدأتا تتقدّان بالحياة الغريبة، والهواء في الزنزانة صار أثقل، كأن كل شيء حوله يتنفس قوة جديدة. في تلك اللحظة، أدرك

(أدهم) أنه قد قرر مصيره، وأنه لم يعد هناك طريق للعودة. والظلام حوله ارتجف، وكأن الكون نفسه شهد على التعاقد الجديد، على اختيار الخلود الذي دفع به إلى عالم لا أحد يستطيع أن يصدّق ما سيأتي لاحقًا.

الفصل الأخير

الزنزانة كانت غارقة في الظلام كما لو ابتلعها الليل كله، والجدران المتشققة تعكس ظلًا قاتمًا لكل شيء داخلها. الضوء الخافت يتسلّل من مصابيح الممر، وظلّ لجسدٍ يتأرجح ببطء يتدلّى من أعلى القضبان. القميص الذي كان يرتديه تحوّل إلى عقدة مشدودة حول رقبته، ممزّقًا من منتصفه، محوّلًا نفسه إلى حلقة خانقة التفّت بإحكام. الجزء العلوي من القميص عُقد في أحد قضبان نافذة الزنزانة العالية، أمّا الجزء السفلي فمشدود حول عنقه لدرجة تظهر علامات زرقاء عميقة على الجلد. العسكري عند الباب ارتجفت أصابعه فوق الصحن، وعيناه تتّسعان رعبًا حين أدرك ما يراه: جسد السجين متدلّيًا، قدماه لا تلمسان الأرض، وعيناه المغلقتان ترويان مأساة انتهت قبل أن تُكتب فصولها.

الهواء الرطب والغامض يملأ المكان، يتلوّى بين القضبان والجدران ككيان حي، يحمل رائحة الرطوبة والنتن، يذكّر بأن الزنزانة لم تكن مجرّد حبس، بل محكمة ظلّها أطول من الحياة نفسها. الصمت هنا ليس غياب الصوت، بل صرخة جامدة تثقل الممرات، تصرخ بما لم يجرؤ أحد على سماعه.

العسكري لم يتحرّك، حدّق في الجسد الذي يتدلّى أمامه، قلبه يرفرف، وكأنه يواجه حقيقة أعمق من مجرّد جريمة. تقدّم العسكري بخطوات بطيئة، دخل، نظراته تتفحّص المكان، ثم توقّف فجأة، صرخة صامتة تكاد تتقطّع مع أنفاسه، فأسرع بالعودة إلى الخارج، صائحًا:

- أحضروا المأمور!.. أحضروا المأمور فورًا!

الجميع تجمهر حول الزنزانة، وجوههم متجمّدة من الصدمة، لا أحد يجرؤ على الكلام. الصمت يخنق الهواء، وعيونهم تتنقّل بين الجسد المشنوق وعيني العسكري، اللتين تتّسعان برعب حقيقي. كان المشهد كالكابوس، لا يُصدّق، والرهبة تسيطر على المكان كله؛ كل نفس متقطّع، وكل قلب يخفق بشدّة، بينما يقترب المأمور، يحاول استيعاب ما يرى.

وصل الخبر إلى (نادية) كالسهم المخترق للهدوء، عبر رسالة قصيرة على هاتفها. صوت الإشعار ارتجف في أذنيها قبل أن تقرأ الكلمات:

«البقاء لله، (أدهم) في ذمّة الله».

قفز قلبها، وتشوش عالمها كله في لحظة. حاولت أن تستوعب، أعادت قراءة الرسالة مرارًا، وكأن تكرار الكلمات قد يمنحها معنى آخر، حياة ثانية، فرصة للإنقاذ. لكن الحقيقة كانت صارمة، لا مهرب منها. جلست على الكرسي، جسدها منهار، كأن كل عضلة فيه فقدت قوتها. عيناها شاخصتان في الفراغ، لكنها لا ترى شيئًا سوى فراغ قاتل، ويدها ترتجف على الهاتف كما لو كان طوق نجاة. الدماء الباردة تسري في عروقها، والرعشة تهزّ قلبها من الداخل.

كل ثانية بدت طويلة، صمت الغرفة يصرخ في أذنها، والذكريات تتهاطل عليها: كل لحظة قضتها معه، كل كلمة، كل وعد، كل يوم عاشته بجواره، كلها الآن تتحوّل إلى وجع لا يُطاق، وألم لا يُحتمل. الدموع بدأت تنساب بلا إرادة، شعرت وكأن العالم كله انهار حولها، وأنها أُصبحت وحيدة، مع كل الحزن والذنب الذي يثقل كاهلها، بلا أي مأوى، بلا أي أمل.

لم تمضِ ساعات قليلة حتى وجدت نفسها في المقبرة الصغيرة. الرياح تعصف برمالها كأنها تواسي القلوب المثقلة بالحزن، وصوتها الداخلي يختلط بأنين الأرض. وقف الجميع حول الحفرة المفتوحة، صمت يكتنف المكان، يكاد يُسمع فيه دقّات القلوب المتسارعة.

(أدهم)، أو بالأحرى جثمانه المغطّى بالثوب الأبيض، كان موضوعًا بهدوء في التراب، لكن المشهد لم يكن هادئًا لأحدٍ آخر. وقفت (نادية) باكية، دموعها تتساقط على التراب، يداها متشابكتان كما لو تحاول التشبث بالحياة نفسها. بجانبها، ابنه الصغير (علاء)، عيناه الواسعتان لا تفهمان تمامًا معنى الرحيل، لكن قلبه الصغير يشعر بثقل الغياب.

حاولت أن تثبت رباطة جأشها، لكنها تراجعت خطوة إلى الوراء. عيناها تراقبان التراب وهو يغطّي جسد زوجها، والدموع تتجمّع في زوايا عينيها دون أن تجد سبيلًا للخروج. ومع أن المقبرة كانت تعجّ بالحزن، وتكتنفها الصرخات الصامتة للقلوب الممزّقة، إلا أن المدينة بدأت تستفيق على خبر وفاة (أدهم). لم تمضِ ساعات حتى امتلأت الصحف الرقمية والمطبوعات بالعناوين الصادمة، لكن بنبرة مختلفة؛ كانت بعض وسائل الإعلام، التي طالما صادفته، تروي موته كأنه نهاية العدالة، وكأنهم أخيرًا قد تنفسوا الصعداء.

«(أدهم).. انتهت اللعبة!»، «الصحفي المثير للجدل يغادر الحياة»، «عدالة أخيرًا تحقّقت!»، كانت عناوين الصفحات الأولى، تزيّنها صور باهتة لـ(أدهم) في زوايا مقاطعته القديمة، ولقطات لحوادثه الصحفية المثيرة للجدل.

المراسلون وقادة الرأي كانوا يلتفّون حول القصص، يعلّقون، يفرحون، وكأن موت شخصٍ قد أنهى عقدة شخصية لهم، متناسين كل التعقيدات، وكل التحقيقات، وكل الحكايات الإنسانية التي ارتبطت به.

وفي مكان بعيد، جلست (نادية)، قلبها مثقل بالحزن والفراغ، ترى كيف أن موته أصبح مادة احتفالية للبعض، وكيف أن ذكراه تحوّلت إلى عنوان رئيسي في الصحف، بينما الدماء والدموع ما زالت على أرض المقبرة، على يديها، وفي قلب ابنه الصغير. شعرت بغصّة تخنقها، وكأن العالم كله قد انقلب، وصارت الحقيقة شيئًا آخر تمامًا عن الذي عايشته، عن الذي رأته بعينيها.

مرّ يومان على رحيل (أدهم)، وظلّت العاصفة في قلب (نادية) مستمرّة، كظلٍّ لا يفارقها في أي زاوية من زوايا البيت. فجأة، دقّ أحد عمال النظافة في مكتب (أدهم)، حاملًا بين يديه أغراضه الشخصية: الكتب، الأوراق، وجهاز الحاسوب الذي كان يحتفظ فيه بكل شيء. وقف عند الباب بصمت، بينما وقفت (نادية) تتأمّل كل هذه الأشياء بعيونٍ ملؤها الحزن، كأنها تعيد استحضار كل لحظة قضتها مع (أدهم)، وكل ذكرى من حياته التي اختصرت بين جدران هذا المكتب.

سادت سكينة ثقيلة أرجاء الغرفة، ممزوجة برائحة الورق العتيق وعبق الذكريات. توقّفت عيناها عند الحاسوب، كأن نبضه الخافت يحمل صدى صوت (أدهم). كل ما فيه يذكّرها بغيابه، وبالحقيقة المخبّأة خلف كل ملف وكل كتاب، تنتظر

من يكتشفها.. وكأنها تنتظرها هي وحدها.

في الليل، جلست (نادية) ببطء على الكرسي المقابل للجهاز، يدها ترتجف قليلًا وهي تمتدّ لتلمس لوحة المفاتيح. شعور بالرهبة يختلط بالأمل اجتاح قلبها، وكأنها تقف على حافة هاوية لا تعرف ما ينتظرها فيها. شغّلت الجهاز، وارتفع ضوء الشاشة ليكسو وجهها بهالة باردة، تكاد تُشعل في عينيها لمعان الحقيقة المخفية. وجدت ملفًا يطلب رقمًا سريًا، فتذكّرت كلام (أدهم):

- لست كذّابًا، ولن أكون مريضًا نفسيًا، يا (نادية)! اسمعيني.. كل ما أقول عن القرية.. عن الغيلان.. صحيح! كل شيء وثّقته الكاميرا.. وكل شيء موجود في نسخة على الجهاز بالمكتب..

كتبت الرقم السري، فتكدّست الصور والفيديوهات أمامها، كلٌ منها يصرخ بالواقع الذي حاول (أدهم) إثباته، كل لقطة تفضح الرواية الرسمية الكاذبة، وكل مستند يروي مأساة لم يصدّقها أحد.

أخذت نفسًا عميقًا، قلبها رفرف بعنف، وعيناها تتّسعان لتستوعبا ما تبعثر أمامها من فظائع القرية: صرخات (ليلى)، دماء أهل القرية، حوارات (أدهم) مع مُدثر، وكل لحظة وثّقتها الكاميرا. شعرت بتيار بارد يجتاح جسدها، يلفّها، ويجعل كل شعور سابق يغرق في خليط من الصدمة، والحزن، والإصرار على كشف الحقيقة. كانت هذه الشاشة الآن، بهذا الضوء الصارخ، شاهدة صامتة على كل ما نُكر، وكل ما حاول العالم تجاهله، لكنها لم تعد صامتة بالنسبة لها.

كانت أمام الجهاز، يداها ترتجفان، لكنها أزالت الغطاء عن الملفات كما لو كانت تكشف عن سر دفين. شريط الفيديو الأوّل بدأ بالتحميل ببطء، كل ثانية منه كأنها إبرة تغرز في قلبها، تصدمها بمشاهد (أدهم)، بصرخات (ليلى) المصلوبة، بعيونه المذعورة أمام الغيلان، وبكل حوار مسجّل مع مُدثّر وزخرائيل.. كل لقطة تفتح أمامها جرح الحقيقة الذي لم يستطع أحد رؤيته.

ارتجفت يداها مرة أخرى، لكنها صمدت، عازمة على كشف كل لحظة، على جمع الأدلة التي رفضها العالم لتصبح شهادة حيّة على ما جرى في القرية. كل ملف تفتحه، كل صورة تشاهدها، وكل صوت مسجّل يسمعه عقلها، كان يثقل قلبها بثقل المسؤولية، ويذكّرها بأن غياب (أدهم) ليس نهاية، بل بداية لمعركة جديدة: معركة الحقيقة ضد إنكار الجميع.

فجأة، توقّف الفيديو، وصمت المكان أصبح خانقًا، كأن الهواء نفسه انكمش حولها. عندها لاحظت ضوءًا خافتًا يتسلّل من زاوية الغرفة، ظلٌّ يرقص على الجدران، وكأن شيئًا يراقبها من كل اتجاه. البرودة تسلّلت إلى جسدها، قلبها تجمّد للحظة، وعيناها تلتقطان خريرًا هادئًا خلفها، حركة غريبة في الظلال. ثم ظهرت على الشاشة رسالة مكتوبة بخط غريب، كأنها منحوتة بالحروف نفسها على صدر الواقع:

«لم يحن وقتك بعد، لكننا نراك.. وكل ما تكشفينه سيرفع ثمنك».

شعرت (نادية) بثقل الكلمات يضغط على صدرها، كأن الغرفة كلها تحوّلت إلى كيان حي، يراقبها، يختبر صبرها،

ويهدّد مصيرها. لم تكن وحدها بعد الآن، وكانت الحقيقة التي تتكشّف أمامها أغلى من أي تهديد، وأقسى من أي صمت. وفي تلك اللحظة، أدركت أن إرث (أدهم) لم يعد مجرّد ملفات أو كاميرات.. بل سلاحًا حيًا، مفتاحًا لمعركة لن تتوقّف إلا بكشف كل شيء، مهما كان الثمن.

وبينما كانت (نادية) مثبتة أمام الشاشة، طرق خفيف على باب الغرفة جعل قلبها يقفز. ارتجف جسدها، ويدها لم تعد تتحكّم بالقلم أو الفأرة. الصوت عاد مرة أخرى، هذه المرة أعلى، يقرع الخشب كما لو كان يريد الدخول بالقوة. نهضت ببطء، كل خطوة منها تصدح صداها في أرجاء الغرفة الخالية تقريبًا. نظرت حولها: الكتب والملفات مبعثرة، جهاز الحاسوب ما زال مفتوحًا، الشاشة تلمع بالرسالة الغامضة.. وبرودة الغرفة ازدادت، الهواء أصبح أثقل، كأن الجدران نفسها تتنفّس معها. وفجأة، بدأت الأشياء تتحرّك من تلقاء نفسها: الكاميرا على المكتب بدأت تدور ببطء، أوراق التسلسل الزمني للطريقة التي وثّق بها (أدهم) الأحداث تهبط على الأرض كما لو أن يدًا خفية تجرّها، والضوء الخافت يخلق ظلالًا كبيرة تتحرّك على الجدران، تشبه أشكال بشرٍ ممدودين، أو الغيلان التي عرفتها من الفيديوهات.

تكرّر طرق الباب، لكن هذه المرة كان مصحوبًا بصوت خرير منخفض، كأن شيئًا يزحف خلفه، يقترب. قلبها يقرع في صدرها بقوة، ودموعها بدأت تنساب بلا إرادة. أمسكت الهاتف، حاولت الاتصال، لكن كل الأزرار على لوحة الاتصال لم تستجب، وكأن الجهاز نفسه أبعد عن عالمها، وتركها وحيدة،

مواجهة بالظلال التي خرجت من الفيديو لتتلبّس الحقيقة.

الظلّ الضخم توقّف عند الباب، يشبه الغيلان في تعرّج جسده الطويل. أطرافه مشوّهة كأنها مفصولة عن الطبيعة، أصابعه طويلة كالأظافر الحادة، وتلتفّ حوله خيوط ضبابية كأنها دخان أسود يتلوّى في الهواء. عيناه كانتا نارًا حمراء تتقدّ في الظلام، تحدّقان بـ(نادية) وكأنهما تفرزان كل ذرّة خوف في قلبها، وتحملان شعورًا بالقدرة المطلقة على القضاء، بلا رحمة. صوت أنفاسه ثقيل، كأنه يزحف على الأرض، همساته تتداخل مع صوت الظلال المحيطة بالمنزل، تقول:

«لقد رأيتِ كل شيء، ولم تفهمي بعد.. »

شعرت بأن الهواء يثقل حول صدرها، أنفاسها تتقطّع، والدم يتجمّد في عروقها. كل خطوة للكيان كانت تتردّد في المكان بصدى مرعب، الأرض كأنها تهتزّ تحت قدميه، والجدران تتلوّى كأنها تعكس وجوده.

وفجأة، تكشّفت الصورة كاملة: هو زخرائيل، الكيان الذي حذّر (أدهم) منذ البداية. وجهه نصف بشري ونصف ظلام، شعاع من نار حمراء يخترق جبهته، وابتسامة باردة تملأ ملامحه بالرعب. صوته العميق اجتاح الغرفة:

«لن يصدّقك أحد، ولن تفلتي من الحقيقة.. أنا هنا، وكل ما رأيتِه كان مجرّد البداية».

توقّفت عن الحركة، جسدها متجمّد، عيناها تكادان تخرجان من محاجرهما، وكل شيء حولها يصرخ بصمت الرعب المطلق، وكأن المنزل أصبح ساحة مواجهة مع كيان

خارج هذا العالم. لحظة واحدة.. شعرت بحرارة غير طبيعية تتصاعد من كل زاوية في البيت. فجأة، انطلقت ألسنة اللهب من الأرض، تتسلّق الجدران كأفاعٍ نارية، تبتلع كل شيء في طريقها.

الدخان الأسود الكثيف يملأ الغرفة، والرائحة تختنق في صدرها، لكنها لم تتحرّك.. جسدها متجمّد، وعيناها مركّزتان على زخرائيل الذي وقف عند الباب، ابتسامته الباردة تتّسع بينما يراقب الجحيم الذي خلقه. الحرارة كانت تقترب منها، لكن لمستها لم تكن مجرّد نار.. كان شعورًا كأنها تحترق من الداخل والخارج معًا. كل شيء من حولها يتحلّل ويذوب في وهج لا يرحم. الصوت العميق لزخرائيل اجتاح الغرفة:

«هكذا تنتهي الحقيقة.. هكذا ينقضي كل شيء».

الكتب، الأوراق، جهاز الحاسوب.. كل إرثه اختفى في اللهب، والظلال حولها تلتف، تلتهم كل شيء في سكون رهيب. دموعها تتساقط لكنها تختلط بالدخان والحرارة، صوتها خافت، بلا كلمة واحدة. وأخيرًا، انفجر البيت بأكمله في وهج نار متوهّجة، وابتلع الليل كل أثر للحياة، كأن القرية نفسها لم تكن إلا خيالًا، وكأن آخر صفحة من حياة (أدهم) و(نادية) قد طُويت إلى الأبد.

في الظلام، وقف زخرائيل وحيدًا، يتلاشى تدريجيًا في الظلال، وترك وراءه صمتًا رهيبًا.. صمتًا لا يُنسى، صمت النهاية الحقيقية.

وفي الصمت الأخير، حين ابتلعت النيران كل أثر، بقيت الحقيقة معلّقة في الظلام.. حقيقة لم تصدّقها العيون، ولم

تفهمها العقول، لكنها ستظل تهمس في الأذهان: هناك من يرى ما لا يراه البشر، وهناك من يدفع الثمن.. واللعبة لم تنتهِ أبدًا.

***